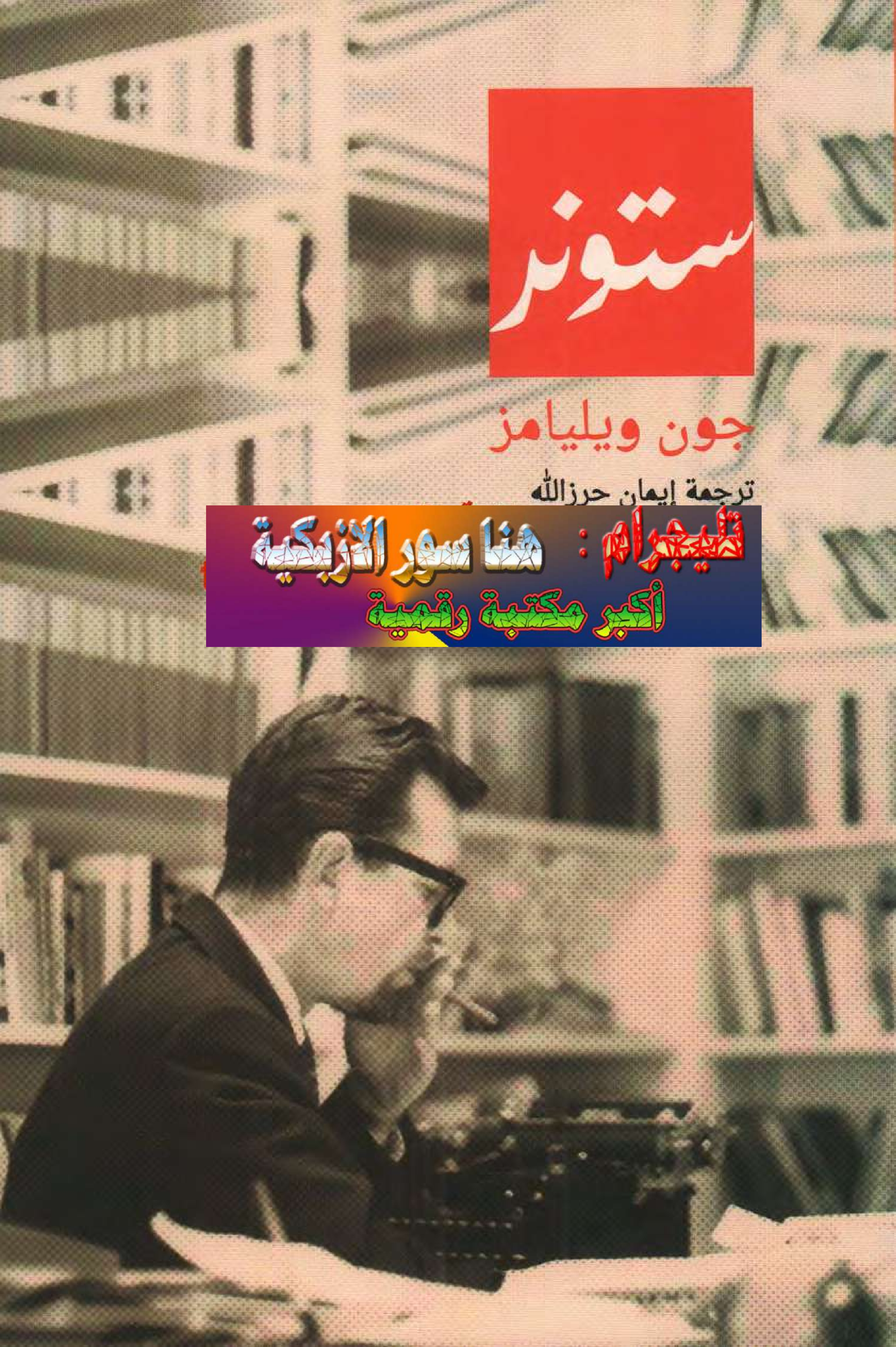

ستونر
جون ويليامز
ترجمة إيمان حرزالله

ستونر
جون ويليامز
الطبعة الآولى 1437/ 2016
ردمك: 7-88039-9938-978

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الأنجليزي Stonerحقوق الترجمة مرخصة بها قانونيا من: Frances Collin, Literary Agent بمقتضى الاتفاق الموقع بينه وبين دار أثر للنشر والتوزيع.



المملكة العربية السعودية- الدمام
تلفون : 00966505774560
الموقع الالكتروني : www.darathar.net
Email: info@darathar.net

جون ويليامز

ستونر

رواية

ترجمة

ايمان حرز الله

مراجعة

نوف الميموني




أهم جروبات على تليجرام
باحثون
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

هذا العمل إهداء لأصدقائي وزملائي السابقين في قسم الأدب الإنجليزي بجامعة ميزوري. هم الذين سيدركون من أول لحظة أنه عمل من نسج الخيال- إذ ليس به شخصية واحدة مأخوذة عن شخص حقيقي، حيًا أو ميتًا، ولا حدث واحد له نظيره الحقيقي في الواقع الذي عشناه معًا في الجامعة. وسيدركون كذلك أنني تعاملت مع جامعة ميزوري بحريّة من حيث المكان والأحداث، حتى لتبدو هي الأخرى مكانًا من نسج الخيال.

.i

التحق ويليام ستونر بجامعة ميزوري طالبًا في السنة الأولى عام ١٩١٠، وكان عمره تسعة عشر عامًا. بعد ذلك بثمانية أعوام، والحرب العالمية الأولى في أوجّها، نال درجة الدكتوراه وقبل بوظيفة معيد في الجامعة نفسها حيث ظل يُدرس حتى وفاته عام ١٩٥٦ لم يتخطَّ درجة الأستاذ المساعد، وقليل من الطلبة يتذكرونه بوضوح كافٍ بعد أن درسوا على يديه. بعد وفاته تبرّع زملاؤه في القسم بمخطوطة من القرون الوسطى لمكتبة الجامعة تكريمًا لذكراه، يمكن العثور عليها الآن في مجموعة الكتب النادرة بالمكتبة، تحمل عبارة: «إهداء إلى مكتبة جامعة ميزوري في ذكرى ويليام ستونر، قسم الأدب الإنجليزي. أحد زملائنا في العمل».

من حين لآخر قد يقرأ الاسم طالبٌ ما عرضاً وبلا تركيز، ثم يتساءل عمن كان ويليام ستونر هذا، لكن فضوله لن يتجاوز التساؤل بشكل عام. نادرًا ما يتحدث عنه الآن زملاؤه في العمل حيث لم يكن له مكانة مميزة بينهم في حياته، كبار السن منهم يعدّون اسمه تذكيرًا بالنهاية التي تنتظرهم جميعًا، وبالنسبة للشباب، فما اسمه إلا صوت لا يحيل لأي ذكرى أو شخصية من الماضي يمكنهم ربط أنفسهم أو مستقبلهم المهني بها.

ولد ستونر عام ١٨٩١ في مزرعة صغيرة بوسط ميزوري بالقرب من قرية بونفيل، على بعد حوالي أربعين ميلاً من كولومبيا، حيث مقرّ الجامعة. بالرغم من صغر سن والديه حين وُلد- كان أبوه في الخامسة والعشرين وأمه على أعتاب العشرين- كان ستونر يراهما، حتى وهو طفل صغير، عجوزين. بدا أبوه وهو في الثلاثين كأنه في الخمسين. محني القامة يحدق ببؤس في قطعة الأرض القاحلة التي تقتات عليها الأسرة سنة تلو الأخرى. وكانت أمه تعتبر حياتها لحظة طويلة الأمد عليها أن تتحملها بصبر. عيناها باهتتان دامعتان، يعزز التجاعيد الصغيرة حولهما شعر رمادي خفيف تربطه خلف رأسها كذيل الأرنب.

منذ نعومة أظافره تحمل ويليام ستونر المسؤوليات. كان في السادسة يحلب الأبقار العجاف، وينظف زريبة الخنازير بجوار المنزل، ويجمع البيضات الصغيرات التي يضعها سرب دجاجات نحيفات. وحتى حين التحق بالمدرسة الريفية التي تبعد ثمانية أميال عن المزرعة، كان يومه، منذ طلوع الفجر وحتى بعد حلول الظلام، زاخرًا بالعمل بشكل أو بآخر. في السابعة عشرة، كانت كتفاه قد بدأتا تنحنيان بالفعل تحت ثقل تلك المسؤوليات.

كانت أسرة هو ولدها الوحيد، تُبقيها مترابطة ضرورة الكدح. يجلس ثلاثتهم في المساء في المطبخ على ضوء مصباح الكيروسين، يحدقون في اللهب الأصفر. لم يكن يُسمع في ذلك الوقت- في الوقت ما بين تناول العشاء ووقت النوم- سوى صوت تململ جسم على كرسي، والصرير الخافت لخشب بدأ يئن قليلاً مع قِدَم البيت.

كان المنزل مبنياً على مربع غير تام، تداعت أعمدته الخشبية غير المطلية حول الشرفة والأبواب، واتخذت بمرور الزمن لون الأرض المجدبة، الرمادي والبني المخطط بالأبيض. في أحد جوانبه قاعة طويلة شحيحة الأثاث، مجرد كراسي مستقيمة الظهر وطاولات من جذوع الشجر،

ومطبخ، حيث تقضي الأسرة أغلب وقتها القليل معًا. وعلى الجانب الآخر غرفتا نوم في كل منهما فراش حديدي مطلي بالمينا البيضاء، وكرسي واحد مستقيم الظهر، ومنضدة عليها مصباح وحوض غسيل. كانت ألواح خشب الأرضية غير مطلية وغير متناسقة وتصر لقِدَمها، وقد ظل التراب ينفذ من خلالها بانتظام، وظلت أم ستونر تعيد كنسها يوميًا.

كان يقوم بفروضه المدرسية كما يقوم بواجباته المنزلية، إنما بمشقة أقل. حين أنهى الثانوية في ربيع ١٩١٠، توقع أن يتحمل المزيد من مسؤوليات الحقل، إذ بدا له أن والده قد صار أبطأ وأكثر إرهاقاً بمرور الشهور.

لكن في إحدى الأمسيات في نهاية الربيع، بعد أن قضى الاثنان نهارًا كاملاً في جرف الذرة، تحدث معه أبوه في المطبخ، بعد الانتهاء من غسيل الصحون.

«مرّ وكيل المقاطعة الأسبوع الماضي».

رفع ويليام عينه عن المفرَش المشمع، الكاروهات الأحمر في الأبيض، والمفروش باستواء على مائدة العشاء المستديرة، ولم يعلّق.

«يقول إن لديهم قسمًا جديدًا في جامعة كولومبيا. يدعونها كلية الزراعة. وإنه يعتقد أن عليك الذهاب. الدراسة فيها أربع سنوات».

قال ويليام: «أربع سنوات.. هل تتكلف مالاً؟»

قال أبوه: «يمكنك العمل لتغطية نفقات الإقامة والطعام.. ابن عم أمك يملك مكانًا خارج كولومبيا مباشرة. سيكون عليك شراء كتب وأشياء أخرى، قد أستطيع أن أرسل لك دولارين أو ثلاثة شهريًا».

بسط ويليام يديه على المفرش الذي يلمع ببلادة تحت ضوء المصباح. لم يكن قد ابتعد عن المنزل قط إلا ليذهب إلى قرية بونفيل على بعد خمسة عشر ميلاً. بلع ريقه ليخرج صوته ثابتًا: «أتعتقد أن بوسعك القيام بالعمل كله وحدك؟»

«سيكون بوسعنا أنا وأمك تدبر أمرنا. سأزرع العشرين القبلية قمحًا؛ وبهذا سأقلل العمل اليدوي».

نظر ويليام لأمه متسائلاً: «ماما؟»

أجابته بصوت بلا نبرة: «افعل ما يقوله لك أبوك».

«أتريدانني أن أذهب حقًا؟» سأل كأن نصف منه يتمنى الإجابة بالنفي. «أتريدانني أن أذهب فعلاً؟»

حرك أبوه ثقله على الكرسي، نظر إلى أصابعه الثخينة المتصلبة التي رسخت التربة في شقوقها حتى استحال إزالتها منها. شد أصابعه معًا ورفعها عن المائدة كمن يصلي. قال وهو ينظر إلى يديه: «لم أحظ بتعليم محترم قط. بدأت العمل في المزرعة ما أن أنهيت الصف السادس. لم أكن أطيق المدرسة حين كنت صغيرًا. لكنني الآن لا أعرف. يبدو أن الأرض تزداد قحالة وصلابة عامًا بعد آخر، لم تعد خصبة كما كانت حين كنت صبيًا. يقول وكيل المقاطعة إن لديهم أفكارًا جديدة، طرقًا لعمل الأشياء، يعلَمونها في الجامعة. ربما كان على حق، أحيانا أفكر وأنا أعمل في الحقل...» ثم سكت. تكورت أصابعه وسقطت قبضتاه على المائدة: «أفكر أن...» نظر إلى يديه بجهامة وهز رأسه ثم تابع: «اذهب أنت إلى الجامعة في الخريف. أنا وأمك سنتدبر أمرنا».

كان ذلك أطول حديث سمعه من أبيه. ذهب ذلك العام إلى كولومبيا وسجل في الجامعة كطالب في السنة الأولى في كلية الزراعة.

جاء إلى كولومبيا ببذلة جديدة من الجوخ الأسود، طلبها من كتالوج «سيرس آند ريبوك» -دفع ثمنها من نقود كسبتها أمه من بيع البيض- ومعطف بالٍ كان لأبيه، وبنطال من الصوف الأزرق المضلع كان يرتديه مرة كل شهر لدى ذهابه إلى الكنيسة الميثودية ببونفيل، وقميصين أبيضين، وغيارين من ملابس العمل، وخمسة وعشرين دولارًا، اقترضها أبوه من جارٍ لهم بضمان قمح الخريف. بدأ سيره من بونفيل حيث أوصله أبوه وأمه في الصباح الباكر بعربة المزرعة المسطحة التي يجرها بغل.

كان يوم خريفيًا حارًا، والطريق من بونفيل إلى كولومبيا مغبرًا. قضى ساعة سائرًا قبل أن تمر به عربة ويسأله السائق إن كان يرغب في توصيلة. أومأ وصعد على كرسي العربة. بنطاله الصوفي أحمر حتى الركبتين من الغبار، ووجهه الذي لوحته الشمس والرياح ملطخ بالوحل من امتزاج تراب الطريق بعرقه. ظل طوال الطريق ينفض التراب عن بنطاله بيدين مرتبكتين ويمرر أصابعه في شعره المغبّر المنكوش الذي أبى الرقود على سطح رأسه.

وصلا كولومبيا بنهاية الظهيرة. أنزله السائق عند طرف المدينة، وأشار إلى مجموعة مباني تظللها أشجار الدردار قائلاً: «هذه جامعتك. هناك حيث ستدرس».

بعد أن غادره السائق وواصل طريقه، ظل ستونر واقفًا بلا حراك لعدة دقائق، يحدق في مجموعة المباني، لم يكن قد رأى شيئًا عريقًا كهذا في حياته قط، انتصبت المباني المبنية بالطوب الأحمر عاليًا وسط حقل أخضر شاسع تتخلله ممرات ممهدة بالحجارة للمشي عليها ورقع صغيرة من حدائق. انتابه، بالإضافة لذهوله، شعور مفاجئ بالأمن والطمأنينة لم يشعر بهما من قبل قط. بالرغم من تأخره، تمشى قليلاً حول الحرم الجامعي وهو يتطلع إليه فقط، كأنه محروم من دخوله.

كان الليل قد بدأ يخيم حين سأل أحد المارة عن كيفية الوصول إلى آشلاند جرافيل، الطريق إلى مزرعة جيم فوت، ابن عم أمه الذي عليه أن يعمل عنده، وكان قد خيم بالفعل حين وصل إلى البيت الأبيض المكون من طابقين حيث سيقيم. لم يكن قد رأى آل فوت من قبل، وشعر بتوتر لذهابه إليهم في وقت متأخر كهذا.

حيّاه جيم وسيرينا فوت بإيماءة من رأسيهما وهما يتفحصانه عن كثب. وبعد دقيقة قضاها ستونر واقفًا على العتبة مرتبكًا، قاده جيم فوت إلى حجرة صالون صغيرة معتمة تعج بأثاث مكتنز، وطاولات عليها حليّ كثيرة تلمع ببلادة. لم يجلس ستونر.

سأله فوت: «هل تعشّيت؟»

أجاب: «لا يا سيدي».

أشارت إليه السيدة فوت بسبابتها معقوفةً لأعلى وسارت، فتبعها ستونر مارًا بعدة غرف حتى دلفا المطبخ، حيث أشارت له أن يجلس إلى مائدة. وضعت أمامه إبريق حليب وعدة قطع من خبز الذرة الجاف. رشف الحليب لكن فمه الذي جففته الإثارة أبى أن يبلع الخبز.

جاء فوت من الغرفة ووقف بجوار زوجته. كان رجل ضئيلاً، لا يزيد عن مائة وستين سنتيمترًا، بوجه نحيل وأنف حاد، زوجته أطول منه بأربع بوصات، وبدينة، تخفي عينيها نظارة بلا إطار، وشفتاها الرفيعتان مزمومتان. ظل الزوجان يراقبانه بتمعن وهو يرشف الحليب. قال فوت بسرعة: «في الصباح أطعم الماشية ونظف زريبة الخنازير».

نظر إليه ستونر بذهول وسأله: «ماذا؟»

قال فوت: «هذا ما ستفعله في الصباح، قبل أن تذهب إلى الجامعة، وفي المساء تطعم وتنظف مرة أخرى، وتجمع البيض، وتحلب الأبقار.

وقطّع الخشب متى توفر لك الوقت، وفي الإجازة الأسبوعية ستساعدني في أي شيء أفعله».

أجاب ستونر: «أمرك سيدي».

تفحصه فوت للحظة ثم قال باستهانة وهو يهز رأسه: «كلية».

وهكذا ظل ستونر لتسعة أشهر، مقابل الغرفة والطعام، يُطعم الماشية وينظف مكانها، ويجمع البيض، ويحلب الأبقار، ويقطع الخشب. كان أيضًا يحرث الأرض ويسوّيها، ويزيل جذوع الشجر المقطوع (كان عليه في الشتاء أن يحفر مقدار ثلاث بوصات من التربة المتجمدة)، ويخفق الزبد للسيدة فوت التي تقف تراقبه ورأسها يتمايل باستحسان بارد فيما يحرك مخمضة الحليب الخشبية لأعلى وأسفل.

سكن غرفة علوية كانت من قبل مخزنًا، أثاثها الوحيد فراش حديدي أسود بهيكل متداع، ومرتبة ريش رثة، وطاولة مكسورة، عليها مصباح كيروسين، وكرسي يقف بلا توازن على الأرضية، وصندوق كبير استخدمه كمكتب. والتدفئة الوحيدة التي يحظى بها في الشتاء هي التي تتسرب من الأرضية من الغرف السفلى؛ فكان يتدثر بالألحفة والبطاطين الممزقة التي منحاها له، وينفخ في يديه ليستطيع تقليب صفحات كتبه دون أن يمزقها.

كان ينجز دروسه في الجامعة كما ينجز واجباته في المزرعة- كلها، وبإتقان، وبلا فرح أو كدر. بنهاية عامه الدراسي الأول كان متوسط درجاته تحت الجيد جدًا، فسُرَّ إنها ليست أقل من هذا، ولم يُعنى برفعها. أدرك أنه تعلم أشياء لم يعرفها من قبل، لكن ذلك لم يعني له سوى أن عليه، في العام المقبل أيضًا، أن يقوم بما قام به في العام الأول.

عاد في الصيف الذي أعقب عامه الدراسي الأول إلى مزرعة أبيه

وساعد في الحصاد. سأله أبوه مرة واحدة كيف حاله في الدراسة، فأجابه بلا بأس. أومأ أبوه برأسه ولم يذكر الأمر ثانيةً.

لم يعرف ويليام ستونر سبب ذهابه إلى الكلية إلا في عامه الثاني بها.

كان قد صار في عامه الثاني وجهًا مألوفًا في الجامعة. يرتدي البذلة الجوخ السوداء نفسها مع قميص أبيض وربطة عنق رفيعة. يبرز معصماه من أكمام السترة، وقد نحل البنطال حول ركبتيه، كأنها ملابس كانت تخص أحد غيره من قبل.

تزايدت ساعات عمله بتزايد كسل مستخدميه، فكان يقضي الأمسيات في غرفته ينجز فروضه الدراسية بمنهجية؛ كان قد بدأ التسلسل الذي سيقوده إلى نيل البكالوريوس في العلوم من كلية الزراعة. في ذاك الفصل الدراسي الأول من عامه الثاني كان يدرس علمين أساسيين، واحد في كلية الزراعة عن كيمياء التربة، وآخر فُرض بلا حماس تقريبًا على جميع طلبة الجامعة - وهو دراسة الأدب الإنجليزي لمدة فصل دراسي واحد.

بعد الأسابيع القليلة الأولى واجهته بعض الصعوبة في مواد العلوم، كانت تتطلب مذاكرة مكثفة وحفظ أشياء كثيرة جدًا. وكان هو مهتم بدراسة كيمياء التربة بصفة عامة، إذ لم يخطر بباله أن التراب البني الذي ظل يعمل فيه طيلة حياته تقريبًا قد يكون شيئًا آخر غير ما يبدو عليه، وقد فهم على نحو مبهم أن تزايد معرفته به قد تفيده حين يعود لمزرعة أبيه. لكن مادة الأدب الإنجليزي أقلقته وقضت مضجعه على نحو لم يحدث له من قبل قط.

كان مدرسها رجل في منتصف العمر، في بداية عقده الخامس، اسمه آرشر سلوان، ينظر إلى مهمته كمدرس بازدراء واحتقار باديين، كأنه يرى الفجوة العميقة بين ما يعرفه وما يمكنه قوله دون أن يبذل أدنى

جهد لعبورها. كان أغلب تلاميذه يكرهونه ويخافونه، وكان يقابل هذا باستمتاع ساخر وحيادي. كان متوسط الطول، له وجه طويل حليق به خطوط عميقة، وله لازِمة تنم عن نفاد صبره بأن يمرر أصابعه في كتلة شعره الرمادي المجعد. يخرج صوته باردًا جافًا من بين شفتين لا تكادان تتحركان، بلا نبرة أو نغم، فيما تتحرك أصابعه النحيلة الطويلة برشاقة وقوة كأنها تمنح الكلمات الشكل الذي لم يستطع الصوت منحه لها.

وعندما لا يكون ستونر في قاعة الدرس، فهو إما يقوم بواجباته في المزرعة، أو في عليّته، التي بلا نافذة، يذاكر وهو يطرف بعينيه على الضوء الخافت للمصباح، ترتسم أحيانًا في ذهنه صورة آرشر سلوان. يصعب عليه تذكر وجوه أي من مدرسيه الآخرين، أو أي شيء خاص بأي من مواده الدراسية الأخرى، لكن صورة هذا الرجل كانت تنتظر دومًا عند عتبة ذهنه، وصوته الجاف، وكلماته التي يلقيها بازدراء لا مبالٍ عن فقرة من بيوولف(١)، أو مقطع لشاوسر(٢).

ألفى نفسه عاجزًا عن استذكار مادته كما يفعل في المواد الأخرى. بالرغم من تذكره الكُتّاب وأعمالهم وتواريخهم وآثارهم كاد أن يرسب في أول امتحان له، ثم تحسّن قليلاً في الثاني. ظل يقرأ ويعيد قراءة فروضه الأدبية مرارًا وتكرارًا حتى بدأ يتعثر في المواد الأخرى، ومع ذلك ظلت الكلمات التي يقرأها مجرد كلمات في صفحات، وظل لا يفهم جدوى ما يفعله.

كان يمعن الفكر في كلمات آرشر سلوان في قاعة الدرس كأنه قد يجد

---

(١) أقدم قصيدة ملحمية في الأدب الانجليزي القديم، كتبها شاعر أنجلو ساكسوني مجهول في الفترة من القرن الثامن وحتى الحادي عشر الميلادي.

(٢) جيفري شاوسر (١٤٠٠-١٣٤٣) شاعر انجليزي من العصور الوسطى، لقب بأبي الشعر الانجليزي.

خلف معناها السطحي الجاف المفتاح الذي سيقوده إلى حيث قُدِّر له أن يذهب. كان ينكب على كرسي صغير للغاية ليحمل وزنه بارتياح، قابضًا على حافتيه بقوة حتى ليستحيل لون مفاصل أصابعه إلى الأبيض مقارنة بلون جلده البني الخشن، يقطب حاجبيه بتركيز ويعض على شفته السفلى. ظل احتقار آرشر سلوان يزداد سيطرة بازدياد يأس ستونر وزملائه من فهمه. تحوّل هذا الاحتقار ذات مرة إلى غضب موجه نحو ويليام ستونر وحده.

كان الطلبة قد قرأوا مسرحيتين لشكسبير، وبحلول نهاية الأسبوع كانوا يدرسون السونيتات. وكانوا على وشك الانهيار في تخبطهم وحيرتهم، شبه مذعورين من التوتر المتزايد بينهم وبين هذا الكائن المحدودب الذي ينظر إليهم من خلف منضد القراءة. كان سلوان قد قرأ لهم بصوت عالٍ السونيتة الثالثة والسبعين وهو يجول بناظريه في قاعة الدرس وشفتاه منطبقتان في ابتسامة تخلو من الفكاهة.

سألهم فجأة: «ماذا تعني السونيتة؟» وبحثت عيناه في الغرفة بإحباط متجهم وسرور تقريبًا.

«سيد ويلبر؟»

لا إجابة.

«سيد شميت؟»

سعل شخص ما.

أدار سلوان عينيه البنيتين الداكنتين إلى ستونر: «سيد ستونر، ماذا تعني السونيتة؟»

بلع ستونر ريقه وحاول فتح فمه.

قال سلوان بسخرية: «إنها سونيتة يا سيد ستونر، قصيدة شعرية مكونة من أربعة عشر بيتًا ومكتوبة بأسلوب معين، أنا واثق من أنك قد حفظتها. وهي مكتوبة باللغة الإنجليزية التي أعتقد أنك ظللت تتحدثها لسنين طوال. ومؤلفها هو ويليام شكسبير، شاعر راحل، لكنه مع ذلك، يحتل مكانة مهمة في عقول قلة من الناس». نظر إلى ستونر لدقيقة أخرى، ثم خلت عيناه من أي تعبير وثبتهما على شيء غير مرئي في خلفية القاعة. ردد القصيدة مرة أخرى دون أن ينظر في كتابه، كان صوته عميقًا وناعمًا، كأن الكلمات والأصوات والقوافي قد تجسدت للحظة في شخصه هو:

ذلك الفصل من فصول السنة، يمكن أن تراه في مشاعري

حين يكون الورق الأصفر، أو القليل، أو اللاشيء،

عالقا على تلك الغصون، التي تهتز في البرد،

آلات عزف عارية محطمة، غنت عليها الطيور الأثيرة ذات يوم.

في كياني ترى الشفق الذي كان في ذلك اليوم

يذوي في الغرب مثل الشمس بعد الغروب

تأخذها الليلة الظلماء رويدًا رويدًا إلى مكانٍ بعيد

حيث الوجه الآخر للموت الذي يطوي الجميع في هدوء.

وترى في وجودي تَوَقُّد ذلك اللهب

الذي يتمدد الآن على رماد شبابه،

كأنه على سرير الموت، حيث لابد أن ينتهي،

مستَهلكاً بنفس الشيء الذي اقتات عليه

أنت تعي هذا الشيء الذي يجعل حبك قويًا إلى حدٍ بعيد،

ويجعلك تحب بشكل أفضل، هذا الذي ستفارقه حتمًا عما قريب.[1]

في لحظة صمت، سعل شخص ما. كرر سلوان البيتين الأخيرين مرة أخرى، بصوته العادي، المألوف.

«أنت تعي هذا الشيء الذي يجعل حبك قويًا إلى حدٍ بعيد،

ويجعلك تحب بشكل أفضل، هذا الذي ستفارقه حتماً عما قريب».

ثم عادت عيناه لويليام ستونر وقال بخشونة: «السيد شكسبير يحدّثك عبر ثلاثمائة عام يا سيد ستونر، هل تسمعه؟»

لاحظ ستونر أنه ظل حابسًا أنفاسه لعدة دقائق. أطلق نفسه بهدوء وشعر بملابسه تتحرك على جسمه فيما يخرج الهواء من رئتيه. ابتعد بنظره عن سلوان وجال به في قاعة الدرس. تسلل الضوء من النوافذ واستقر على وجوه زملائه، فبدت الإضاءة آتية من دواخلهم مقابل العتمة الخارجية، طرف أحد الطلبة بعينه، وسقط ظل خفيف على وجنة أحدهم، وتوهج ضوء الشمس أسفلها تمامًا. لاحظ أن أصابعه قد أرخت قبضتها القاسية على حافة سطح منضدته. نظر إلى يديه وهو يُقلبهما مدهوشًا من لونهما البني، من تعقيد خروج أظافره من أطراف أصابعه المثلمة، شعر أن بإمكانه الاحساس بتدفق تيار الدم اللامرئي

(١) سونيتات شكسبير الكاملة، ترجمة بدر توفيق، الطبعة الأولى ١٩٨٨، ص ٩٢

في الأوردة والعروق الصغيرة، ينبض برقة وبرعشة تسري من أطراف أصابعه إلى جسده كله.

تحدث سلوان ثانيةً: «ماذا يقول لك يا سيد ستونر؟ ماذا تعني سونيتته؟»

ارتفعت عينا ستونر ببطء وخشية، قال: «تعني...» ثم رفع يديه في الهواء بخفة، ووجد رؤيته تتغبش حين ينظر إلى آرشر سلوان، فكرر ثانيةً: «تعني...» ولم يستطع إكمال ما أراد قوله.

نظر إليه سلوان بفضول، ثم أومأ برأسه فجأة وقال: «انتهى الدرس». واستدار دون أن ينظر إلى أحد وسار يخرج من القاعة.

لم يشعر ويليام ستونر بالطلبة من حوله وهم يقومون من مجلسهم، يتذمرون ويدمدمون ويتحركون إلى الخارج. جلس بلا حراك لعدة دقائق بعد رحيلهم، يحدق أمامه في ألواح خشب الأرضية الرفيعة، انمحى طلاؤها تحت وطء أقدام طلبة لم يعرفهم ولم يرهم قط. حرّك قدميه على الأرض، منصتًا إلى صرير الخشب الجاف تحت باطن قدميه، مستشعرًا خشونة الخشب من خلال حذائه. ثم نهض وسار خارج القاعة.

تسللت برودة أواخر الخريف الخفيفة عبر ملابسه. نظر حوله إلى غصون الأشجار العارية البائسة تلتوي وتتشابك تحت صفحة السماء المصفرّة. كان الطلبة في حرم الجامعة يتسارعون من حوله إلى قاعات المحاضرات، يسمع همهمة أصواتهم ودقات كعوب نعالهم على الممرات الحجرية، ويرى وجوههم التي غسلها البرد وانحنت للأسفل قليلاً تتقي الهواء البارد. نظر إليهم بفضول، كمن لم يرهم من قبل، وشعر بغربة شديدة عنهم، وقرب شديد إليهم. احتفظ بذلك الشعور وهو يسرع إلى محاضرته التالية، وظل مستبقيه حتى بعد محاضرة كيمياء

التربة، رغم الصوت الرتيب الذي يتلو ملاحظات ينبغي تدوينها في الدفاتر وتذكرها بمشقة صارت الآن غريبة عليه تمامًا.

في النصف الثاني من عامه الدراسي الثاني، ترك ويليام ستونر مواده العلمية الأساسية وقطع مساره في كلية الزراعة؛ وبدأ يدرس مناهج تمهيدية في الفلسفة والتاريخ القديم، ومادتين في الأدب الإنجليزي. عاد في الصيف مرة أخرى إلى مزرعة والديه وساعد والده في الزراعة ولم يأتِ على ذكر جامعته.

حين تقدم في العمر كثيرًا، كان يتذكر عاميه الأخيرين قبل التخرج وكأنهما وقت غير حقيقي قضاه شخص غيره، وقتٌ مضى، ليس بالطريقة الطبيعية التي اعتادها، وإنما بطريقة متقطعة وغير منتظمة، الدقيقة تلو الأخرى لكنها منفصلة عنها. كان يشعر أنه خارج الزمن الذي يراقبه، يمر أمامه كعرض بانورامي مصغر.

أضحى واعيًا لذاته على نحو لم يكنه من قبل. كان أحيانًا ينظر إلى نفسه في المرآة، إلى الوجه الطويل الذي يعلوه شعر بني جاف كسقف من القش، ويلمس عظام وجنتيه الحادة؛ فيرى المعصمين النحيلين يبرزان بوصات قليلة من كمّي معطفه، ويتساءل هل يراه الآخرون مضحكًا كما يرى نفسه.

لم يكن لديه خطط للمستقبل، ولم يكشف لأحد عن حيرته. ظل يعمل لدى آل فوت مقابل السكن والطعام، دون أن يقضي ساعات طوال في العمل، كما كان يفعل في عاميه الأولين في الجامعة. كان يترك نفسه تحت إمرة جيم وسيرينا فوت كما يَعِنّ لهما لمدة ثلاث ساعات كل يوم، ونصف أيام العطلات الأسبوعية فقط، ويعتبر ما تبقى من الوقت من حقه وحده.

يقضي بعضه في عليته التي يشغلها أعلى منزل فوت، لكنه كان كلما

أمكنه، يعود للجامعة بعد انتهاء الدراسة وإنجاز عمله في المزرعة. كان أحيانًا يتجول في المساء في باحة الكلية المربعة المفتوحة، بين أزواج يتمشون وتصدر عنهم همهمة ناعمة، ورغم أنه ما كان يعرف أحدًا منهم، وما كان ليتحدث معهم، لكنه كان يشعر بقرابةٍ ما بينه وبينهم. يقف وسط الباحة المربعة ويتطلع إلى الأعمدة الخمسة الشامخة أمام مبنى الجيسي هول[1]، تنبثق لأعلى في الليل من العشب البارد، يعرف أنها ما تبقى من المبنى الرئيسي الأصلي للجامعة الذي دمرته النيران منذ سنوات كثيرة مضت، فضية رمادية في ضوء القمر، عارية ونقية، بدت له كالحياة التي يعيشها، كمعبد منذور لإله.

كان يتجول في مكتبة الجامعة بين أكداس آلاف الكتب، يشم عبق الجلد والقماش والصفحات الجافة كأنها بخور نقي. يتوقف أحيانًا ويسحب مجلدًا من على رف، يحمله بيديه الضخمتين فتسري فيهما رعشة خفيفة لدى اللمسة غير المألوفة لكعب الكتاب وجِلدته وصفحاته الآسرة. يتصفح الكتاب، يقرأ فقرات من هنا وهناك، يحرك أصابعه الصلبة وهو يقلب الصفحات بحرص كأن خراقته قد تدمر وتمزق ما تكبدت من أجل كشفه كل تلك الآلام.

لم يكن لديه أصدقاء، ولأول مرة في حياته شعر بالوحدة. كان أحيانًا وهو في عليته، في الليل، يتوقف عن القراءة ويتطلع لأركان غرفته المظلمة حيث يتراقص لهب المصباح في الظلام. إن حدق طويلاً بتركيز، تتجمع الظلمة في كتلة ضوء تتخذ الشكل اللامادي لما كان يقرأه،

(١) مبنى الجيسي هول هو المبنى الإداري الرئيسي لجامعة ميزوري. وأحد رموزها الرئيسية، شيد عام ١٨٩٣. صور له: https://en.wikipedia.org/wiki/Jesse_Hall

ويشعر بأنه خرج عن الزمن، كما حدث ذاك اليوم في قاعة الدرس حين وجه إليه آرشر سلوان حديثه. يتجمع الماضي ويخرج من الظلام حيث ظل قابعًا، ويعود الموتى إلى الحياة يقفون أمامه، ويسير الماضي والموتى في الحاضر بين الأحياء، وفي لحظة زاخرة تأتيه رؤية كثيفة فيندمج فيها دون أن يستطيع الخروج منها، ودون أن يرغب في الخروج منها. كان تريستان وإيزولد[١] يتمشيان أمامه، وباولو وفرانشيسكا[٢] يدوران في ظلمة برّاقة، ويشرق وجها هيلين وباريس[٣] في العتمة، وقد طفحا بمرارة العاقبة. وكان يشعر بينهم بما لم يشعر به بين أصدقائه الذين يروحون ويغدون من قاعة محاضرات لأخرى، الذين يسكنون بالقرب من جامعة كبرى في كولومبيا بميزوري، ويسيرون ببلادة في الهواء الغرب أوسطي.

تعلّم في عام واحد اليونانية واللاتينية بما يكفي ليقرأ نصوص بسيطة، فكانت عيناه كثيرًا ما تحمرّان وتتحرقان من الإجهاد وقلة النوم. كان أحيانًا يفكر فيما كان عليه منذ سنوات قليلة مضت فيندهش من هذا الكائن الغريب، البني واللامبالي كالأرض التي نشأ منها. يفكر في والديه فيجدهما غريبين عنه كغرابة الطفل الذي كانه، يشعر نحوهما بمزيج من العطف والحب البعيدين.

قرب منتصف عامه الرابع في الجامعة استوقفه آرشر سلوان ذات يوم بعد المحاضرة وطلب منه المرور عليه في مكتبه ليتحدثا قليلاً.

كان الوقت شتاءً، وسحاب منخفض غرب أوسطي يحلّق فوق

---

(١) عاشقان، أميرة إيرلندية وفارس، جمعتهما قصة حب محرّمة، وهي من أدب العصور الوسطى.

(٢) من شخصيات الكوميديا الإلهية لدانتي أليجري.

(٣) من أبطال حرب طروادة، الأسطورة الإغريقية.

الحرم. وبالرغم من مُضيّ نصف النهار، كانت الغصون النحيلة لأشجار القرانيا تلمع بصقيع متجمد، وفروع الكرم الأسود، الملتفة حول الأعمدة الشامخة المقابلة لقاعة جيسي[1]، موشاة ببلورات قزحية الألوان تبرق في الرمادية المحيطة بها. كان معطف ستونر رثًا وباليًا للغاية فقرر ألا يرتديه في مقابلته مع سلوان، رغم البرد القارس. ارتعش وهو يُسرع خطاه في الممشى ثم يصعد الدرجات الحجرية الواسعة التي تقود إلى قاعة جيسي.

بعد البرد، كان الدفء داخل المبنى قويًا. تسلل الرمادي بالخارج من النوافذ والأبواب الزجاجية على جانبي القاعة، فزادت لمعة الأرضية القرميدية الصفراء مقابل الضوء الرمادي أعلاها، ولمعت الأعمدة البلوطية والجدران المغسولة في ظلمتها.

تلاشى وقع الخطوات وهمهمة الأصوات في فراغ القاعة الفسيحة. تتحرك قامات معتمة ببطء، تختلط وتنفصل. وحمل الهواء الثقيل رائحة طلاء الجدران والرائحة الرطبة للملابس الصوفية. صعد ستونر السلالم الرخامية الناعمة المؤدية إلى مكتب سلوان في الطابق الثاني. طرق الباب المغلق وسمع صوتًا ثم دلف.

حجرة المكتب ضيقة وطويلة، تضيئها نافذة وحيدة في أقصى طرفها. تصل الأرفف المحملة بالكتب حتى السقف العالي. بالقرب من النافذة ثمة مكتب محشور، يجلس إليه متوسطًا قوس من نصف دائرة، ومؤطرًا بالعتمة، آرشر سلوان.

«سيد ستونر..» قال سلوان بخشونة وهو ينهض نصف واقفٍ ويشير أمامه إلى كرسي مكسو بالجلد. جلس عليه ستونر.

---

(١) القاعة الرئيسية بمبنى الجيسي هول.

«كنت أنظر في درجاتك». سكت والتقط من على مكتبه ملفًا تصفحه بسخرية محايدة. «أرجو ألا يزعجك بحثي في شأنك».

بلل ستونر شفتيه وتململ في جلسته. حاول عقد يديه معًا لئلا تظهرا. ثم قال بصوت أجش: «لا يا سيدي».

أومأ سلوان وتابع: «حسناً، لقد عرفت أنك بدأت الدراسة هنا كطالب في كلية الزراعة، وأنك حولت مسار دراستك إلى الأدب في وقت ما من عامك الدراسي الثاني. هل هذا صحيح؟»

«نعم يا سيدي».

استند سلوان بظهره على الكرسي وحدق في مربع الضوء الساقط من النافذة العالية الصغيرة. نقر بأطراف أصابعه واستدار للشاب الجالس أمامه متخشبًا.

«إن الغرض الرسمي من هذه المقابلة هو إخطارك بأن عليك تغيير مسار دراستك بشكل رسمي، عليك أن تؤكد رغبتك في تغيير برنامج دراستك الأولي وتعلن عما ترغب في دراسته. الأمر لن يستغرق خمس دقائق أو ما يقرب من هذا في مكتب التسجيل. ستتولى هذا الأمر، أليس كذلك؟»

«نعم يا سيدي».

«لكن كما قد تكون خمنت، هذا ليس الغرض الوحيد من دعوتي لك إلى هنا. هل تمانع إن سألتك قليلاً عن خططك المستقبلية؟»

«لا يا سيدي». قال ستونر وهو ينظر إلى يديه المتشابكتين بشدة.

لمس سلوان الملف الذي كان قد وضعه على المكتب وقال: «رأيت

أنك التحقت بالجامعة في سن أكبر قليلاً من أقرانك في السنة الأولى. حوالي عشرين عامًا على ما أظن».

«نعم يا سيدي».

«وكانت خططك آنذاك أن تدرس بكلية الزراعة؟»

«نعم يا سيدي».

استند سلوان بظهره على الكرسي وحدق في السقف العالي. ثم سأل فجأة: «وما خططك الآن؟»

سكت ستونر. هذا شيء لم يفكر فيه من قبل، ولم يرغب في التفكير فيه، قال أخيرًا ببعض سخط: «لا أعرف. لم أفكر في الأمر مليًا».

قال سلوان: «ألا تتطلع إلى اليوم الذي ستخرج فيه من بين تلك الجدران الرهبانية إلى ما يسمى العالم؟»

ابتسم ستونر خجلاً: «لا يا سيدي».

ربت سلوان على الملف فوق مكتبه. «علمت من ملفك أنك جئت من مجتمع زراعي. فخمنت أن والديك مزارعان؟»

أومأ ستونر.

«وهل تنوي العودة إلى مزرعتك بعد حصولك على شهادتك الجامعية من هنا؟»

أجاب ستونر: «لا يا سيدي». وفوجئ بالحزم في صوته. فكر باستغراب في هذا القرار الذي اتخذه لتوه.

أومأ سلوان قائلاً: «ظني أن طالب الأدب الجاد قد لا تتناسب

مهاراته مع متطلبات الزراعة بالتحديد».

قال ستونر كأن سلوان لم يتكلم: «لن أعود، لا أعرف ما الذي سأفعله على وجه التحديد». ثم نظر إلى يديه وقال كأنه يكلمهما: «لا أصدق أنني سأنهي الدراسة بهذه السرعة، أنني سأغادر الجامعة بنهاية هذا العام».

قال سلوان بهدوء: «بالطبع لا يوجد داعٍ قوي لمغادرتك. ظني أنه ليس لديك مصادر دخل مستقلة؟»

هز ستونر رأسه.

«درجاتك في كل السنوات الدراسية ممتازة ما عدا في...» ورفع حاجبيه مبتسماً «... في الأدب الإنجليزي في السنة الثانية، حظيت بتقدير ممتاز في كل مواد اللغة الانجليزية، ولا شيء أدنى من الجيد جدًا في المواد الأخرى، إن أمكنك تدبر أمرك لسنة أو اثنتين أخريين، أنا واثق أنك تستطيع نيل الماجستير في الآداب، وبعدها قد يمكنك التدريس فيما تُحضّر رسالة الدكتوراه. إن كنت مهتمًا بهذا».

تراجع ستونر وسأله: «ماذا تعني؟» وسَمِع في صوته ما يشبه الخوف.

مال سلوان إلى الأمام حتى اقترب بوجهه من ستونر، رأى ستونر خطوط الوجه الطويل النحيل تهدأ، وسمع الصوت الجاف الساخر يطيب ويستسلم. قال سلوان: «ألا تعرف يا سيد ستونر؟ ألا تفهم نفسك بعد؟ سوف تكون مدرسًا».

بدا فجأة أن سلوان قد ابتعد بشدة وأن جدران غرفة المكتب قد تهاوت، وشعر ستونر بنفسه معلّقًا في الهواء الطلق، وسمع صوته يسأل: «هل أنت واثق؟»

قال سلوان برقة: «أنا واثق».

«كيف تعرف؟ كيف تكون واثقا؟»

قال سلوان بسرور: «إنه الحب يا سيد ستونر. أنت تحب التدريس، الأمر بتلك البساطة».

كان الأمر بتلك البساطة. يتذكر أنه أومأ لسلوان وقال شيئًا ما غير منطقي، ثم صار خارج المكتب. شفتاه ترتعشان ويشعر بوخز خفيف في أطراف أصابعه، سار كالنائم لكنه واعٍ تمامًا بكل ما يدور حوله. تمهل بين الجدران الخشبية اللامعة يستشعرً دفء الخشب وقِدمه، هبط السلم ببطء وتعجب من الرخام البارد المعروق الذي بدا كأنه ينزلق من تحته. صارت أصوات الطلبة القادمة من القاعات واضحة ومتفرّدة في الهمهمة المكتومة، ووجوههم قريبة وغريبة ومألوفة. خرج من مبنى الجيسي هول إلى النهار حيث كان اللون الرمادي يكسو الحرم، تطلع بنظره من أسفل لأعلى، إلى السماء، كمن ينظر إلى إمكانية لا يعرف اسمها.

في الأسبوع الأول من تموز عام ١٩١٤، تلقى ويليام ستونر هو وستونَ شابًا آخرون وشابات قليلات شهادة بكالوريوس الآداب من جامعة ميزوري.

ولكي يحضر والداه حفل التخرج، بدآ رحلتهما قبل الحفل بيوم، في عربة مستعارة تجرها فرسهما الكميت. كانا قد قادا طوال الليل مسافة الأربعين ونيف ميلاً من المزرعة، فوصلا لمنزل فوت، في الفجر، متصلّبين من رحلتهما الساهرة. هبط ستونر إلى الباحة ليستقبلهما. وقفا جنبًا إلى جنب في ضوء المصباح الواهن ينتظران أن يقترب منهما.

صافح ستونر والده باليد، بحركة واحدة سريعة وقوية، دون أن ينظر

أحدهما إلى الآخر.

قال أبوه: «كيف حالك؟»

أومأت أمه قائلة: «أنا وأبوك جئنا لنراك وأنت تتخرج».

وقف ساكتاً لدقيقة ثم قال: «الأفضل أن تدخلا وتتناولا إفطارًا».

كانوا وحدهم في المطبخ. تعود آل فوت على السهر لوقت متأخر من الليل منذ مجيء ستونر إلى المزرعة. لكنه لم يستطع، لا حينذاك ولا حين فرغا من تناول الفطور، إخبارهما بالتغيير الذي طرأ في خططه، بقراره بعدم العودة إلى المزرعة. بدأ الكلام مرة واثنتين، لكنه كان ينظر إلى الوجهين البنيين اللذين برزا عاريين من ثيابهما الجديدة، ويفكر في الرحلة الطويلة التي قطعاها، وفي انتظارهما عودته لسنوات. جلس معهما جامدًا حتى آخر رشفة في قهوتهما، وحتى انتزع آل فوت نفسيهما من الفراش ودخلا المطبخ. أخبرهما أن عليه أن يذهب إلى الجامعة مبكرًا وأنه سيراهما لاحقًا في الحفل.

تجول في الحرم الجامعي حاملاً الروب الأسود والقبعة اللذين استأجرهما، كانا ثقيلين ومزعجين لكنه لم يجد مكانًا يتركهما فيه. فكر فيما عساه سيقوله لوالديه، وأدرك لأول مرة مدى نهائية قراره، وتمنى لو كان بمقدوره الرجوع فيه. شعر بأنه غير مؤهل للهدف الذي اختاره بتهور، وأحس بانجذاب نحو العالم الذي خلّفه وراءه. حزن لخسارته وخيبة والديه فيه، وحزن لأنه، حتى في حزنه، كان ينأى بنفسه عنهما.

حمل هذا الشعور بالخسارة أثناء مراسم التخرج، حين نودي باسمه وسار على المنصة ليتلقى لفافة ورق من رجل بلا وجه مميز خلف لحية رمادية ناعمة. لم يصدق أنه موجود، والشهادة الجامعية الملفوفة بين يديه لم يكن لها أي معنى. لم يفكر سوى في أبيه وأمه الجالسين بتوتر

وقلق وسط الناس.

عاد معهما بعد الحفل إلى مزرعة فوت بالعربة، حيث كان عليهما قضاء الليلة قبل بدء رحلة العودة في الفجر التالي.

جلسا لوقت متأخر في ردهة آل فوت. بقي جيم وسيرينا فوت معهما لبعض الوقت، من حين لآخر يتبادل جيم ووالدة ستونر اسم قريب ما، ثم يعودون لنوبات الصمت المتكررة. جلس أبوه على كرسي مستقيم الظهر، مباعدًا ما بين رجليه، مائلاً بجذعه للأمام قليلاً ويداه الضخمتان تقبضان على ركبتيه. نظر أخيراً آل فوت أحدهما للآخر وتثاءبا وأعلنا أن الوقت قد تأخر. ذهبا إلى غرفة نومهما وتركا الثلاثة وحدهم.

صمت آخر. جلس الوالدان يحدقان إلى الأمام مباشرة في الظل الذي يلقيه جسديهما، ويختلسان نظرات خاطفة نحو ابنهما كأنهما لا يريدان إزعاجه في وضعه الجديد.

بعد عدة دقائق مال ويليام ستونر إلى الأمام وتحدث، صوته أعلى وأقوى مما أراد. «كان عليّ أن أخبركما قبل ذلك، أو هذا الصباح».

كان وجها والديه بليدين وبلا تعبير في ضوء المصباح.

«ما أريد أن أقوله هو إنني لن أعود معكما إلى المزرعة».

لم يحرك أحد ساكنًا. قال أبوه: «لديك أشياء لم تنهيها بعد هنا، يمكننا العودة وحدنا في الصباح والحق أنت بنا خلال أيام».

فرك ستونر وجهه براحة يده. «هذا.. ليس قصدي. أنا أحاول أن أخبركما أنني لن أعود إلى المزرعة أبدًا». انقبضت يدا أبيه على رضفتي ركبتيه وعاد إلى الوراء في الكرسي قائلاً: «هل أوقعت نفسك في مشاكل

ما؟»

ابتسم ستونر قائلاً: «الأمر ليس هكذا، سأدرس لعام آخر، عامين أو ثلاثة ربما».

هز والده رأسه وقال: «لقد رأيتك تتخرج هذا المساء، ووكيل المقاطعة يقول إن كلية الزراعة تستغرق أربع سنوات».

حاول ستونر أن يشرح لوالده ما يريد أن يفعله، أن يوقظ بداخله الشعور بالأهمية والمغزى. سمع وقع كلماته كأنها من فم أحد آخر، وراقب وجه أبيه وهو يتلقى الكلمات كما يتلقى حجر لطمات متكررة. جلس بعد أن أنهى كلامه، يداه متشابكتان معًا بين ركبتيه، ورأسه محنيًا. يستمع إلى صمت الغرفة.

أخيراً تحرك والده في جلسته، رفع ستونر نظره، وجها والديه في وجهه؛ كاد أن يصرخ فيهما. قال أبوه بصوت مبحوح ومُرهَق: «لا أعرف، لم أكن أعرف أن الأمر سيؤول لهذا، كنت أظن أنني بإرسالك إلى هنا أقوم بأفضل ما يمكنني لصالحك، لطالما فعلنا أنا وأمك كل ما يمكننا من أجلك».

قال ستونر: «أعرف». لم يسعه النظر إليهما أكثر من ذلك. تابع: «هل ستكونان بخير؟ يمكنني أن أعود لفترة من الوقت هذا الصيف وأساعد. يمكنني أن...»

«إن كنت ترى أن عليك البقاء هنا ودراسة كتبك، فافعل هذا، أنا وأمك سنتدبر أمرنا».

كان وجه أمه ملتفتًا تجاهه لكن دون أن تراه. عيناها مغمضتان بشدة، وتتنفس بصعوبة، وجهها يتلوى كأنها تتألم، وراحتا يديها على خديها. أدرك ستونر مدهوشًا أنها تبكي، بعمق وهدوء وخجل وارتباك من

يبكون فيما ندر. راقبها لدقيقة أخرى، ثم حرك قدميه لتحملاه، وخرج من الغرفة. تحسس طريقه على السلم الضيق المؤدي لعليته، ظل لوقت طويل راقدًا على فراشه يحدق بعينين مفتوحتين في الظلمة فوقه.

ii.

بعد أسبوعين من نيل ستونر بكالوريوس الآداب، اغتيل الأرشيدوق فرانز فرديناند[1] بسراييفو على يد أحد الصربيين، وقبل مجيء الخريف كانت الحرب قد اشتعلت في أوروبا بأسرها. كان الأمر محط اهتمام مستمر من الطلبة الأقدم، يتساءلون عن الدور الذي ستلعبه أمريكا، ويشعرون بالغبطة لعدم وضوح مستقبلهم.

لكن مستقبل ويليام ستونر كان يزهو أمامه مؤكدًا بلا تغيير. لم يكن يره كفيض من الأحداث والتغييرات والإمكانيات، بل كأرض تنتظر وصوله لاستكشافها، مثل مكتبة الجامعة الراسخة، يمكن بناء أجنحة جديدة لها، وإضافة كتب جديدة لها، وسحب كتب قديمة منها، بينما تظل طبيعتها الحقيقية، في الأساس، بلا مساس. كان يرى مستقبله في المؤسسة التي التزم بها، والذي لن يفهمها بشكل كامل أبدًا، يعرف أنه سيتغير في هذا المستقبل، لكنه ينظر إلى التغيير ذاته بوصفه وسيلة للمستقبل وليس الغرض منه.

قبل نهاية ذاك الصيف، وبداية الفصل الدراسي الخريفي، زار والديه. كان في نيته أن يساعد في حصاد الصيف، لكنه وجد أباه قد استأجر مزارعًا زنجيًا يعمل بهمة شديدة، حتى لينجز وحده، في يوم واحد، ما كان ستونر وأبوه ينجزانه معًا في نفس الوقت. سُرّ أبواه لرؤيته، وبدا أنهما ليسا حانقين من قراره، لكنه لم يجد لديه ما يقوله لهما، أدرك أنه

(١) وريث عرش الإمبراطورية النمساوية المجرية

ووالديه قد صارا أغرابًا بالفعل، وشعر بحبه لهما يفاقم إحساسه بتلك الخسارة. عاد إلى كولومبيا مبكرًا عن موعد عودته الذي كان قد حدده بأسبوع.

بدأ يكره الوقت الذي يقضيه في العمل في مزرعة فوت. تأخره في بدء دراسته جعله يشعر بضرورتها. كان أحيانًا وهو مستغرق في كتبه، يأتيه الوعي بكل ما لم يعرفه، وكل ما لم يقرأه، ولا يعكر صفو هذه الحال سوى إدراكه بضيق الوقت المتاح له في الحياة ليقرأ بالقدر كبير ويتعلم كل ما يريد معرفته.

في ربيع ١٩١٥ أنهى دراسة الماجستير في الآداب، وقضى الصيف يكتب الرسالة، دراسة نثرية لإحدى حكايات كانتربري لشاوسر. قبل نهاية الصيف أخبره آل فوت أنهما لن يعودا بحاجة إليه في المزرعة بعد الآن.

كان يتوقع الطرد، وبطريقة ما، يرحب به. لكنه للحظة بعدها تملكه الذعر، كأن آخر شعرة بينه وبين حياته القديمة قد انقطعت. قضى الأسابيع الأخيرة من الصيف في مزرعة أبيه، يضع اللمسات النهائية على الرسالة. حينذاك كان آرشر سلوان قد دبر له أن يُدرِّس محاضرتين لمادة مبادئ الإنجليزية لطلبة السنة الأولى فيما يبدأ العمل على رسالة الدكتوراه. تلقى مقابل هذا أربعمائة دولار سنويًا. نقل أمتعته من علية آل فوت الصغيرة التي شغلها خمس سنوات، وسكن في حجرة أصغر منها قريبة من الجامعة.

كان عليه أن يُعلَّم أساسيات القواعد والأسلوب فقط، ولمجموعة غير مختارة من طلبة السنة الأولى، مع ذلك كان يتطلع لمهمته بحماس وشعور طاغ بأهميتها. خطط المنهج في الأسبوع الأخير قبل بداية الفصل الدراسي الخريفي، ورأى الإمكانيات التي قد يراها المرء في

نضاله مع مواد وموضوعات مهمته، شعر بمنطق القواعد ورأى أنه يستوعب كيف تتسلسل من نفسها، وتتغلغل في اللغة بغرض دعم الفكر الإنساني. كان يشعر في التركيبات البسيطة التي يضعها تمارينَ للطلبة باحتماليات النص وجمالياته، وكان يحلم باستثارة الطلبة وحملهم على الإحساس بما يقوله.

لكنه في المحاضرات الأولى، بعد القيام بروتين تفقد قائمة الحضور وعرض خطة الدراسة، حين بدأ ربط نفسه بمادته وطلبته، وجد أن انبهاره قد بقي مخبئًا بداخله. بدا الأمر أحيانًا، فيما يتحدث لطلبته، كأنه واقف خارج نفسه يراقب رجلاً آخر يتحدث لمجموعة من الناس اجتمعوا معاً على غير رغبة منهم، يسمع صوته الرتيب يردد المادة التي حضّرها دون أن يتخلله شيء من حماسه الخاص.

وجد متنفسه ونجاحه في قاعات الدرس التي يكون فيها هو نفسه طالب، حيث يمكنه التقاط الإحساس بالاستكشاف الذي أحسه ذاك اليوم الأول، حين تحدث إليه آرشر سلوان، وتحول في التو إلى شخص غير الذي كانه. فيما كان ينشغل ذهنه بمادته، وتتوثق صلته بقوة بالأدب الذي يدرسه ويحاول فهم طبيعته، كان يعي بحدوث تغيير مستمر بداخله، وفيما يعي هذا، كان يخرج من نفسه إلى عالم هذا الأدب، فعرف أن قصيدة لميلتون أو مقالة لبيكون أو مسرحية لبن جونسون قد غيرت العالم الذي كان مادتها، وقد غيرته لأنه يعتمد عليها. كان نادرًا ما يتحدث في قاعة المحاضرات، ونادرًا ما كانت تعجبه أوراقه، التي شعر أنها مثل محاضراته لطلبته الصغار، لا تكشف عما يعرفه في أعماقه. اقترب من قلة من زملائه في الدراسة ممن يدرّسون في القسم أيضًا. عقد صداقة مع اثنين منهما، ديفيد ماسترس وجوردون فينش.

كان ماسترس شابًا خمري اللون بلسان لاذع وعينين طيبتين، على أعتاب الدكتوراه مثل ستونر، رغم أنه يصغره بسنة أو اثنتين، يحظى

بسمعة في الكلية وبين الخريجين بكونه متعجرف ووقح، وكان من المفهوم ضمنيًا أنه سيلاقي صعوبة في نيل درجة الدكتوراه. رآه ستونر أذكى رجل قابله في حياته وأذعن له بلا حقد ولا ضغينة.

أما جوردون فينش فكان أشقر وضخمًا، وبدأ بالفعل يكتسب وزنًا وهو في الثالثة والعشرين. تخرج في كلية التجارة بسانت لويس، وقام بمحاولات مختلفة في جامعة كولومبيا لنيل شهادات أعلى في أقسام الاقتصاد، والتاريخ، والهندسة، وبدأ دراسة الأدب الإنجليزي غالبًا لأنه استطاع، في اللحظات الأخيرة، الحصول على وظيفة إرشاد صغيرة في القسم. سرعان ما تميّز بكونه أكثر طلبة القسم لامبالاةً. لكنه كان محبوبًا من طلبة السنة الأولى، وعلى وفاق مع أعضاء الكلية الكبار وموظفي الإدارة.

كان الثلاثة - ستونر وماسترس وفينش- يتقابلون ظهيرة كل جمعة بصالون صغير في وسط البلدة بكولومبيا، يحتسون بيرة في كؤوس كبيرة ويتحدثون حتى وقت متأخر من الليل. مع أن تلك الأمسيات كانت متعته الاجتماعية الوحيدة التي يعرفها، لكنه كان أحيانًا ما يتساءل عن علاقتهم. ومع إنهم يستمتعون بصحبة بعض بما يكفي ليتقابلوا، لكنهم لم يكونوا أصدقاء مقربين؛ حيث لا ثقة بينهم، ونادرًا ما يرى أحدهم الاثنين الآخرين خارج مقابلاتهم الأسبوعية.

لم يطرح أحد منهم مسألة هذه العلاقة أبدًا. عرف ستونر أنها لم تخطر ببال فينش، وخمّن أنها خطرت ببال ديف ماسترس. ذات مرة في وقت متأخر من الأمسية، وهم جلوس إلى مائدة جانبية في الصالون المعتم، تحدث ستونر وماسترس عن تدريسهم ودراستهم بمزاح مرتبك ينم عن جدية شديدة. رفع ماسترس بيده بيضة مسلوقة من العشاء المجاني كأنها كرة كريستالية وقال: «هل فكرتما أيها السيدان في مسألة الطبيعة الحقيقية للجامعة؟ سيد ستونر؟ سيد فينش؟»

هزّا رأسيهما مبتسمان.

«أراهن أنك أنت يا ستونر.. أظن أنك تعتبرها ذخيرة، كمكتبة أو مستودع، حيث يأتي الناس بإرادتهم الحرة ويختارون ما ينقصهم، ويعمل الجميع معًا كخلية النحل. الحق والخير والجمال، توجد هناك عند المنعطف، في الرواق التالي، في الكتاب التالي، الذي لم تقرأه، أو الذي على الرف الآخر، الذي لم تصل إليه. لكنك ستصل إليه يومًا ما. وحينئذٍ، حين تصل...» نظر إلى البيضة لبرهة ثم قضم منها قضمة كبيرة، واستدار لستونر وفكاه يتحركان وعيناه الداكنتان تبرقان.

ابتسم ستونر بارتباك، وضحك فينش بصوت عالٍ وخبط المائدة وقال لستونر: «لقد أصاب في تخمينه يا بيل[1]، نالك به».

لاك ماسترس ما في فمه قليلاً ثم ابتلعه، ونظر نحو فينش يسأله: «وأنت يا فينش، ماذا تعرف؟» رفع يده وتابع: «ستحتج لأنك لم تفكر في الأمر. لكنك فكّرت فيه. ثمة ذهن بسيط يعمل تحت تلك الحيلة والمظهر الخارجي الودود. الجامعة بالنسبة لك وسيلة للخير.. للعالم بأسره، ولك بالطبع، على سبيل المصادفة لا غير. تراها كخلطة روحانية من الكبريت والسكر المعقود، تعدّها كل خريف لترشد الأوغاد الصغار إلى الشتاء التالي، وأنت الدكتور العجوز العطوف الذي يربت على رؤوسهم وجيوبهم لإخراج رسوماتهم».

ضحك فينش ثانية وهز رأسه: «أقسم لك يا ديف، حين تبدأ بالكلام.. »

وضع ماسترس بقية البيضة في فمه، مضغها بهدوء لبرهة وشرب جرعة كبيرة من بيرته، وتابع: «لكنكما مخطئان أنتما الاثنان. إنها مصحة

---

(١) بيل هو الاسم المستعار الشائع لكل رجل يُدعى ويليام في الولايات المتحدة

عقلية، أو ماذا يدعونها هذه الأيام؟ بيت الراحة، للمقعدين والمسنين والساخطين، ومن يُعدون من غير الأكفاء في الأماكن الأخرى. انظروا إلى ثلاثتنا، نحن الجامعة. لن يعرف غريب ما أن لدينا هذا الكم المشترك بيننا، لكننا نعرف، نحن نعرف، أليس كذلك؟ نعرف جيدًا».

ضحك فينش قائلاً: «نعرف ماذا يا ديف؟»

مال ماسترس إلى الأمام على الطاولة، وقال مستمتعًا: «لنبدأ بك أنت أولاً يا فينش. سأقول بقدر ما يمكنني من العطف إنك تمثل غير الأكفاء. فكما تعرف أنت نفسك، أنت لست ذكيًا حقًا.. مع ذلك فهذا ليس كل شيء».

قال فينش وما زال يضحك: «هنا، الآن..»

«لكنك ذكي بما يكفي، فقط بما يكفي، لتدرك ما سيحدث لك في العالم. أنت مجبول من الفشل، وأنت تعرف هذا. بوسعك أن تكون ماكرًا، مع ذلك لست قاسيًا بما يكفي لتكون كذلك دومًا. لكنك لست أشرف الرجال تمامًا، وكذلك لست بطلاً محتالاً. أنت من ناحية تستطيع العمل لكنك كسول بحيث لا تستطيع العمل بالقوة التي يتطلبها العالم. ومن ناحية أخرى لست كسولاً جدًا مما يمكنك من ترك انطباع لدى العالم بأهميتك. ولست محظوظًا. ليس لك حضور، وثيابك تنم عن لغز، ستكون دائمًا في العالم على حافة النجاح، وسيدمرك فشلك، لذلك وقع عليك الاختيار، انتُخِبت، انتزعتك العناية الإلهية التي طالما تسليت بحسها الفكاهي من براثن العالم ووضعتك في مأمن هنا، بين اخوتك».

استدار وهو ما زال مبتسمًا بسخرية خبيثة لستونر: «ولن تهرب أنت يا صديقي، لا، حقًا، من أنت؟ ابن الأرض البسيط كما تتظاهر؟ أوه، لا، أنت أيضا من المقعدين، أنت حالم، رجل مجنون في عالم أكثر منه

جنونًا، دون كيشوت الغرب أوسطي بدون سانشو[1] يُحبّ تحت السماء الزرقاء. أنت ذكي بما يكفي، أذكي عمومًا من صديقنا هذا، لكنك تحمل الآفة، الضعف المزمن. تظن أنه يوجد شيء هنا، شيء ستكتشفه. حسناً، في العالم سرعان ما ستدرك أنك أنت أيضاً من طينة الفشل؛ ولا يعني هذا أنك ستصارع العالم، بل ستدعه يلوكك ويبصقك وأنت راقد هناك تتساءل ما الخطب. لأنك تتوقع دومًا من العالم أن يكون شيئًا غيره، شيئًا لا يريد العالم أن يكونه. لا يمكنك مواجهة دودة القطن، أو دودة شجرة الفاصوليا، أو ثقابة الذرة، ولا يمكنك مصارعتها، لأنك ضعيف جدًا وقوي جدًا وليس لديك مكان تذهب إليه في العالم».

سأل فينش: «ماذا عنك؟ ماذا عنك أنت؟»

عاد بظهره للوراء وقال: «أوه، أنا واحد منكم، بل أسوأ في الحقيقة، أنا أذكى من أن أعيش في هذا العالم، ولن أستطيع إبقاء فمي مغلقًا بهذا الشأن، إنه مرض بلا علاج، لذلك يجب حبسي حيث يمكنني التهور بأمان ودون أن أؤذي أحدًا». ثم عاد يميل إلى الأمام مجددًا وابتسم لهما قائلاً: «نحن جميعًا توم المسكين، ونحن جميعًا ضائعون».

قال ستونر بجدية: «الملك لير».

أضاف ماسترس: «الفصل الثالث، المشهد الرابع». ثم أردف: «وهكذا، فالعناية الإلهية، أو المجتمع، أو القدر، أو أيًا ما تريدون تسميته به، قد صنع لنا هذا الكوخ لنلوذ به من العاصفة. الجامعة تخصنا نحن فقط، المحرومين من العالم، وليست للطلبة، ولا للسعي النزيه وراء المعرفة، ولا لأي سبب قد تسمعونه. لقد نفذت منا الأسباب، وفتحنا الباب لقلة من العاديين، الجيدين مع العالم، لكنه ليس سوى تلوّن وقائي. مثل الكنيسة في العصور الوسطى، لم يكن يعنيها العلمانية

---

(١) الفلاح البسيط الذي استأجره دون كيشوت ليرافقه في رحلته

ولا الرب حتى، لدينا ذرائعنا للبقاء.. لأن علينا البقاء».

هز فينش رأسه بإعجاب قائلاً: «أنت تجعلنا نبدو سيئين حقًا».

قال ماسترس: «ربما كنت محقًا، لكننا على هذا السوء ما زلنا أفضل من أولئك الذين في الخارج، الروث، أوغاد العالم المساكين. نحن لا نؤذي أحدًا، نقول ما نريد، ونتلقى رواتب مقابله، وهذا انتصار للفضيلة الطبيعية، أو شيء ما لعين من هذا القبيل».

عاد يبتعد عن المائدة، لا مباليًا، ما عاد يأبه بما قاله لتوه. سعل جوردون فينش وقال بجدية: «حسنًا، الآن، لديك حق فيما تقوله ديف، لكنني أظن أنك مبالغ جدًا. حقًا».

ابتسم ستونر وماسترس لأحدهما الآخر، ولم يتحدثا في الأمر ثانيةً خلال تلك الأمسية. لكن ستونر ظل لسنوات بعدها، وفي لحظات غريبة، يتذكر كلمات ماسترس تلك، ومع إنها لا تُصوّر له الجامعة التي ألزم نفسه بها، لكنها كشفت له عن أشياء في علاقته بالرجلين، وأعطته لمحة عن مرارة الشباب المتآكلة البريئة.

في السابع من أيار، قامت غواصة ألمانية بإغراق السفينة البريطانية لوزيتانيا، وكان على متنها مائة وأربعة عشر راكبًا أمريكيًا. بنهاية ١٩١٦، كانت معارك الغواصات الألمانية مطلقة، وتدهورت العلاقات بين الولايات المتحدة وألمانيا من سيء إلى أسوأ. في شباط ١٩١٧، قطع الرئيس ويلسون العلاقات الدبلوماسية. وفي ٦ نيسان، أعلن الكونجرس حالة الحرب بين ألمانيا والولايات المتحدة.

بهذا الإعلان، احتشد آلاف الشباب في جميع أنحاء البلاد أمام مراكز التجنيد التي كانت قد أنشأت قبل أسابيع قليلة، كأنه أراحهم أخيرًا من التوتر والحيرة. حقًا، كان مئات الشباب لا يطيقون الانتظار لتتدخل

أمريكا، وكانوا قد سجلوا في الخدمة العسكرية منذ بداية ١٩١٥ مع القوات الكندية الملكية، أو كسائقي سيارات إسعاف لدى أحد جيوش الحلفاء الأوروبية. فعل ذلك عدد قليل من الطلبة الأقدم في الجامعة، ورغم عدم علم ويليام ستونر بأي من هذا، كان يسمع أسماءهم الأسطورية تتردد بتكرار يتزايد بمرور الشهور والأسابيع نحو اللحظة التي يعرفون جميعًا أنها لابد وأن تأتي في نهاية المطاف.

أُعلنت الحرب يوم الجمعة، ورغم تأجيل الدراسة لأسبوع، تحجج القليل من الطلبة والأساتذة ليتقابلوا. تحركوا في القاعات وتجمعوا في مجموعات صغيرة، يدمدمون بأصوات هامسة، ينفجر من حين لآخر في الهدوء المتوتر شيء ما يقرب من العنف. تجمعت تظاهرتان ضد ألمانيا، هتف فيهما الطلبة بتفكك ملوّحين بأعلام أمريكا. وذات مرة تجمعت مظاهرة قصيرة الأجل ضد أحد الأساتذة، مدرس لغات ألمانية عجوز ملتح، وُلد في ميونيخ ودرس وهو شاب في جامعة برلين. لكنه حين قابلً مجموعة الطلبة القليلين الغاضبين المندفعين، جفل بعينيه بذهول ورفع يديه النحيلتين المرتعشتين عاليًا لهم، فتفرقوا بارتباك مكفهر.

في تلك الأيام الأولى بعد إعلان الحرب، انتاب ستونر أيضًا ارتباك، لكنه ارتباك مختلف في الأساس عن ذلك الذي أحكم قبضته على أغلب من في الحرم الجامعي. كان قد تحدث عن الحرب في أوروبا مع بعض الطلبة الأقدم والمدرسين، لكنه لم يقتنع بها قط، وحين صارت فوقه، فوقهم جميعاً، اكتشف في نفسه احتياطي هائل من اللامبالاة. كان مستاءً من تسبب الحرب في إيقاف عجلة العمل بالجامعة، ولم يجد في نفسه مشاعر وطنية قوية، ولم يستطع كَره نفسه على كُره الألمان.

لكن الألمان كانوا هناك ليُكرهوا. ذات مرة مرّ ستونر بجوردون فينش وهو يتحدث مع ثلة من أعضاء الكلية القدامى، كان وجه فينش

متشنجًا وهو يتحدث عن الهانس[1] كأنه سيبصق على الأرض. التقيا بعد ذلك في المكتب الكبير الذي يتشارك فيه عدد من المعيدين الشباب، كان مزاج فينش قد تحوّل، خبط على كتف ستونر بمرح صاخب قائلاً بسرعة: «لن نتركهم يفلتون يا بيل». لمع غشاء رقيق من عرق زيتي على وجهه المستدير، والتصقت خصلات ضعيفة من شعره الأشقر الخفيف على جمجمته. «نعم يا سيدي، سأنضم للجيش. لقد تحدثت في الأمر بالفعل مع العجوز سلوان، وقال لي انطلق. سأذهب إلى سانت لويس غدًا وأسجل». ولوهلة تدبر نمت ملامحه عما يشبه الوقار، وتابع: «على كل واحد منا أن يقوم بدوره». ثم ابتسم وخبط ستونر على كتفه ثانيةً قائلاً: «يجدر بك أن تأتي معي».

قال ستونر مراراً، وبحيرة: «أنا؟ أنا؟»

ضحك فينش قائلاً: «بالطبع، سينضم الجميع. كنت أتحدث مع ديف لتوي، سيأتي معي».

هز ستونر رأسه كأن أصابه دوار. «ديف ماسترس؟»

«بالطبع، ديف العجوز يردد ترهات أحيانًا، لكنه، حين يجِدّ الجَد، لا يختلف عن أي شخص آخر، سيقوم بدوره، تماماً كما ستفعل أنت أيضاً يا بيل». ثم كرر وهو يلكمه في ذراعه: «تماما كما ستفعل أنت».

سكت ستونر قليلاً ثم قال: «لم أفكر في الأمر، يبدو أن الأمور تسير سريعاً جداً، يجب أن أتحدث مع سلوان، وسأبلغك».

«بالطبع» قال فينش وصوته مفعم بالعاطفة، «وستقوم بدورك..

(١) كلمة تعني الألمان، استخدمت خاصة على النطاق العسكري أثناء الحرب العالمية الأولى والثانية

نحن جميعاً في قارب واحد الآن يا بيل، نحن جميعاً فيه معاً».

تركه ستونر، لكنه لم يذهب ليرى سلوان، بل بحث بعينيه في الحرم الجامعي وسأل عن ديف ماسترس. وجده في إحدى المقصورات بالمكتبة، وحده، يدخن غليونًا ويحدق في رف كتب.

جلس ستونر أمامه على منضدة المقصورة. حين سأله عن قراره بالانضمام للجيش أجابه: «بالطبع، ولم لا؟»

وحين سأله لماذا، قال: «أنت تعرفني جيداً جداً يا بيل، لا يعنيني الألمان في شيء، وللحق، ولا الأمريكان أيضاً، على ما أظن». ثم نفض رماد غليونه على الأرض ومسحه بحذائه. «ظني أنني أقوم بهذا لأن الأمر سيان سواء قمت به أم لا، وقد يكون الترحال في العالم ممتعًا قبل العودة مرة أخرى للرهبانية والتحلل البطيء الذي ينتظرنا جميعاً».

أومأ ستونر برأسه موافقاً ماسترس فيما يقوله، رغم عدم فهمه، وقال: «جوردان يريدني أن أسجل معكما».

ابتسم ماسترس وقال: «جوردون يعيش أول لحظة فضيلة مرت به في حياته، وبالطبع سيرغب في أن يعيشها الجميع معه، ليستمر في إيمانه. بالطبع، ولم لا؟ انضم معنا. قد يفيدك أن ترى حقيقة العالم». سكت ونظر إلى ستونر باهتمام، وتابع: «لكن إن أردت فعل ذلك، فبحق المسيح، لا تفعله في سبيل الله أو الوطن أو جامعة ميزوري العزيزة. بل قم به لنفسك».

سكت ستونر لدقائق ثم قال: «سأتحدث مع سلوان وأبلغك».

لم يكن يعرف ماذا سيكون رد فعل آرشر سلوان، مع ذلك، فوجئ حين وقف أمامه في مكتبه الضيق المتخم بالكتب وأخبره بما لم يقرره تماماً بعد.

فقد سلوان، الذي طالما عامله بسخرية محايدة وودودة، أعصابه. احمرّ وجهه الطويل النحيل، وغارت الخطوط المحيطة بفمه عميقاً بغضب، وكاد أن ينهض من كرسيه ليواجه ستونر، ويداه منقبضتان. ثم عاد يجلس وبسط قبضتيه عن عمد ومدّ يديه على مكتبه، كانت أصابعه ترتعش، لكن صوته ثابت أجش.

قال: «عذراً لهذا العرض الفجائي، لكنني في الأيام القليلة الماضية فقدت حوالي ثلث أعضاء القسم، بلا أمل في العثور على بدائل لهم. لست غاضباً منك أنت، ولكن... » سكت وأدار ظهره لستونر، وشخص ببصره خارج النافذة العالية في أقصى طرف مكتبه. سقط الضوء على وجهه بحدة، مبرزاً خطوطه ومعمقاً الظلال أسفل عينيه، فبدا لوهلة عجوزًا مريضًا. قال: «ولدت عام ١٨٦٠ قبل حرب الثوار[1]، لا أتذكرها بالطبع، كنت صغيراً جداً، ولا أذكر أبي أيضاً، قُتل في العام الأول من الحرب في معركة شيلوه». نظر إلى ستونر سريعاً. «لكنني أعرف التبعات، الحرب لا تقضي على آلاف أو مئات الآلاف من الشباب فحسب. بل على شيء ما في الشعوب لا يمكن استعادته مرة أخرى أبداً. ولو شهد الناس حروبًا كثيرة، لن يتبقى سريعاً سوى البهيمية. والكائن الذي رفعناه - أنا وأنت وآخرون مثلنا - من طين». سكت طويلاً، ثم ابتسم برفق وقال: «لا يمكننا أن نطلب من طالب العلم أن يدمر ما يعتبر بناءه الهدف من حياته».

سعل ستونر وقال بخجل: «الأمر كله يحدث بسرعة، بطريقة ما لم يخطر ببالي هذا الأمر قط، حتى تحدثت مع فينش وماسترس، ما زال الأمر يبدو لي غير حقيقي».

«إنه ليس كذلك». قال سلوان ثم تحرك بقلق، مبتعدًا عن ستونر

---

(١) مسمى آخر شائع للحرب الأهلية الأمريكية

وتابع: «لن أملي عليك ما تفعله، بل سأقول لك ببساطة: إنه قرارك، سيكون تجنيدًا إلزاميًا، لكننا سننتظر عودتك، إن أردت العودة. أنت لست خائفًا من الذهاب، أليس كذلك؟»

«لا سيدي. لا أظن هذا».

«إنه قرارك إذاً، اتخذه بنفسك. لا داعي لأن أخبرك أنك في حال انضممت سيعاد تسكينك حين عودتك على درجتك الحالية. وفي حال عدم انضمامك يمكنك البقاء ولكن بدون مميزات خاصة بالطبع، الأرجح أنك ستواجه سلبيات، إما الآن أو في المستقبل».

قال ستونر: «مفهوم».

ساد صمت طويل قبل أن يلاحظ ستونر أخيراً أن سلوان قد انتهى منه، لكنه ما كاد ينهض حتى تكلم سلوان وهو جالس إلى مكتبه مجدداً.

قال ببطء: «تذكر ما كُنته وما اخترت أن تكونه، وأهمية ما تفعله. للبشرية حروب وهزائم وانتصارات ليست بعسكرية ولا ذكر لها في كتب التاريخ. تذكر هذا وأنت تقرر ما ستفعله».

ظل ستونر ليومين لا يذهب للجامعة ولا يتحدث مع أحد يعرفه. بقي في غرفته الصغيرة يناضل مع قراره. تحيطه كتبه وهدوء غرفته، كان نادرًا ما يعي العالم خارج غرفته، ضجة بعيدة لطلبة يزعقون، أو صلصلة ناعمة لعربة خيل تسير في الشوارع الحجرية، أو جلبة خافتة للسيارات القليلة في البلدة. لم يحب الاستبطان قط، ووجد مهمة البحث في دوافعه صعبة وبغيضة قليلاً، شعر أنه يبوح لنفسه بالقليل وأن ما لديه أساساً قليل.

حين توصل لقراره أخيراً، بدا له أنه كان يعرفه طوال الوقت. قابل ماسترس وفينش يوم الجمعة وأبلغهما أنه لن ينضم معهما ليقاتل الألمان.

تصلب جوردون فينش الذي ما زال وصوله للفضيلة يحفزه، وجعل ملامحه تنم عن أسف وتأنيب، وقال: «أنت تخذلنا يا بيل، أنت تخذلنا جميعاً».

قال ماسترس: «اهدأ». ونظر إلى ستونر بحرارة قائلاً: «توقعت أنك لن تنضم، لطالما اتخذت هذا المظهر الضعيف المخلص. الأمر لا يهم بالطبع، ولكن ما الذي جعلك تحسم قرارك؟»

سكت ستونر قليلاً، فكر في اليومين الماضيين، في نضاله الصامت الذي بدا لا نهائياً وبلا معنى؛ فكر في حياته في الجامعة خلال السبع سنوات الماضية، وفي السنوات التي تسبقها، السنوات البعيدة مع والديه في المزرعة، وفي الموات الذي بُعِث منه بمعجزة، ثم قال أخيراً: «لا أعرف، كل شيء تقريباً، لا أستطيع الجزم».

قال ماسترس: «سيكون الأمر شاقاً. البقاء هنا».

قال ستونر: «أعرف».

«لكنه يستحق، ألا تظن ذلك؟»

أومأ ستونر برأسه.

ابتسم ماسترس وقال بسخريته القديمة: «لديك المظهر الهزيل الجوعان، بما يكفي بالطبع. أنت ملعون».

تحول أسف وتأنيب فينش إلى احتقار متردد، وقال بصوت حانق: «ستندم على هذا يا بيل». ونبرته تتأرجح بين التهديد والشفقة.

أومأ ستونر قائلاً: «ربما».

ودّعهما وغادر. كان عليهما الذهاب إلى سانت لويس في الصباح التالي

ليدرجا اسميهما، وعلى ستونر التحضير لمحاضرات الأسبوع القادم.

لم يشعر بالذنب إثر قراره، وحين عُمِّمَ التجنيد تقدّم بطلب التأجيل بضمير مرتاح، لكنه كان واعياً لنظرات زملائه الأكبر سناً، ولمحة عدم الاحترام الطفيفة التي شابت سلوك الطلبة المعتاد تجاهه. حتى آرشر سلوان الذي عبّر ذات مرة عن ترحيبه الحار بقراره الاستمرار في الجامعة، غدا، بمرور أشهر الحرب عليهم، أكثر برودة وابتعادًا.

أنهى أعمال رسالة الدكتوراه في ربيع ١٩١٨، ونال الدرجة في حزيران من العام نفسه. قبل شهر من إنهائه رسالة الدكتوراه، تلقى خطابًا من جوردون فينش. التحق بكلية تدريب الضباط، وأرسل لأحد معسكرات التدريب خارج مدينة نيويورك. عَلِم من الخطاب إنه مسموح لفينش في أوقات فراغه استكمال دراسته في جامعة كولومبيا، وأنه هو أيضاً سينال درجة الدكتوراه في الصيف المقبل من كلية التربية هناك.

عرف من الخطاب أيضاً أن ديف ماسترس أُرسِل إلى فرنسا، وأنه بعد إتمامه عامًا من الانضمام لأول قوات أمريكية تشتبك في الحرب، قد قُتِل في معركة شاتو تيري.

iii

قبل أسبوع من حفل التخرج الذي سينال فيه ستونر درجة الدكتوراه، عرض عليه آرشر سلوان وظيفة أستاذ في الجامعة بدوام كامل. شرح له أنه ليس من سياسة الجامعة تعيين خريجيها، لكنه، نظراً للنقص الذي تسببت فيه الحرب في أساتذة الجامعة المدَرّبين ومن ذوي الخبرة، استطاع أن يقنع الإدارة بإجازة الاستثناء.

كان ستونر، على كرهٍ منه، قد أرسل القليل من خطابات التقدم لجامعات المنطقة وكلياتها عامةً، يستعرض فيها مؤهلاته بلا ترابط، وشعر بارتياحٍ غريب حين لم يأته منها أي رد. كان يعرف سبب هذا الارتياح تقريباً، إذ حظي في جامعة كولومبيا بالدفء والأمان اللذين لم يحظ بهما وهو طفل، ولم يكونا في منزله، ولم يكن واثقاً من أنه سيجدهما مرة أخرى في أي مكان. فقَبِل عرض سلوان شاكراً.

في تلك الأثناء، لاحظ أن سلوان قد تقدم به العمر كثيراً جداً خلال سنوات الحرب. بدا وهو في أواخرِ عقده الخامس أكبر بعشر سنوات، غدا شعره المجعد الذي كان منتفشاً مثل حاجز رمادي صلب، أبيض يرقد مفروداً بلا حياة على جمجمته ناتئة العظام. وانطفأت حماسة عينيه السوداوين، كأنما غشيها طبقات من الندى، وصار لوجهه الطويل النحيل الآن الذي كان بقوة الجلد المشدود وهن الورق الجاف العتيق، وبدأت تظهر في صوته البارد الساخر رعشة. فكر ستونر وهو ينظر إليه: سيموت، خلال عام أو اثنين أو عشرة. سيموت.. وتمكّن منه شعور طفولي بالفقدان، واستدار مبتعداً.

فكر في الموت كثيراً ذاك الصيف في ١٩١٨ صدمه موت ماسترس أكثر مما يرغب في الإقرار به، وكانت قوائم الخسائر الأمريكية في أوروبا توشك على الظهور. حين كان يفكر في الموت من قبل كان يعده إما حدثاً أدبياً أو إنه الإنهاك البطيء الهادئ الذي يفعله الزمن في الجسد الفاني. لم يفكر فيه كانفجار عنيف في معركة، أو تدفق دم مفاجئ من رقبة. تأمل في الاختلافات بين نوعي الموت وما تعنيه، وألفى في نفسه بعضًا من المرارة التي لمحها قبلاً في قلب صديقه ديفيد ماسترس النابض.

كان موضوع أطروحته عن «أثر التراث الكلاسيكي على أغاني العصور الوسطى». قضى أغلب الصيف في إعادة قراءة شعراء لاتينيين من العصر الكلاسيكي والعصور الوسطى، وخاصة قصائدهم عن الموت، تعجّب مرة أخرى من رقة وسهولة قبول الشعراء الرومان لحقيقة الموت، وكأن اللاشيء الذي يوشكون على مواجهته ليس سوى تتويجاً للسنوات الرخية التي استمتعوا بها. واندهش من المرارة والرعب والضغينة، التي لا تكاد تستتر، في أعمال الشعراء المسيحيين اللاحقين في التراث اللاتيني، حين يتأملون في هذا الموت الذي يعدهم، على نحو مبهم مع ذلك، بحياة ثرية وسعيدة خالدين فيها أبداً، كأن الموت والوعد ليسا سوى مزحة تعكر صفو أيامهم في الدنيا. حين كان يفكر في ماسترس كان يتخيله ككاتلوس[١]، أو أقرب إلى جوفينال[٢] أكثر طيبة وشاعرية. كمنفي في وطنه، وكان يعد موته منفى آخر أغرب وأطول أمداً مما عرف قط.

---

(١) شاعر لاتيني من القرن الأول قبل الميلاد نظم الشعر بالطريقة الحديثة، وما زالت أعماله تقرأ على نطاق واسع وله تأثيراته في الشعر وألوان أخرى من الفن.

(٢) شاعر روماني من القرن الأول والثاني بعد الميلاد، ومؤلف مقطوعات الهجاء.

حين بدأت الدراسة في خريف ١٩١٨، كان واضحًا للجميع أن الحرب في أوروبا لن تطول عن هذا. كانت الهجمات الألمانية المضادة قد توقفت يائسة بالقرب من باريس، وأمر المارشال فوش الحلفاء بهجوم عام مضاد سرعان ما أجبر الألمان على الانسحاب عن خطهم الأصلي. تقدم البريطانيون شمالاً ودخل الأمريكيون غابة أرجون، إلى شاطئ تم تجاهله تماماً في حالة الفرح والسرور العامة. توقعت الصحف انهيار الألمان قبل عيد الميلاد. فبدأ الفصل الدراسي بحالة من الود المتوتر والاستبشار خيراً. وجد الطلبة والأساتذة أنفسهم يبتسمون لأحدهم الآخر ويومأون بحرارة في الأروقة. حدثت فورات حماسة أو حوادث عنف صغيرة وتجاهلتها الكلية والإدارة، تسلق طالب غير معروف، صار على الفور بطلاً قوميًا، أحد الأعمدة الشاهقة أمام قاعة جيسي وعلّق في قمته دمية محشوة بالقش تمثل القيصر.

كان آرشر سلوان الشخص الوحيد في الجامعة الذي بدا بمنأى عن تلك الإثارة العامة. راح منذ أن دخلت أمريكا الحرب ينسحب داخل نفسه، وكان هذا الانسحاب يتضح شيئًا فشيئًا باقتراب الحرب من نهايتها. لم يكن يتحدث مع زملائه في العمل ما لم يضطره العمل إلى ذلك، وتناقل الهمس بشأن تدريسه الذي صار غريب الأطوار حتى كان طلبته يحضرون محاضراته مذعورين. كان يقرأ بضجر ورتابة من دفتر ملاحظاته، ولا ينظر في عيني الطلبة مباشرة أبدًا، وكثيراً ما كان صوته يتخلف عنه وهو يحدق في ملاحظاته، ويسود الصمت لدقيقة أو اثنتين وأحيانًا لخمس دقائق، لا يحرك خلالها ساكنًا ولا يجيب عن أسئلة الطلبة المتحرجة.

فيما كان سلوان يسلّم ويليام ستونر مهامه في التدريس للعام الأكاديمي رأى آخر بقايا الرجل الألمعي الساخر الذي عرفه وهو طالب. وكّل سلوان لستونر محاضرتين في الإنشاء لطلبة العام الأول، ومنهج متقدم لنظرة عامة على الأدب الإنجليزي في القرون الوسطى،

ثم قال بلمحة من سخريته القديمة: «سيسعدك أن تعرف أنت وكثير من زملائنا وغير قليل من طلبتنا أنني تخليت عن عدد من محاضراتي، من بينها واحدة كانت إلى حد ما الأثيرة لديّ والقديمة الطراز، وهي الأدب الإنجليزي لطلبة السنة الثانية، قد تتذكر المنهج، أليس كذلك؟»

أومأ ستونر برأسه مبتسماً.

قال سلوان: «نعم، توقعت أنك ستتذكره. أنا أطلب منك أن تدرسه أنت نيابة عنّي، ليست هدية عظيمة، لكنني فكرت أن الأمر سيكون ممتعاً لك أن تبدأ مسيرتك المهنية كأستاذ من حيث بدأت وأنت طالب». لدقيقة نظر سلوان لستونر بعينين لامعتين وثاقبتين كما كانتا قبل الحرب، ثم عاد غشاء اللامبالاة يكسوهما، وصرف نظره عنه منشغلاً بأوراق على مكتبه.

هكذا استهل ستونر من حيث بدأ، رجل طويل نحيل محدودب الظهر في القاعة نفسها التي جلس فيها كشاب طويل ونحيل ومحدودب الظهر أيضاً يستمع للكلمات التي ساقته إلى ما آل إليه. لم يحدث مرة واحدة أن دخل تلك القاعة دون أن يلقي نظرة على المقعد الذي كان يشغله فيما مضى، ودائماً ما كان يفاجأ قليلاً بعدم حضوره.

في ١١ تشرين الثاني من هذا العام، بعد شهرين من بدء الفصل الدراسي، تم توقيع الهدنة. وصلت الأخبار خلال اليوم الدراسي فانقطعت المحاضرات، وخرج الطلبة يسيرون في الحرم الجامعي على غير هدى، ثم كوّنوا مسيرات صغيرة تجمعت وتفرقت ثم تجمعت ثانيةً، جالوا في القاعات والغرف والمكاتب. وجد ستونر نفسه يسير شبه مسلوب الإرادة في واحدة منها صعدت إلى مبنى الجيسي هول، سارت في الأروقة وصعدت السلالم وسارت في الأروقة ثانية. تدفعه كتلة صغيرة من الطلبة والأساتذة، مر بمكتب آرشر سلوان المفتوح

ولمحه جالساً على كرسيه إلى مكتبه، وجهه عارٍ ومتأثر، يبكي بمرارة ودموعه تسيل في خطوط وجهه العميقة.

ترك ستونر نفسه يحمله الزحام لفترة، كأنه تأثير الصدمة، ثم انفصل عنه وذهب إلى غرفته القريبة من الحرم الجامعي. جلس في ظلمة غرفته يسمع صيحات الفرح والحرية بالخارج، ويفكر في آرشر سلوان الذي بكى بهزيمة ظن أنه وحده من رآها، أو أنه رآها بالأساس. عرف أن سلوان قد انكسر ولن يعود أبداً لما كان عليه من قبل.

في أواخر تشرين الثاني بدأ كثيرٌ ممن ذهبوا للحرب يعودون إلى كولومبيا، وتناثرت في الحرم نقاط من القماش الزيتوني لزي الجيش، كان جوردون فينش من بين من عادوا على ذمة الإجازات الطويلة، ازداد وزنًا في فترة العام ونصف العام التي قضاه بعيدًا عن الجامعة، وصار الوجه العريض المفتوح الذي كان مذعناً بود يحملِ الآن وقار ودود ومنذر مع ذلك. كان يرتدي شارة رتبة الكابتن وكثيراً ما يتحدث بالشغف الأبوي لكلمة «رجالي». كان صديقاً من بعيد لويليام ستونر، وبذل جهداً بالغاً ليتصرف باحترام مع أعضاء القسم الأكبر سناً. لم توكل إليه محاضرات إلا في أواخر الفصل الدراسي الخريفي، بعد أن قضى بقية العام الدراسي فيما اتفق على اعتباره وظيفة عاطلة مؤقتة كمساعد إداري لعميد كلية الآداب والعلوم. كان حساساً بما يكفي ليدرك التباس موقعه الجديد، وداهية بما يكفي ليرى الإمكانات التي يحملها، وكانت علاقاته بزملائه في العمل حذرة، وغير ملزِمة بكياسة.

كان عميد الآداب والعلوم، جوزيه كلاريمونت، عجوزًا ضئيلاً ملتحيًا، تخطى سن التقاعد الإجباري بعدة سنوات، وقد ظل في الجامعة منذ تحولها، في السبعينيات من القرن الماضي، من كلية عادية إلى جامعة رسمية، وكان أبوه أحد رؤسائها الأوائل. كان راسخاً بقوة كقطعة كبيرة من تاريخ الجامعة إلى درجة أنه لم تواتِ أحدًا الشجاعة

ليطالب باستقالته، بالرغم من عجزه المتزايد في إدارة منصبه. انمحت ذاكرته تقريباً، كان يُعثر عليه أحياناً تائهاً في أروقة الجيسي هول حيث يوجد مكتبه، فكانوا يعيدونه إليه وهم يقودونه كطفل.

تشوشت في ذهنه شؤون الجامعة حتى إنه جاء من مكتبه ذات مرة دعوة لحفل استقبال، تكريماً للجنود العائدين من أعضاء الكلية والإداريين، مُقام في منزله. شعر أغلب من تلقى الدعوة أن في الأمر مزحة أو مقلب مدروس، أو أنه خطأ غير مقصود، لكنه لم يكن مزحة ولا خطأ، إذ أكد جوردون فينش على مكان الدعوة، وفهم الكثيرون أنه هو من أوعز بفكرة الحفل، وأنه من يتولى التنفيذ.

كان جوزيه كلاريمونت، أرمل منذ سنوات قليلة، يعيش وحده مع ثلاثة من الخدم الملونين في مثل سنه تقريباً في أحد البيوت الكبيرة التي تعود إلى فترة ما قبل الحرب الأهلية، والتي كانت كثيرة في كولومبيا يوماً ما لكنها أخذت في الاختفاء بسرعة أمام المزارع الصغيرة المستقلة وتطور العقارات. كان معمار المكان جميلاً لكنه غير محدد، رغم كونه «جنوبي» في هيئته العامة ورحابته، لم يكن به شيء من رصانة البيوت الفيكتورية. ألواحه مطلية بالأبيض، ونوافذه مؤطرة بالأخضر، وكذلك درابزين الشرفات الصغيرة التي تبرز من هنا وهناك في الطابق العلوي. امتدت الأرض إلى غابة تحيط بالمكان واصطفت أشجار حور طويلة على جانبي الممشى، عارية الأغصان في ظهيرة كانون الاول. كان أكبر منزل اقترب منه ويليام ستونر قط، وفي ظهيرة يوم الجمعة تلك سار على الطريق الخاصة المؤدية إليه ببعض الرهبة، وانضم لمجموعة من الكلية لا يعرفهم، كانوا ينتظرون أمام البوابة الأمامية ليسمح لهم بالدخول.

فتح جوردون فينش الباب لهم وما زال بزيه العسكري. دلفت المجموعة إلى ردهة مربعة صغيرة في نهايتها سلم مائل، درابزينه من

بلوط لامع، يؤدي إلى الطابق العلوي. عُلّقت على حائط السلم في مقابل من دخلوا مباشرة قطعة من البساط المزخرف الفرنسي بهت فيها اللونان الأزرق والذهبي، حتى لا يكاد الرسم يكون مرئياً في الضوء الأصفر الباهت للمصابيح الصغيرة. وقف ستونر يحدق في البساط فيما تجوّل من دخلوا معه في الردهة الصغيرة.

«أعطني معطفك يا بيل». جفل للصوت القريب جدًا من أذنه. استدار فوجد فينش يبتسم مادّاً يده ليأخذ المعطف الذي لم يخلعه ستونر.

سأله فينش بهمس تقريباً: «لم تأتِ إلى هنا من قبل، أليس كذلك؟» فهز ستونر رأسه. تدبر فينش أن يقول للآخرين دون أن يعلو صوته: «أيها السادة، تفضلوا في غرفة المعيشة». وأشار إلى باب في يمين الردهة قائلاً: «تفضلوا جميعا رجاءً».

عاد يخاطب ستونر: «إنه بيت قديم جميل». وعلق معطف ستونر في خزانة ملابس كبيرة أسفل السلم وهو يضيف: «أحد الأماكن الرائعة حقاً في المنطقة».

قال ستونر: «نعم، سمعت الناس يتحدثون عنه».

«والعميد كلايرمونت عجوز طيب. لقد طلب مني أن أشرف على الأمور نيابة عنه هذا المساء».

أومأ ستونر برأسه.

أخذه فينش من ذراعه، وقاده إلى الباب الذي أشار إليه من قبل وقال: «يجب أن نتحدث لاحقاً هذا المساء، ادخل أنت الآن وسآتي خلال دقيقة. يوجد ناس أريدك أن تقابلهم».

كاد ستونر أن يقول شيئًا، لكن فينش كان قد استدار ليحيي مجموعة

أخرى وقفت عند الباب الأمامي. أخذ ستونر نفساً عميقاً وفتح باب غرفة المعيشة.

داهمه الدفء وهو يدلف الغرفة من الردهة الباردة، كأنه يدفعه للوراء. تدفقت همهمة الجالسين في الغرفة، وانطلقت، ما إن فتح الباب، في موجة كبيرة إزاء أذنيه اللتين استغرقتا وقتا ليعتادا عليها.

وجد حوالي عشرين شخصًا يتمشون في الغرفة، وللحظة لم يتعرف على أحدٍ منهم. رأى البذلات الوقورة بالأسود والرمادي والبني، والقماش الزيتوني للزي العسكري، ومن حين لآخر اللون الزهري أو الأزرق لفستان امرأة. يسير الناس في الدفء بخمول. تحرك بينهم واعياً بطوله بين الجالسين، يومئ للوجوه التي بدأ يتعرف عليها الآن.

ثمة باب آخر في أقصى الغرفة يؤدي إلى صالون جلوس ملحق بقاعة الطعام الطويلة الضيقة. كان بابا القاعة مفتوحين، فكشفا عن مائدة طعام من خشب الجوز مغطاة بمفرش من القطن الأصفر، ومحملة بالأطباق البيضاء والصحون الفضية اللامعة. تجمع العديد حول المائدة التي وقفت على رأسها شابة طويلة هيفاء حسنة المنظر، ترتدي ثوبًا من الحرير الأزرق الفاتح، تصب شايًا في فناجين صينية ذات حواف ذهبية. توقف ستونر على عتبة الباب مأخوذًا بمشهد المرأة. يبتسم وجهها الطويل بملامحه الرقيقة لمن حولها، وأصابعها النحيلة الهشة تداعب بحذق الإبريق والفناجين. انتابه لرؤيتها وعي بحماقته الشخصية الرصينة.

مضت دقائق لم يتحرك من وقفته عند عتبة الباب. سمع صوتها الناعم الرقيق يعلو فوق همهمة الضيوف المجتمعين لشرب الشاي. رفعت رأسها والتقت عيناهما فجأة. كانت عيناها شاحبتين واسعتين ولهما بريق داخلي. تراجع عن وقفته عند العتبة بارتباك واستدار عائداً

لغرفة الجلوس، وجد مقعداً خالياً إلى جانب الحائط فجلس هناك ينظر إلى السجادة تحت قدميه. لم ينظر نحو غرفة الطعام، لكنه شعر بنظرة المرأة الشابة، من حين لآخر، تمسّد وجهه بحرارة.

تحرك الضيوف من حوله وهم يبدّلون مجالسهم، ويغيرون نبرات أصواتهم بعثورهم على شركاء جدد في الحديث. يراهم ستونر من خلال سديم، كأنه جمهور. دخل جوردون فينش بعد وقت إلى الغرفة، فنهض ستونر وقطع عرض الغرفة تجاهه. قطع محادثة فينش مع أحد الضيوف من كبار السن بشبه وقاحة. تنحى به جانباً دون أن يخفض صوته وطلب منه أن يقدمه إلى المرأة الشابة التي تصبّ الشاي.

نظر إليه فينش لدقيقة، انبسط انعقاد الحاجبين الغاضب الذي غضّن جبينه واتسعت عينيه قائلاً: «تريدني ماذا؟» وبدا مع أنه أقصر قامة من ستونر كأنه ينظر إليه من أعلى.

قال ستونر: «أريدك أن تقدّمني». وشعر بحرارة في وجهه. «أتعرفها؟»

قال فينش: «بالطبع». وبدأت بوادر ابتسامة تجذب أطراف فمه. «إنها بنت عم قريبة للعميد، من سانت لويس، وجاءت في زيارة لخالتها». واتسعت الابتسامة وهو يقول: «أيا بيل العجوز! عجبي! بالطبع سأقدمك.. تعال».

كان اسمها إديث إيلاين بوستفيك، وتعيش مع والديها في سانت لويس حيث أنهت الربيع الماضي عامين من الدراسة في معهد خاص للتعليم العالي للشابات. كانت تزور خالتها العجوز في كولومبيا لعدة أسابيع، وكانت ذاهبة في الرحلة الكبرى[1] إلى أوروبا بعد أن صار ذلك

---

(١) Grand tour رحلة تقليدية لأوروبا تقوم بها الأسر من الطبقة العليا لأغراض تعليمية بالأساس

ممكنًا مرة أخرى بعد نهاية الحرب. كان والدها، الذي يعمل رئيس أحد المصارف الصغيرة بسانت لويس، من النيوإنجلانديين[1] الذين أعيد تسكينهم، جاء إلى الغرب في السبعينيات وتزوج ابنة إحدى الأسر الثرية العريقة في ميزوري. عاشت إديث عمرها كله في سانت لويس، سافرت منذ سنوات مع والديها شرقاً إلى بوسطن لقضاء موسم، وذهبت إلى الأوبرا في نيويورك وزارت متاحفها. عمرها عشرون سنة، وتعزف البيانو، ولديها ميول فنية تشجعها أمها على تنميتها.

فيما بعد، لم يستطع ستونر أن يتذكر كيف عرف كل هذا في تينك الظهيرة والأمسية في منزل جوزيه كلاريمونت، إذ كان لقاؤهما مغبشًا ورسميًا، مثل البساط المزخرف المعلق على حائط السلم بالردهة الخارجية. تذكّر أنه طلب منها أن تستمر في النظر إليه، وأن تظل قريبة منه، تمنحه سعادة سماع صوتها الناعم الرقيق، تجيب عن أسئلته ويطرح بدوره أسئلته اللامبالية.

بدأ الضيوف ينصرفون. أصوات تحيات الوداع، أصوات إغلاق أبواب. وخلت الغرف. بقي ستونر لوقت متأخر بعد انصراف أغلب الضيوف، وحين جاءت عربة إديث، تبعها إلى الردهة وساعدها على ارتداء معطفها، وفي لحظة خروجها سألها إن كان يمكنه زيارتها المساء التالي.

فتحت الباب كأنها لم تسمعه، وتوقفت لبرهة بلا حركة، اندفعت من الباب ريح باردة لطمت وجه ستونر الحار. استدارت ونظرت إليه وطرفت بعينيها عدة مرات، كانت عيناها الشاحبتان محمّلتين بالتوقع وجريئتين تقريباً. أومأت برأسها أخيرًا وقالت دون أن تبتسم: «نعم، يمكنك».

---

(١) New England منطقة بشمال أمريكا

وهكذا زارها، سار عبر المدينة إلى بيت خالتها في ليلة شتائية غرب أوسطية قارسة، لا سحب أعلى رأسه. لمع ضوء الهلال على ثلج خفيف سقط خلال الظهيرة. كانت الشوارع خالية وصوت انسحاق الثلج الجاف تحت خطواته يكسر صمتها المكتوم. توقف طويلاً أمام البيت الذي جاء إليه، يسمع الصمت. خدّر البرد قدميه، لكنه لم يتحرك. سقط من النوافذ المنسدلة الستائر ضوء واهن على الثلج الأبيض المزرقّ كلطخة صفراء. ظن أنه رأى حركة بالداخل، لكنه لم يكن متأكداً. تقدم للأمام بإصرار، كأنه يُلزِم نفسه بشيء ما، وسار عبر الممشى إلى الشرفة وطرق الباب الأمامي.

قابلته خالة إديث عند الباب (يعرف مسبقًا أن اسمها «إيما دارلي»، وأنها أرملة منذ عدة سنوات) ودعَته للدخول. كانت امرأة قصيرة ولحيمة بشعر أبيض ناعم يحيط بوجهها، تتألق عيناها الداكنتان بنداوة، وتتحدث برقة وأنفاس لاهثة كأنها تُفشي أسرارًا. تبعها ستونر إلى الصالون وجلس قبالتها على أريكة طويلة من خشب الجوز مكسو مقعدها ومسنديها بالمخمل الأزرق السميك. كان ثمة ثلج عالق بحذائه، شاهده يذوب ويشكل بقع مبللة على السجادة الزهرية السميكة.

قالت السيدة دارلي: «أخبرتني إديث أنك تُدرس في الجامعة يا سيد ستونر».

قال: «نعم يا سيدتي»، ثم سعل.

قالت السيدة دارلي ببهجة: «إنه لأمر رائع أن يرى المرء أساتذة جامعة شباب هناك مرة أخرى. زوجي الراحل، السيد دارلي، كان أحد أعضاء مجلس الأمناء في الجامعة لعدة سنوات.. أظن أنك تعرف هذا».

«لا يا سيدتي».

«أوه. حسنًا، اعتدنا أن ندعو بعض أساتذة الجامعة الشباب على الشاي في العصر. لكن ذلك كان منذ وقت طويل، قبل الحرب، هل شاركت في الحرب يا بروفيسور ستونر؟»

«لا سيدتي، بل كنت في الجامعة».

«نعم». قالت السيدة دارلي وهي تومئ برأسها برضا: «وأنت تُدرِّس..؟»

قال ستونر: «الإنجليزية. وأنا لست بروفيسور، أنا فقط مُعيد». عرف أن صوته كان فظاً، لم يستطع التحكم فيه. حاول أن يبتسم.

«آه. نعم. شكسبير... وبراونينج».

خيم صمت عليهما. شبك ستونر يديه معاً ونظر إلى الأرض.

قالت السيدة دارلي: «سأرى إن كانت إديث جاهزة، بعد إذنك».

أومأ ستونر برأسه ونهض واقفًا حتى خرجت. سمع همسات شديدة اللهجة من غرفة خلفية. وقف لعدة دقائق أخرى.

ظهرت إديث فجأة آتية من الباب الواسع، شاحبة ومتجهمة. نظرا أحدهما للآخر بدون وعي. تراجعت إديث خطوة ثم تقدمت للأمام، شفتاها رفيعتان ومتحفزتان. تصافحا بالأيدي برزانة وجلسا معاً على الأريكة. لم يتكلما.

كانت أطول مما يتذكرها، وأكثر هشاشة. وجهها طويل ونحيل، وأبقت شفتيها مغلقتين على أسنان قوية نوعاً ما. بشرتها شفافة لدرجة أن تشتعل لونًا وحرارة لدى أي استفزاز. شعرها بني محمِّر قليلاً، تجمعه في ضفائر سميكة أعلى رأسها. كانت عيناها اللتين جذبتاه وأسرتاه، كما

في الليلة الماضية، واسعتين للغاية ومن أفتح درجات الأزرق التي قد يتخيلها. بدا له كلما نظر فيهما أنه ينسحب من نفسه إلى لغز لا يستطيع إدراك كنهه. فكر أنها أجمل امرأة رآها في حياته، وقال بتلقائية: «أنا.. أريد أن أعرف عنكِ». تراجعت عنه قليلاً. فاستدرك بسرعة: «أقصد أننا بالأمس في حفل الاستقبال لم يتح لنا الوقت لنتحدث. أردت أن أتحدث معكِ، لكن كان هناك ناس كثيرين جداً. الناس أحياناً يقاطعون المرء».

قالت إديث بصوت خافت: «كان حفلاً لطيفاً للغاية.. أعتقد أن الجميع كانوا لطفاء جداً».

قال ستونر: «أوه، نعم، بالطبع، أعني...» لكنه سكت. وسكتت هي أيضاً.

قال ثانيةً: «عرفت أنك وخالتك ستسافران إلى أوروبا خلال وقت قصير».

«نعم».

قال وهو يومئ برأسه: «أوروبا.. لابد أنك متحمسة للغاية».

أومأت برأسها رغمًا عنها.

قال: «أين ستذهبان؟ أقصد أية بلاد؟»

«إنجلترا، وفرنسا، وإيطاليا».

«وهل ستنطلقان في الربيع؟»

«نيسان».

«بعد خمسة شهور.. ليست وقتًا طويلاً، أتمنى أن نستطيع خلالها أن...»

قالت بسرعة: «سأمكث هنا لثلاثة أسابيع فقط، ثم سأعود إلى سانت لويس لقضاء عيد الميلاد».

قال مبتسمًا: «هذا وقت قصير حقًا». ثم قال بتحرج: «سيكون عليّ إذاً أن أراكِ كلما أمكنني، لنتعرف على أحدنا الآخر».

نظرت إليه برعب تقريباً وقالت: «لم أعني هذا، أرجوك...»

صمت ستونر لبرهة ثم قال: «آسف، أنا.. لكنني أريد أن أزورك مرة أخرى، كلما سمحتِ لي. هل يمكنني؟»

«أوه. حسناً» تشابكت أصابعها النحيلة معاً في حِجرها، كانت مفاصل الأصابع حيث يتمدد الجلد بيضاء. ونمش باهت جداً على ظهري كفيها.

قال ستونر: «الأمر يسوء أليس كذلك؟ اغفري لي، لم أعرف أحدًا مثلك من قبل أبداً، وأنا أردد حماقات. اغفري لي إن كنت قد تسببت لك في الإحراج».

«أوه. لا» استدارت إليه وانفرجت شفتاها فيما كان بالتأكيد ابتسامة. «إطلاقاً، أنا أقضي وقتا ممتعاً، حقاً».

لم يعرف ماذا يقول، ذكر الطقس بالخارج واعتذر عن جلبه الثلج إلى السجادة، غمغمت بشيء ما. تحدث عن تدريسه في الجامعة، وكانت تومئ برأسها في حيرة. جلسا أخيرًا في صمت. نهض ستونر واقفاً. تحرك ببطء وثقل، كما لو كان مرهقًا. نظرت إليه إديث بلا تعبير.

قال: «حسناً». وتنحنح ثم تابع: «الوقت تأخر، وأنا... أنا آسف، هل تسمحين لي بزيارتك ثانية خلال أيام قليلة؟ ربما...»

بدت كأنها لا تسمعه. أومأ برأسه قائلاً: «تصبحين على خير». واستدار لينصرف.

قالت إديث بوستفيك بصوت عالٍ وصاخب بلا نبرات: «حين كنت فتاة صغيرة، حوالي ست سنوات، كنت أعزف البيانو، وكنت أحب الرسم، وكنت خجولة جدًا فأخذتني والدتي إلى مدرسة الآنسة ثورندايك للفتيات في سانت لويس، وكنت أصغر فتاة هناك، لكن هذا كان جيداً لأن والدي كان عضو مجلس الإدارة وهو الذي رتب الأمر. في البداية لم تعجبني المدرسة لكنني صرت أحبها جداً. كن جميعهن فتيات لطيفات ومؤدبات للغاية، وعقدت صداقات لمدى الحياة هناك، و...»

استدار ستونر حين بدأت كلامها، ونظر إليها بذهول لم يبدُ على وجهه. كانت عيناها مثبتتين أمامها مباشرة، وصفحة وجهها خالية وشفتاها تتحركان كأنها تقرأ، بلا فهم، من كتاب لا مرئي. سار عبر الغرفة ببطء وجلس بجانبها. لم يبدُ أنها لاحظته، ظلت عيناها مثبتتين أمامها مباشرة وواصلت حديثها له عن نفسها، كما طلب منها. أراد أن يخبرها أن تتوقف، من أجل راحتها، أن يلمسها. لكنه لم يتحرك ولم يقل شيء.

ظلت تتحدث، وبعد فترة بدأ يسمع ما تقوله. بعد ذلك بسنوات كان يخطر بباله أنها في الساعة ونصف الساعة من أمسية كانون الأول تلك، في أول لقاء مطول لهما، قد أخبرته عن نفسها قدرًا أكبر من أي وقت بعد ذلك. وحين انتهت، شعر أنهما غريبين عن بعضهما على نحو لم يتوقعه. وعرف أنه يحبها.

الأرجح أن إديث إلاين بوستفيلك لم تكن واعية بما قالته لويليام ستونر تلك الأمسية، وحتى وإن وعت، لم تكن لتدرك مدى أهميته. لكن ستونر عرف ما قالته، ولم ينسه قط، كان ما سمعه نوعًا من الاعتراف، وظنّ أنه ميّز فيه استغاثة للمساعدة.

حين عرفها أكثر عرف المزيد عن طفولتها، وأدرك أنها نموذج لأغلب فتيات جيلها ممن عشن في ظروف مشابهة. تعلمت بغرض حمايتها من الجسائم التي قد تقذف الحياة بها في طريقها، وعلى أساس أن لا شغل لها في الحياة سوى أن تكون قطعة حليّ رقيقة وجديرة بتلك الحماية. وإذ كانت من طبقة اجتماعية واقتصادية تعتبر الحماية واجب مقدس، درست القراءة والكتابة والحساب البسيط في مدرسة خاصة، وفي وقت فراغها كانوا يشجعونها على أعمال الإبرة، وعزف البيانو، والرسم بألوان الماء، ومناقشة أرق الأعمال الأدبية. كانوا يوجهونها أيضاً في مسائل الثياب، والعربة، والتصرف كسيدة محترمة، والأخلاقيات.

كانت تربيتها الأخلاقية سواءً في المدرسة أو المنزل سلبية بطبيعتها، تقوم على الترهيب، وجنسية في أغلبها تقريباً، مع ذلك لم يكن الجنس شيء مباشر ومعترف به، لذلك خضّب كل أجزاء تعليمها الأخرى التي استمدت أغلب طاقتها من تلك القوى الروحية المنحسرة والمسكوت عنها. كانت تعرف أن عليها واجبات نحو زوجها وأسرتها وأن عليها أن تقوم بتلك الواجبات.

كانت طفولتها رسمية على نحو مبالغ فيه، حتى في أكثر اللحظات عادية مع أسرتها، كان والداها يتصرفان بتأدب غير ودود مع أحدهما الأخر، لم ترَ إديث بينهما الحرارة التلقائية سواءً للغضب أو للحب قط. كان الغضب أيام من الصمت المهذب، والحب كلمة معزّة دمثة. كانت طفلة وحيدة، والوحدة هي أول ظروف وجدت نفسها فيها.

كبُرت بموهبة متواضعة في ألوان رقيقة من الفن، بلا دراية بضرورات البقاء على قيد الحياة يومًا بعد آخر. تطريزها رقيق وعديم الفائدة، وترسم مناظر طبيعية مغبشة من طبقات رقيقة من ألوان الماء، وتعزف البيانو بيد خفيفة لكن مشدودة. كانت تجهل وظائف جسدها، لم يمر عليها يوم واحد اضطرت فيه للعناية بنفسها وحدها، ولم يخطر ببالها قط أنها ستغدو مسؤولة عن سرّاء شخص آخر. كانت حياتها شيئاً ثابتاً، كترنيمة هادئة، تخضع لرقابة والدتها التي كانت، في طفولة إديث، تجلس معها بالساعات وهي ترسم صورها أو تعزف على البيانو، كأنه لا يوجد أي شيء آخر لتفعله أي واحدة منهما.

في الثالثة عشرة، حصل لإديث التحول الجنسي المعتاد، وحصل لها أيضاً تغير جسدي أقل شيوعاً. طالت في بحر أشهر قليلة حوالي ثلاثين سنتيمترًا، فصارت بطول رجل ناضج. وشكّل ارتباط غلاظة جسدها بوضعه الجنسي المربك الجديد عقدة لم تتعافَ منها تماماً قط. كثّفت هذه التغييرات خجلاً طبيعيًا، فكانت بعيدة عن زميلاتها في المدرسة، وما كان لديها أحد تتحدث معه في المنزل، فانطوت على دخيلة نفسها أكثر وأكثر.

اقتحم ويليام ستونر الآن هذه الخصوصية الداخلية، وشيء ما يقيني بداخلها، غريزة ما، جعلها تناديه ليعود حين بدأ ينصرف، جعلها تتحدث بسرعة ويأس، كما لم تتحدث من قبل، وكما لن تتحدث فيما بعد.

رآها خلال الأسبوعين التاليين كل ليلة تقريباً. ذهبا إلى حفلة موسيقية نظمها قسم الموسيقا في الجامعة، وفي الأمسيات غير قارسة البرودة كانا يتمشيان ببطء وهدوء في شوارع كولومبيا، لكنهما كانا أغلب الوقت يجلسان في صالون السيدة دارلي. أحياناً يتحدثان، وأحياناً تعزف على البيانو بينما يجلس هو يستمع ويشاهد أصابعها تتحرك بلا حياة على

المفاتيح. بعد تلك الأمسية الأولى لهما، باتت محادثاتهما لا شخصية، كان عاجزاً عن سحبها خارج انطوائها على نفسها، وحين وجد أن جهوده في هذا تسبب لها الإحراج، توقف عن المحاولة. مع ذلك كان ثمة شيء من الارتياح بينهما، وتصور أن بينهما تفاهم ما. في الأسبوع الأخير قبل عودتها إلى سانت لويس صرّح لها بحبه وطلب يدها للزواج.

رغم أنه لم يتوقع شيئًا ما محدد كرد فعل منها على التصريح والطلب، لكنه فوجئ من اتزانها. رمقته بعد أن أنهى كلامه بنظرة مطولة موزونة وجريئة على نحو مثير للفضول، ذكرته بالظهيرة التي قابلها فيها أول مرة وطلب زيارتها، حين نظرت إليه عند عتبة الباب وكانت ريح باردة تندفع فوقهما. ثم خفضت بصرها وبدت له الدهشة التي ارتسمت على وجهها غير حقيقية. قالت إنها لم تفكر فيه بهذه الطريقة من قبل، وإنها لم تتوقع ذلك قط، وإنها لا تعرف.

قال: «لابد أنك عرفتِ أنني أحبك. لا أفهم كيف كنت لأخفي هذا».

قالت بشيء من الحيوية: «لم أعرف. أنا لا أعرف أي شيء عن هذا».

قال برقة: «عليّ إذاً أن أخبرك ثانيةً. وعليكِ أن تعتادي هذا. أنا أحبك، ولا أستطيع تصور الحياة بدونك».

هزت رأسها كأنها خجلة وقالت بصوت خافت: «رحلتي إلى أوروبا، وخالتي إيما..».

شعر بضحكة تكاد تنفجر في حنجرته، وقال بثقة سعيدة: «أوه. أوروبا، سآخذك إلى أوروبا.. سنراها معاً يوماً ما».

ابتعدت عنه ووضعت أطراف أصابعها على جبينها وقالت: «لابد أن تمنحني الوقت لأفكر، وعليّ أن أتحدث مع ماما وبابا قبل حتى أن

أفكر في...»

ولم تُلزِم نفسها لأبعد من هذا. لم تكن ستراه ثانيةً قبل أن تغادر إلى سانت لويس خلال أيام قليلة، وستكتب له بعد أن تتحدث مع والديها وتستقر الأمور في ذهنها. لدى مغادرته تلك الليلة، توقف ليقبّلها، فابتعدت برأسها، ولامست شفتاه خدّها. ضغطت على يده برقة وودعته عند الباب الأمامي دون أن تنظر إليه ثانيةً.

بعد ذلك بعشرة أيام تلقى رسالتها. كانت كمذكرة رسمية، لم تذكر شيئًا بينهما، قالت إنها تريده أن يقابل والديها، وإنهم جميعاً يتطلعون للقائه حين يأتي إلى سانت لويس العطلة الأسبوعية القادمة إن أمكنه ذلك.

قابله والدا إديث بالبرودة الرسمية التي توقعها، وحاولا فورًا تدمير أي شعور بالراحة قد يعتريه. كانت السيدة بوستفيك تسأله سؤالاً وتقول بعد أن يجيب بنبرة المرتابة بشدة: «نـــ..عم». وتنظر إليه بفضول كأن وجهه ملطخ أو أنفه ينزف. كانت طويلة ونحيفة مثل إديث، وقد أذهله في البداية الشبه الذي لم يكن يتوقعه. لكن وجه السيدة بوستفيك كان مجهداً وبليداً، بلا أدنى قوة أو رقة، ويحمل الأمارات العميقة لما كان بالتأكيد سخطاً اعتيادياً.

كان هوراس بوستفيك طويلاً أيضاً، لكنه ضخم على نحو غير مفهوم، سمين تقريباً، يلتف شعره الرمادي في خصلات مجعدة حول جمجمته الصلعاء. وتتهدل طيات من الجلد حول فكيه. حين يتحدث مع ستونر كان ينظر فوق رأسه مباشرة كأنه يرى شيئاً خلفه، وحين يجيبه ستونر كان يربت بأطراف أصابعه على حزام صدريته.

حيّت إديث ستونر كأنه زائر عادي، ثم ابتعدت بلا اكتراث وانشغلت بمهام غير منطقية. تبعها بعينيه لكنه لم يستطع حثها على النظر إليه.

كان أضخم وأرقى بيت دخله ستونر في حياته. كانت الغرف عالية جداً ومعتمة، تعج بالمزهريات من كل حجم وشكل، وأعمال فضية تلمع بأصالة على الأسطح الرخامية للطاولات والصوانات والتخوت، وأثاث مطرّز بخطوط ثرية ورقيقة. مرّوا بعدة غرف قبل أن يصلوا لصالون كبير حيث غمغمت السيدة بوستفيك شيئًا ما عن جلوسهما فيه للدردشة مع الأصدقاء بشكل غير رسمي. جلس ستونر على كرسي هش إلى درجة أن خاف أن يتحرك عليه، إذ شعر به يئن تحت وزنه.

اختفت إديث، وبحث عنها ستونر بفزع. لكنها لم تعد إلى الصالون إلا بعد ساعتين تقريباً، بعد أن أنهى ستونر ووالديها «حوارهم».

كان الحوار غير مباشر ومليء بالتلميحات، وبطيء وتقطعه نوبات طويلة من الصمت. تحدث هوراس بوستفيك عن نفسه في عبارات موجزة موجهه لأعلى رأس ستونر بعدة بوصات. عرف ستونر أن بوستفيك من بوسطن وأن أباه، في بداية حياته، دمّر مستقبله المهني كمصرفي ومستقبل ابنه في نيو إنجلاند بسلسلة من الاستثمارات المتهورة التي أغلقت مصرفه. صرّح بوستفيك «المغدور» للسقف أن ذلك حدث بسبب «نذالة الأصدقاء». لذلك، جاء الابن إلى ميزوري عقب انتهاء الحرب الأهلية، بنية التوجه غرباً، لكنه لم يبتعد لأكثر من كنساس سيتي، حيث كان يسافر من حين لآخر لقضاء بعض الأعمال. ولأنه يتذكر فشل أبيه أو الغدر به، بقي في وظيفته بمصرف صغير في سانت لويس، وفي أواخر ثلاثينياته، بعد أن اطمئن في منصب النائب الثاني للرئيس، تزوج من فتاة محلية من أسرة جيدة. أنجب منها مرة واحدة، أرادها ولدًا، لكنه رزق ببنت، وكان ذلك إحباطاً آخر لم يتكبد عناء إخفائه. مثل كثير من الرجال الذين يشعرون بالنقص في نجاحاتهم، كان مختالاً بنفسه ومستغرقًا في إحساسه بأهميته على نحو غير طبيعي. فكان، كل ربع أو ثلث ساعة، يُخرِج ساعة ذهبية من جيب صداره، وينظر إليها، ويومئ لنفسه.

تحدثت السيدة بوستفيك مرات أقل وبمباشرة أقل عن نفسها، لكن ستونر فهمها بسرعة. كانت سيدة جنوبية من طراز معين، من أسرة عريقة أفقرها الزمن دون أن يفضحها، كبرت على قناعة مغرورة بأن ظروف أسرتها الفقيرة لا تناسب عراقتها. تعلمت أن تتوقع تحسن الأمور لكن التحسن لم يكن محددًا على وجه التعيين. تزوجت هوراس بوستفيك بهذا السخط المعتاد للغاية بداخلها حتى صار جزءًا من شخصيتها، وبمرور السنين ساد السخط والمرارة وتوغلا إلى درجة أن لا شيء صار يخفِف منهما. كان صوتها رفيعاً وعالياً، ويحمل مسحة يأس تمنح قيمة خاصة لكل كلمة ترددها. كان الوقت قرب نهاية الظهيرة حين ذكر أحدهما سبب لقائهم.

أخبراه عن مدى حبهما لابنتهما وقلقهما على سعادتها في المستقبل، ومميزاتها. جلس ستونر في عذاب الإحراج محاولاً أن يجيبهما بما تمنى أن يكون لائقاً.

قالت السيدة بوستفيك: «إنها فتاة غير عادية.. حساسة للغاية». تغضن وجهها وقالت بمرارة قديمة: «لا يوجد رجل.. لا أحد يمكنه فهم رقة الـ.. الـ..»

قال هوراس بخشونة: «نعم». ثم بدأ يستفسر عما أسماه «آفاق» ستونر. أجابه ستونر بأفضل ما يمكنه، لم يكن قد فكر من قبل في «آفاقه»، وقد فاجأته كم بدت تلك الآفاق غثّة.

قال بوستفيك: «وليس لديك سبل دخل أخرى غير مهنتك؟»

قال ستونر: «لا يا سيدي».

هز السيد بوستفيك رأسه بحزن قائلاً: «لدى إديث مزايا، أتعرف؟ بيت رفيع، خدم، أفضل تعليم. تُرى.. أخشى أن.. بهذا المستوى

المنخفض الذي لا مفر منه في.. آه.. ظروفك التي...» وانسحب صوته تماماً.

شعر ستونر بإعياء يتنامى بداخله، وبغضب. انتظر دقائق قليلة قبل أن يجيبه، وجعل صوته باردًا خاليًا من التعبير ما أمكنه وهو يقول: «يجب أن أخبرك يا سيدي أنني لم أفكر في تلك المسائل المادية من قبل. إن سعادة إديث بالطبع- إن كنت تعتقد أن إديث لن تكون سعيدة، فلابد إذاً أن...» توقف يبحث عن الكلمات. أراد أن يخبر والد إديث بمدى حبه لابنته، ويقينه بسعادتهما معاً، وبالحياة التي سيقضيانها معاً. لكنه لم يواصل كلامه. التقط على وجه هوراس تعبير اهتمام، وفزع، وشيء ما كالخوف فسكت مندهشاً.

قال هوراس بسرعة: «لا». واتضحت تعبيرات وجهه وهو يقول: «لقد أسأت فهمي، لقد كنت فقط أضع أمامك بعض.. الصعوبات.. المعينة التي قد تنشأ في المستقبل. أنا واثق أنكما أيها الشابان قد تحدثتما في هذا الأمور من قبل، وواثق أنكما تدركان ما تفعلانه، أنا أثق في حكمك و...»

واستقر الأمر. قيلت بضع كلمات أخرى وتساءلت السيدة بوستفيك بصوت عالٍ عن مكان اختفاء إديث طوال هذا الوقت. نادتها بصوتها الرفيع العالي، وخلال دقائق قليلة جاءت إديث إلى الصالون حيث ينتظرونها. لم تنظر إلى ستونر.

أخبرها هوراس بوستفيك أن حوارًا لطيفًا قد دار بينه وبين «فتاها»، وأنهما قد حظيا بمباركته. أومأت إديث برأسها.

قالت أمها: «حسناً، علينا التخطيط للأمر. الزفاف في الربيع، في حزيران ربما».

قالت إديث: «لا».

قالت أمها بسرور: «ماذا يا عزيزتي؟»

«إن كان الأمر سيتم، فأريده أن يتم بسرعة».

قال السيد بوستفيك: «اندفاع الشباب..» وسعل ثم تابع: «ولكن قد تكون أمك محقة يا عزيزتي، علينا أن نخطط للأمر، لابد لنا من وقت».

قالت إديث «لا» ثانيةً بحزم جعلهم جميعاً ينظرون إليها. فأردفت: «يجب أن يتم الأمر بسرعة».

ساد الصمت، ثم قال والدها بصوت متسامح على نحو مفاجئ: «حسناً جداً يا عزيزتي. كما تقولين. أنتما أيها الشابان خططا كما تشاءان».

أومأت إديث، وهمهمت بشيء عن مهمة يجب أن تقوم بها، وخرجت من الغرفة بسرعة. لم يرها ستونر مرة أخرى حتى وقت العشاء في تلك الليلة الذي ترأسه هوراس بوستفيك بصمت ملكي. بعد العشاء عزفت إديث لهم على البيانو، لكنها عزفت بإصرار فجاء عزفها رديئًا ومليئًا بالأخطاء. أعلنت أنها متوعكة قليلاً وذهبت لحجرتها.

جافى ويليام ستونر النوم في حجرة الضيوف تلك الليلة. ظل يحدق في الظلام متعجباً من الغرابة التي ملأت حياته، ولأول مرة، تساءل عن مدى الحكمة فيما كان على وشك أن يقوم به. فكر في إديث وشعر ببعض الطمأنينة. فكر أن جميع الرجال لابد أن شعروا بالتردد والشك نفسهما اللذين انتاباه فجأة.

كان عليه أن يستقل القطار مبكرًا في الصباح التالي ليعود إلى كولومبيا، لذلك كان لديه القليل من الوقت بعد الإفطار. أراد أن يستقل الترام إلى المحطة، لكن السيد بوستفيك أصر على أن يقوم أحد الخدم بتوصيله

بالعربة اللندو. كان على إديث أن تكتب إليه خلال أيام بشأن خطط الزفاف. شكر آل بوستفيك وودعهما، سارا معه وإديث إلى الباب الأمامي. كان قد وصل إلى البوابة الخارجية حين سمع صوت أقدام تركض وراءه. استدار. كانت إديث. وقفت متخشبة وطويلة للغاية، وجهها شاحب، تنظر إليه مباشرة. قالت: «سأحاول أن أكون زوجة صالحة لك يا ويليام. سأحاول».

أدرك أنها المرة الأولى التي يردد فيها أحدهم اسمه منذ أن جاءهم.

iii.

لم ترغب إديث في إقامة حفل الزفاف في سانت لويس لأسباب لم ترغب في إعلانها أيضاً، فأقيم الحفل في كولومبيا، في غرفة الاستقبال الكبيرة بمنزل إيما دارلي، حيث قضيا ساعات لقائهما الأول. كان ذلك في الأسبوع الأول من شباط، في العطلة بين الفصلين الدراسيين. استقل والدا إديث القطار من سانت لويس، وجاء والدا ويليام اللذان لم يقابلا إديث من مزرعتهما بعربة، وصلا ظهيرة يوم السبت، قبل الزفاف بيوم.

أراد ستونر أن يحجز لهما غرفة في فندق، لكنهما فضلا أن يقيما لدى آل فوت، بالرغم من برودة آل فوت وجفائهما بعد أن ترك ويليام العمل عندهما.

قال أبوه بجدية: «لن أعرف ماذا أفعل في الفندق، وباستطاعة آل فوت احتمالنا لليلة واحدة».

استأجر ستونر مساء الحفل عربة بعجلتين واصطحب والديه عبر المدينة إلى منزل إيما دارلي ليقابلا إديث.

استقبلتهما السيدة دارلي عند الباب، رمقت الوالدين بنظرة خاطفة ومحرَجة وقادتهما إلى الصالون. جلس والداه بحرص، كأنهما يخشيان الحركة في ملابسهما الجديدة الجامدة.

غمغمت السيدة دارلي بعد فترة: «لا أعرف ما الذي يؤخر إديث هكذا.. اسمحوا لي». ثم خرجت من الغرفة لتُحضر ابنة أختها.

جاءت إديث بعد وقت طويل، دخلت الصالون ببطء ومُكرَهة، بشيء من التحدي والرهبة. نهضوا لها جميعاً، ولعدة دقائق وقفوا مرتبكين لا يعرفون ماذا يقولون. تقدمت إديث بجمود نحو والدة ستونر أولاً ومدّت لها يدها، ثم صافحت والده.

قال والده برسمية وهو يترك يدها كأنه يخاف أن يكسرها: «كيف حالك؟»

نظرت إديث إليه، حاولت أن تبتسم، وتراجعت للوراء قائلة: «تفضلا بالجلوس».

جلسوا. قال ويليام شيئًا ما، بدا له صوته مكبوحًا. قالت أمه بهدوء ودهشة كأنها تفكر بصوت عالٍ: «يا إلهي، إنها جميلة، أليست كذلك؟» ضحك ويليام قليلاً وقال بهدوء: «نعم يا سيدتي. إنها كذلك».

استطاعوا حينها أن يتحدثوا براحة أكثر، مع ذلك كانوا يرمقون بعضهم بنظرات خاطفة ثم ينظرون بعيداً في أنحاء الغرفة. غمغمت إديث أنها سعيدة بلقائهما، وأنها آسفة لأنها لم تلتقِ بهما من قبل.

قالت: «وحين نستقر... » ثم سكتت، فتساءل ستونر إن كانت ستتابع كلامها. أردفت: «حين نستقر لابد أن تأتيا لزيارتنا».

قالت والدته: «شكرًا جزيلاً لكِ».

استمر حوارهم تقطعه فترات صمت طويلة. تزايد ارتباك إديث، صار أكثر وضوحاً. ومرة أو اثنتين لم تجبِ على سؤال كان موجهًا إليها. نهض ويليام واقفاً، ووقفت والدته أيضاً وهي تنظر حولها بتوتر. لكن

أباه لم يتحرك. نظر مباشرة لإديث وظل يحدق فيها لوقت طويل.

قال أخيراً: «كان ويليام دائماً ولد طيب. أنا سعيد لأنه وجد امرأة طيبة، الرجل في حاجة لامرأة لتكون معه وتريحه. فكوني طيبة مع ويليام. إنه يستحق أن يكون معه المرء طيبًا».

تراجعت إديث برأسها بدهشة عفوية، اتسعت عيناها، وللحظة، ظنها ويليام غاضبة. لكنها لم تكن كذلك. ظلت هي ووالده ينظران لأحدهما الآخر لوقت طويل دون أن يطرف أحد بعينه.

قالت إديث: «سأحاول يا سيد ستونر. سأحاول».

نهض أبوه وانحنى بارتباك وقال: «تأخر الوقت، يجدر بنا أن نتحرك». وسار مع زوجته، عديمة الشكل وداكنة وصغيرة بجانبه، إلى الباب، تاركين إديث وابنهما معاً.

لم توجه له إديث كلامًا. لكنه حين استدار إليها ليلقي عليها تحية المساء ويغادر، وجد في عينيها دموعاً. انحنى ليقبلها وشعر بالدفعة الواهنة لأصابعها النحيلة على ذراعيه.

تسلل ضوء شمس ظهيرة شباط بارداً نقياً من النوافذ الأمامية لمنزل دارلي وسقط على الضيوف الذين يتحركون في الصالون الفسيح. وقف أبواه وحدهما على نحو غريب في أحد الأركان. وقف بجانبهما آل بوستفيك اللذان جاءا منذ ساعة فقط في قطار الصباح، دون أن ينظرا إليهما. تجول جوردون فينش برصانة وقلق كأنه مسؤول عن شيء ما. كان هناك أشخاص قليلون لا يعرفهم ستونر، أصدقاء إديث أو أصدقاء والديها، سمع نفسه يتحدث مع من حوله، وشعر بشفتيه تبتسمان، وسمع الكلمات تأتيه كأنها ملفوفة في طبقات من الملابس الثقيلة.

كان جوردون فينش بجانبه، وجهه متعرق ولامع أعلى بذلته الداكنة.

ابتسم بتوتر قائلاً: «هل أنت مستعد يا بيل؟»

شعر ستونر برأسه يومئ.

قال فينش: «هل لدى المحكوم عليه طلب أخير؟»

ابتسم ستونر وهز رأسه.

خبطه فينش على كتفه قائلاً: «فقط كن بجانبي وافعل ما أمليه عليك، كل شيء تحت السيطرة، ستهبط إديث خلال دقائق قليلة».

تساءل ستونر إن كان سيتذكر ذلك بعد انتهائه؛ بدا كل شيء مغبشاً كأنه يراه من خلال سديم، وسمع نفسه يسأل فينش: «القس، لم أره، أهو هنا؟»

ضحك فينش وهز رأسه وقال شيئًا ما. ثم سرت في الغرفة همهمة. كانت إديث تهبط السلم.

كانت في ثوبها الأبيض مثل ضوء بارد نفذ إلى الغرفة. بدأ ستونر، لا إرادياً، يتوجه إليها لكنه شعر بفينش يمسكه من ذراعه ليمنعه. كانت إديث شاحبة لكنها منحته ابتسامة صغيرة. ثم وقفت بجانبه وسارا معاً. وقفا أمام رجل غريب بياقة مستديرة، قصيراً بديناً وله وجه مبهم. كان يردد كلمات وينظر إلى كتاب أبيض في يديه. سمع ويليام نفسه يرد على الصمت، وشعر بإديث ترتعش بجانبه.

ثم ساد صمت طويل، وهمهمة أخرى، وصوت ضحك. قال أحد ما: «قبّل العروس!» شعر بنفسه يستدير، كان فينش يبتسم له مكشرًا. ابتسم لإديث التي كان وجهها يسبح أمامه، وقبّلها، كانت شفتاها جافتين كشفتيه.

شعر بيديه تنتفخ، كان الناس يخبطونه على ظهره ويضحكون، كانت الغرفة تعجّ بالضيوف، ووقف ناس جدد عند الباب. ظهر إناء زجاجي كبير يمتلئ بشراب البنش على مائدة طويلة في أحد أطراف الصالون. كان هناك كعكة. أحدهم أمسك بيده ويد إديث معاً، وكانت هناك سكين، فهم أن عليه أن يمسك بيدها وهي تقطع الكعكة. ثم انفصل عن إديث ولم يستطع رؤيتها في حشود الضيوف. كان يتحدث ويضحك ويومئ برأسه ويجول بنظره في الغرفة باحثاً عنها. رأى أبويه يقفان في الركن نفسه من الغرفة لم يتحركا منه. كانت أمه تبتسم ويد أبوه على كتفيها على نحو أخرق. أراد أن يذهب إليهما لكنه لم يستطع الانفصال عمن كان يتحدث معه.

ثم رأى إديث. كانت مع أمها وأبيها وخالتها. وكان أبوها، قاطباً حاجبيه قليلاً يمسح الغرفة بناظريه كأنه نافذ الصبر، وكانت أمها تبكي، عيناها محمرتان ومنتفختان أعلى وجنتيها الممتلئتين وفمها ملوي لأسفل مثل الأطفال. أحاطاها إديث والسيدة دارلي بذراعيهما، وكانت السيدة دارلي تتحدث إليها، بسرعة، كأنها تشرح لها شيئًا. لكن حتى عبر الغرفة استطاع ويليام أن يرى أن إديث كانت صامتة، كان وجهها كالقناع، أبيض وخالٍ من التعبير. بعد دقائق، قادوا السيدة بوستفيك خارج الغرفة، ولم يرَ ويليام إديث مرة أخرى حتى انتهى الحفل، حين همس جوردون فينش بشيء ما في أذنه، وقاده إلى باب جانبي يؤدي إلى حديقة صغيرة ودفع به إلى الخارج. كانت إديث تنتظره هناك، ملفعة في البرد، ياقة ثوبها مرفوعة على وجهها بحيث لم يستطع رؤيته. كان جوردون فينش يضحك ويردد كلمات لم يستطع ويليام فهمها، ويدفع بهما في ممشى إلى الشارع حيث كانت عربة مزينة في انتظارهما لتقلّهما إلى المحطة. لم يدرك ويليام ستونر أن الأمر كله انتهى وأن لديه الآن زوجة إلا وهما في القطار المتجه إلى سانت لويس حيث سيقضيان أسبوع العسل.

خاضا تجربة الزواج ببراءة، لكن براءة كل منهما كانت مختلفة تماماً عن الآخر. كان كلاهما معدوم الخبرة وواعيًا بعدم خبرته. لكن نظراً لنشأة ويليام في مزرعة، كان يعي طرق الحياة الطبيعية بشيء من الاعتيادية، بينما كانت تلك الطرق بالنسبة لإديث غامضة ومفاجئة، لا تعرف شيئًا عنها، وكان شيء ما بداخلها لا يرغب في معرفتها.

وهكذا، كآخرين كثيرين، كان شهر العسل خائباً، مع ذلك لم يعترفا بهذا لنفسيهما، ولم يدركا مغزى تلك الخيبة إلا بعد ذلك بوقت طويل.

وصلا سانت لويس في وقت متأخر من ليل يوم الأحد. بدت إديث حيوية ومرحة تقريباً في القطار، وسط الغرباء الذين كانوا يحدقون فيهما بفضول واستحسان، ضحكا وتشابكا الأيدي وتحدثا عن الأيام القادمة. ما إن وصلا المدينة، وفيما يبحث ويليام عن عربة لتقلهما إلى الفندق، حتى تحول مرح إديث إلى جزع.

حملها ضاحكاً عند مدخل فندق الإمبسادور، مبنى كبير من الحجر البني. كانت ردهة الفندق خالية تقريباً، معتمة وعميقة مثل المغارة. هدأت إديث فجأة حين دخلا، وسارت بجانبه مرتبكة على الأرضية الفسيحة إلى مكتب الاستقبال. وحين وصلا غرفتهما كانت تشعر بإعياء، كانت ترتعش كأنها محمومة وشفتاها زرقاوان في وجهها الأبيض كالطباشير. أراد ويليام أن يأتي لها بطبيب، لكنها أكدت له أنها مجهدة فقط ولا تحتاج إلى شيء سوى الراحة. تحدثا برصانة عن ضغط اليوم، ألمحت إديث إلى حساسية ما كانت تزعجها من وقت لآخر، غمغمت دون أن تنظر إليه وبصوت بارد بلا نغمات أنها أرادت أن تكون ساعاتهما الأولى معاً كاملة لا ينقصها شيء.

وقال ويليام: «إنها كذلك، وستكون كذلك. يجب أن ترتاحي. سنبدأ حياتنا الزوجية غداً».

وكالأزواج الجدد الذين سمع عنهم من قبل وسخر منهم في وقت ما، قضى ليلة زفافه بعيدًا عن زوجته. تكوّر جسده الطويل بتخشب وأرق على أريكة قصيرة دون أن يغمض له جفن طوال الليل.

استيقظ مبكراً. كان جناحهما، الذي حجزه لهما والدا إديث كهدية زواج، في الدور العاشر، ويطل على المدينة. نادى على إديث برقة وخلال دقائق قليلة خرجت من غرفة النوم تربط حزام روب قميص نومها، وتتثاءب بنعاس، وتبتسم قليلاً. شعر ويليام بحبه لها يغص حلقه، أخذها من يدها ووقفا أمام نافذة غرفة الجلوس، ينظران لأسفل. مرت سيارات ومشاة وعربات في الشارع الضيق أسفلهما. بديا لنفسيهما بعيدين ومعزولين تماماً عن الإنسانية وأنشطتها. بعيداً جداً، خلف مكعبات المباني المبنية من الطوب والحجر الأحمر، جرى نهر المسيسيبي في امتداده البني المزرق تحت شمس الصباح، بدت القوارب والقاطرات التي تروح وتجيء على منحنياته الراسخة كالدمى، برغم كم الدخان الرمادي الهائل المنبعث من مداخنها في هواء الشتاء. غمره شعور بالهدوء، أحاط زوجته بذراعه واحتضنها برقة، وحدّق كلاهما في العالم الذي بدا مليء بالوعود والمغامرات الوادعة.

تناولا فطورًا مبكراً. بدت إديث منتعشة، معافاة تماماً من إعياء الليلة الماضية، استعادت شيئًا من مرحها مجدداً، وكانت تنظر إلى ويليام بحميمية ودفء خمّن أنهما عن امتنان وحب. لم يتحدثا عن الليلة الماضية، وكانت إديث من حين لآخر تنظر إلى خاتمها الجديد وتعدّله في إصبعها.

تدثرا جيداً ضد البرد وسارا في شوارع سانت لويس التي كانت آخذة في الازدحام؛ نظرا إلى البضائع في نوافذ العرض وتحدثا عن المستقبل وفكّرا برزانة في كيف سيملآنه.

بدأ ويليام يستعيد الأريحية والطلاقة اللتين اكتشفهما أثناء تعارفه

الأولي بهذه المرأة التي صارت الآن زوجته. تعلقت إديث بذراعه وبدت مهتمة بما يقوله على نحو لم تكنه من قبل قط. في الضحى تناولا القهوة في محل صغير دافئ وهما يراقبان هرولة المارة في البرد. وجدا عربة واستقلاها إلى متحف الفنون. سارا متشابكي الذراعين في القاعات العالية، في وهج الضوء الثري المنعكس على اللوحات. في هدأة الدفء والهواء المشوب بأبدية اللوحات والتماثيل القديمة، شعر ويليام ستونر بفيض من العواطف تجاه الفتاة الطويلة الرقيقة التي تسير بجانبه، وبشغف ينمو بداخله بهدوء، شغف دافئ وحسّي ووقور، مثل الألوان المنبعثة من الجدران المحيطة به.

حين غادرا المتحف عند نهاية الظهيرة، كانت السماء قد تلبدت بالسحب وبدأت تمطر رذاذاً خفيفاً. لكن ويليام ستونر كان يحمل معه الدفء الذي استقاه من المتحف. عادا إلى الفندق بعد الغروب بوقت قصير، ذهبت إديث إلى غرفة النوم لتستريح، واتصل ويليام بالاستقبال ليطلب عشاءً خفيفاً في غرفتهما. وبوحي فجائي هبط بنفسه إلى الصالون في الأسفل ليطلب إرسال زجاجة شمبانيا في الثلج خلال ساعة. أومأ الساقي بكآبة وأخبره إنها لن تكون من النوع الجيد. إذ سيُعمّم منع الخمور ببداية تموز على المستوى الوطني، وقد حُظِر بالفعل تقطير الكحوليات أو صنع البيرة. ولا يوجد في أقبية الفندق أكثر من خمس عشرة زجاجة شمبانيا من أي نوع، وسيكون عليه أن يدفع مقابلها أكثر مما تستحق. ابتسم ستونر وأخبره أن لا بأس.

شربت إديث نبيذًا من قبل في مناسبات احتفالية قليلة في منزل والديها، لكنها لم تتذوق الشمبانيا قط. ظلت ترمق الزجاجة الواقفة في دلو الثلج بقلق، وهما يتناولان العشاء على طاولة مربعة صغيرة في غرفة الجلوس. توهجت شمعتان بيضاوان على شمعدانين من النحاس الأصلي في وجه الظلام على نحو غير متكافئ. كان ويليام قد أطفأ الأضواء الأخرى، وكانت الشعلتان تخفقان أمامهما وهما يتحدثان، وسقط ضوؤهما على

منحنى الزجاجة السوداء الناعمة ولمع على الثلج المحيط بها. كانا قلقين ومرحين بحذَر.

نزع سدادة الشمبانيا بغشامة، فقفزت إديث إثر الدوي العالي. اندفعت الرغوة البيضاء من عنق الزجاجة وبللت يده. ضحكا لخراقته. شربا كأساً، وتظاهرت إديث بالانتشاء. شربا كأساً أخرى. ظن ويليام أنه رآها يسيطر عليها الاسترخاء، ويُغرق وجهها الهدوء، ويُظلم التأمل عينيها. نهض وذهب خلفها حيث تجلس إلى الطاولة الصغيرة. وضع يده على كتفيها، تعجب من سُمك وغلاظة أصابعه على رقة لحمها وعظامها. تجمدت تحت لمسته، لامست أصابعه جانبي عنقها النحيل مداعباً برقة منابت الشعر الأصهب الناعم، تشنّج عنقها، نبضت أوتاره بتوتر. وضع يديه على ذراعيها ورفعهما برقة، فنهضت من مقعدها واستدارت تواجهه. نظرت إليه عيناها الواسعتان الباهتتان وقد صارتا شفافتين بلا تعبير في ضوء الشموع. شعر بقرب غير ودي منها، وأشفق على ضعفها. غصت الرغبة حلقه فلم يتكلم. جذبها قليلاً نحو غرفة النوم، شاعراً بمقاومة سريعة وقوية في جسدها، وبرغبة في تنحية تلك المقاومة جانباً في الوقت نفسه.

ترك باب غرفة النوم المظلمة مفتوحاً. توهجت الشمعتان بوهن في الظلام. همهم بكلمات ليطمئنها ويهدئها، لكن كلماته انحشرت حتى لم يسعه سماع ما يقوله. وضع يديه على جسدها وتحسس بأصابعه مفاتيحه التي ستنفتح له. دفعته عنها ببرود، رأى في الظلام عينيها مغلقتين وشفتيها مزمومتين. أشاحت بوجهها عنه، وبحركة سريعة خلعت ثوبها، فشعر بالثوب يتكور عند قدميها. ذراعاها وكتفاها عاريان. ارتعشت كأنها تشعر ببرد وقالت بصوت بارد: «اذهب إلى الغرفة الأخرى. سأجهز خلال دقيقة». لمس ذراعيها وقبّل كتفها، لكنها لم تستدر له.

وقف في غرفة الجلوس يحدق في الشمعتين تخفقان فوق بقايا عشائهما، بينهما زجاجة الشمبانيا وما زال نصفها ممتلئاً. صب قليلاً من السائل في كأس وتذوقها، صارت دافئة وحلوة المذاق.

حين عاد، كانت إديث في الفراش تحت الأغطية حتى ذقنها، وجهها لأعلى، عيناها مغلقتان، وتقطيبة رفيعة تغضّن جبينها. خلع ملابسه ورقد بجانبها بهدوء كما لو كانت نائمة. ظل راقدًا لعدة دقائق برغبته التي صارت شيئاً لا شخصياً، يخصّه هو فقط، تحدث لإديث كما لو ليجد مهربًا مما يفكر فيه. لم تجبه. وضع يده عليها وشعر من فوق النسيج الخفيف لقميص نومها باللحم الذي طالما تاق إليه، حرّك يده عليها، لم تتحرك، احتدت تقطيبتها. تحدث مرة أخرى مرددًا اسمها في الصمت، ثم رفع جسده عليها، برقة وارتباك. حين لمس نعومة فخذيها أشاحت برأسها بعيداً بحدة ورفعت ذراعيها لتغطي عينيها. ولم يصدر عنها أي صوت.

بعد ذلك رقد بجانبها وتحدث معها في هدوء عن حبه لها. حينذاك فتحت عينيها وحدقتا فيه من الظل. كان وجهها خالياً من أي تعبير. طرحت عنها الأغطية فجأة وسارت بخفة إلى الحمام. رأى نور الحمام يُضاء وسمعها تتقيأ بصوت عالٍ وبألم. نادى عليها وسار عبر الغرفة، وجد باب الحمام موصداً، نادى عليها ثانيةً ولم تجبه أيضاً. عاد إلى الفراش وانتظرها. بعد عدة دقائق من الصمت انطفأ نور الحمام وانفتح الباب. خرجت إديث وسارت بجمود إلى الفراش.

قالت: «إنها الشمبانيا. لم يكن عليّ أن أشرب الكأس الثانية».

شدّت عليها الأغطية واستدارت مبتعدة عنه، وخلال دقائق قليلة كان تنفسها منتظماً وثقيلاً بالنوم.

iv.

عادا إلى كولومبيا قبل موعد عودتهما المخطط له بيومين، كانا قلقين ومجهدين من العزلة، كأنهما كانا معاً في سجن. قالت إن عليهما أن يعودا إلى كولومبيا بالفعل، ليبدأ ستونر التحضير لعمله وتبدأ هي بالاستقرار في شقتهما الجديدة. وافق على الفور وقال لنفسه إن الأمور ستتحسن ما إن يستقرا في مكان خاص بهما، بين أشخاص يعرفونهم وفي محيط مألوف. حزما أمتعتهما في تلك الظهيرة، واستقلا القطار إلى كولومبيا في المساء.

كان ستونر قد عثر، في الأيام المتسارعة الغامضة التي سبقت زواجهما، على شقة خالية في الطابق الثاني من منزل قديم ذي خمسة طوابق، يشبه صومعة الغلال، على بعد خمس بنايات من الجامعة. كانت معتمة وخالية، بغرفة نوم صغيرة ومطبخ صغير للغاية، وغرفة جلوس فسيحة بنوافذ عالية، سكنها من قبل فنان، أستاذ في الجامعة، ولم يكن نظيفاً للغاية، إذ كانت الأرضية الداكنة من ألواح الخشب العريضة، ملطخة بألوان لامعة من الأصفر والأحمر والأزرق، والجدران مبقعة بالطلاء والقذارات. رأى ستونر أن المكان رومانسي ورحب، وقرر أنه مكان جيد ليبدأ فيه حياة جديدة.

انتقلت إديث إلى الشقة كأنها تغزو أرضًا للعدو. وبالرغم من عدم اعتيادها المجهود البدني، أزالت معظم الطلاء من على الأرضية والجدران، ونظّفت القذارات التي كانت تتخيلها مختبئة لها في كل مكان. تقرّحت يداها وبدا على وجهها الإجهاد في هالتين داكنتين أسفل عينيها.

حين حاول ستونر مساعدتها، زمّت شفتيها وهزّت رأسها بعناد معلنة أنه في حاجة للوقت لدراسته، وأن هذه مهمتها هي. وحين ساعدها رغمًا عنها تجهّمت وشعرت بالإهانة. تراجع عن مساعدته لها محتارًا بلا حول ولا قوة، وراقبها بيأس وهي تواصل بحماقة تنظيف الأرضيات والجدران اللامعة، وخياطة الستائر وتعليقها بغير تساوٍ على النوافذ العالية، وتصليح الأثاث المستعمل الذي بدأ تكديسه وطلائه، ثم إعادة طلائه. بالرغم من عدم كفاءتها فقد كانت تعمل بهمة وصمت. فكان لدى عودته من الجامعة في الظهيرة يجدها مرهقة دائماً. كانت تجر نفسها لتحضير العشاء، تأكل لقيمات قليلة، ثم تختفي وهي تهمهم في غرفة النوم لتنام كالمخدّرة حتى الصباح التالي بعد مغادرة ويليام إلى الجامعة.

أدرك خلال شهر أن زواجه فاشل، وتوقف خلال سنة عن أن يتمني تحسُّن الأحوال. تعلم الصمت ولم يصرّ على حبه. كانت إذا تحدث معها أو لامسها بحنان تنأى بنفسها عنه وتنغلق على ذاتها وتبيت صامتة، متسمرة، وتظل لأيام بعدها تدفع بنفسها إلى هاوية الإجهاد. كانا يتشاركان الفراشٍ نفسه عن عنادٍ صامت يتسم به كليهما، فكانت أحياناً، وهي نائمة ليلاً، تقترب منه دون أن تعي، فكان تصميمه وعلمه بالأمر حينذاك يتحطمان أحياناً أمام حبه لها فيرفع نفسه عليها، وتفيق من نومها وتتشنج وتتخشب، وتحرّك رأسها من جانب لآخر في إيماءة مألوفة ثم تدفنها في وسادتها كأنما لتتحمل الانتهاك. في تلك الأحيان، كان ستونر يمارس حبه بسرعة ما أمكنه، وهو كاره نفسه لتسرعها، ونادمًا على رغبته. في أحيان أكثر ندرة كانت تبقى شبه مخدرة من النوم وغير متفاعلة، تغمغم بنعاس كامل بكلمات لا يعرف ستونر إن كانت تنم عن الاعتراض أم الدهشة. بات يتطلع لتلك اللحظات النادرة غير المتوقعة، لأنه بذلك الرضوخ المخدّر الناعس كان يمكنه أن يوهم نفسه بعثوره على استجابة ما.

ولم يسعه التحدث معها عما كان يعتبره سعادتها، فحين حاول ذلك،

اعتبرت أن ما قاله هو رأيه فيها وفي كفاءتها، فابتعدت عنه بعبوس كما تفعل بعد ممارسة الحب. كان يلوم حماقته لانسحابها ويحمل نفسه مسؤولية ما تشعر به.

بقسوة هادئة ناجمة عن يأسه، جرّب طرق صغيرة لإسعادها. قدم لها هدايا تلقتها بلامبالاة، وكانت أحياناً تعلق على تكلفتها، أخذها في تمشيات ورحلات خلوية إلى الريف المليء بالغابات على أطراف كولومبيا، لكنها كانت تتعب سريعا وأحياناً يصيبها الإعياء، تحدث معها عن عمله كما كان يفعل أيام تعارفهما، لكن اهتمامها بما يقول صار متكلفاً ومسايراً.

أخيراً، برغم علمه بخجلها، أصر بأقصى ما استطاع من رقة أن يبدآ في استقبال الضيوف. أقاما حفلة شاي غير رسمية لعدد قليل من المعيدين ومساعدي الأساتذة الشباب في القسم، وأقاما كذلك عدة حفلات عشاء صغيرة. لم يبدُ عليها قط إن كانت سعيدة أم لا، لكنها كانت تحضّر لتلك المناسبات بحمية وانهماك يجعلانها، وقت مجيء الضيوف، في حالة شبه هستيرية من التعب والإجهاد، بالرغم من عدم وضوح ذلك سوى لويليام فقط.

كانت مضيفة جيدة، تتحدث مع ضيوفها بأريحية وحيوية يجعلانها تبدو غريبة تماماً في عيني ويليام، وتتحدث معه في حضور الضيوف بحميمية وود لطالما أدهشاه. كانت تدعوه ويلي، الأمر الذي مسّ شغاف قلبه على نحو غريب، وكانت أحياناً تريح يدًا رقيقة على كتفه.

لكن بعد انصراف الضيوف، يسقط القناع ويكشف عن انهيارها. تتحدث بمرارة عن الضيوف الذين غادروا، متخيلة إهانات وإزدراءات مبهمة، وكانت تحيل هذه الأفكار بهدوء ويأس إلى فشلها الذريع. تجلس ساكنة وبائسة في الفوضى التي خلّفها الضيوف، ترفض مساعدة ويليام

لها على النهوض، تجيبه باقتضاب وشرود، وبصوت بارد ورتيب.

سقط القناع مرة واحدة فقط في حضور ضيوف.

بعد عدة شهور من زواجهما، خطب جوردون فينش فتاة قابلها مصادفة في نيويورك، وكان والداها يقيمان في كولومبيا. كان قد نال أيضاً منصباً ثابتاً كنائب العميد، وكان من المعروف ضمنياً أنه من أوائل المرشحين لمنصب عميد الكلية بعد وفاة جوزيه كلاريمونت. على نحو متأخر قليلاً، دعا ستونر فينش وخطيبته على العشاء احتفالاً بمنصبه الجديد وبخطبتهما.

وصلا قبل الغسق بقليل ذات أمسية دافئة في نهاية شهر أيار، في سيارة رحلات سوداء لامعة جديدة أطلقت سلسلة من القرقعات فيما يركنها فينش ببراعة على الطريق الحجري أمام منزل ستونر، ظل يطلق البوق ويلوح بمرح حتى هبط ويليام وإديث إلى أسفل. جلست بجانبه فتاة سمراء صغيرة بوجه مستدير بسّام.

قدمها لهما باسم كارولين فينجايت، وتحدث الأربعة قليلاً فيما يساعدها فينش على الترجل من السيارة.

سأل فينش وهو يخبط مقدمة السيارة بقبضته: «ما رأيك؟ جميلة، أليست كذلك؟ إنها لوالد كارولين. أفكر في شراء واحدة، لذا...» سكت وضاقت عينيه وهو ينظر إلى السيارة بتأمل ورصانة كما لو كانت المستقبل.

ثم عاد حيوياً ومرحاً مرة أخرى. وضع سبابته على شفتيه في سرية ساخرة وتلفت حوله ثم أخذ كيس ورقي بني ضخم من المقعد الأمامي للسيارة وقال: «خمر.. وصل من السفينة توًا.. احمِ ظهري يا صديق، ربما أمكننا الوصول إلى المنزل».

سار العشاء على نحو جيد، كان فينش دمثاً كما لم يره ستونر منذ سنوات. فكر ستونر في جلساتهم هو وفينش وديف ماسترس بعد الدراسة في عصائر أيام الجمعة البعيدة تلك، يحتسون الجعة ويتحدثون. تكلمت كارولاين قليلاً، وكانت تبتسم بسعادة لنكات فينش وغمزاته. داهمت ستونر نوبة حقد تقريباً حين أدرك أن فينش مغرم بتلك الفتاة السمراء الحلوة، وأن صمتها ينم عن حب جَذِل له.

حتى إديث فقدت بعض من إنهاكها وتوترها. تبتسم براحة وتضحك بعفوية. كان فينش طرباً وتوافق مع إديث على نحو ما كان ستونر يعرف أنه هو، زوجها، لن يستطيعه أبداً، وبدت إديث سعيدة كما لم تكن منذ شهور.

بعد العشاء، أخرج فينش الكيس الورقي البني من صندوق الثلج حيث وضعه من قبل ليبرّده، وسحب منه عدة زجاجات بنية. كانت بيرة منزلية الصنع يصنعها هو بسرية واحتفالية شديدتين في خزانة الملابس بشقة العزوبية التي يقطنها.

«لا أجد مكانًا لملابسي، لكن على الرجل أن يراعي أولوياته».

صب البيرة في الكؤوس بحرص شديد، وعيناه مضمومتان، والضوء يلمع على جلده الناعم وشعره الأشقر الخفيف مثل كيميائي يعاير مادة نادرة. قال: «يجب الحرص مع هذا الشيء، ثمة رواسب كثيرة في القاع، وإن صببتها بسرعة سينزل منها في الكأس».

شرب كل منهم كأس بيرة وأثنوا على فينش لطعمها الجيد. كانت جيدة حقاً، على نحو مدهش، جافة وخفيفة ولونها جيد. حتى إديث أنهت كأسها وأخذت أخرى.

ثملوا قليلاً، ضحكوا بغموض وعاطفية، كان كل منهم يرى

الآخرين كأنه يراهم لأول مرة.

قال ستونر وهو يرفع يده بكأسه إلى الضوء: «لا أعرف كيف كان سيرى ديف هذه البيرة».

قال فينش: «ديف؟»

«ديف ماسترس. أتذكر كم كان يحب البيرة؟»

قال فينش: «ديف ماسترس. صديقي القديم ديف. ياللعار!»

قالت إديث وهي تبتسم بتشوش: «ماسترس، أليس هو صديقك الذي قُتل في الحرب؟»

قال ستونر والحزن القديم يعاوده: «نعم. هو» لكنه ابتسم لإديث.

قال فينش: «ديف الطيب يا إدي، اعتدنا أنا وزوجك وديف أن نُجلي دماغنا حقاً.. قبل وقت طويل من معرفته بك بالطبع، أيا ديف الطيب...»

ابتسموا لذكرى ديف ماسترس.

سألت إديث: «كان صديقًا مقربًا لك؟»

أومأ ستونر قائلاً: «كان صديقًا قريبًا».

قال فينش: «شاتو تيري». وتجرع كأسه كله دفعة واحدة، ثم أردف: «الحرب جحيم». ثم هزّ رأسه وتابع: «لكن ديف.. لعله الآن في مكان ما يضحك علينا. لم يكن ليشعر بالأسى لنفسه. لا أعرف هل تمكن من رؤية فرنسا أم لا؟»

قال ستونر: «لا أعرف. سرعان ما قُتل بعد وصوله».

«عار عليه إن لم يكن قد رآها، لطالما ظننت أن هذا أحد الأسباب الرئيسية لانضمامه للجيش، ليرى أوروبا».

قالت إديث بوضوح: «أوروبا».

قال فينش: «نعم، لم يكن ديف الطيب يرغب في أشياء كثيرة، لكنه تمنّى رؤية أوروبا قبل أن يموت».

قالت إديث: «كنت سأذهب إلى أوروبا ذات مرة». كانت تبتسم وعيناها تلتمعان رغمًا عنها. «هل تذكر يا ويلي، كنت سأذهب مع خالتي إيما قبل أن نتزوج مباشرة. أتذكر؟»

قال ستونر: «أذكر».

ضحكت بحدة وهزت رأسها كأنها متحيّرة، وقالت: «يبدو الأمر كأنه منذ زمن طويل، لكنه ليس كذلك. كم مضى على ذلك ويلي؟»

قال ستونر: «إديث...»

«لنرَ. كنا سنسافر في نيسان. مضى عام. والآن نحن في أيار. كنت سأكون...» اغرورقت عيناها بالدموع فجأة، مع ذلك ظلت تبتسم بألق ثابت. أردفت: «الآن لن أذهب أبداً، على ما أظن، خالتي إيما ستموت قريباً، ولن تسنح لي الفرصة أبداً لـ...»

ثم، وما انفكت الابتسامة تشد شفتيها والدموع تسيل من عينيها، أجهشت بالبكاء. نهض ستونر وفينش من جلستهما.

قال ستونر بضعف: «إديث».

«أوه. دعني وشأني!» وبحركة غريبة ومفاجئة وقفت منتصبة أمامهم، عيناها مغلقتان بقوة ويداها منقبضتان إلى جانبيها وقالت:

«كلكم. دعوني وشأني فقط!» ثم استدارت وسارت تترنح إلى غرفة النوم، وصفقت الباب وراءها.

لم يتحرك أحد منهم لدقيقة، سمعوا صوت بكائها المكتوم. قال ستونر: «يجب أن تعذراها، لقد كانت مرهقة وليست على ما يرام. الإنهاك..»

قال فينش: «بالطبع، أعرف ما تعنيه يا بيل». وضحك ضحكة جوفاء. «النساء وأمزجتهن. أظن أنني أنا نفسي سأعتاد الأمر قريباً جداً». ونظر إلى كارولاين وضحك ثانيةً، ثم أردف: «حسناً، لا نريد أن نزعج إدي الآن. اشكرها فقط نيابة عنّا، وقل لها إنها كانت وجبة رائعة، ويجب عليكما أنتما الاثنان زيارتنا في منزلنا بعد أن نستقر».

قال ستونر: «شكرًا جوردون. سأخبرها».

قال فينش وهو يلكز ستونر في ذراعه: «ولا تقلق. تلك الأشياء تحدث».

بعد انصراف جوردون وكارولاين، وبعد أن سمع ضجيج وقرقعة السيارة الجديدة تبتعد في هدأة الليل. وقف ويليام ستونر في منتصف غرفة الجلوس ينصت لبكاء إديث الجاف المنتظم. كان صوت بارداً وخالٍ من العاطفة على نحو مريب، واستمر كأنه لن يتوقف أبداً. أراد أن يطمئنها ويواسيها لكنه لم يعرف ماذا يقول. فوقف يستمع، وبعد برهة أدرك أنه لم يسمع إديث تبكي من قبل قط.

بعد حفلة العشاء الكارثية مع جوردون فينش وكارولاين فينجايت، بدت إديث راضية تقريباً، أكثر هدوءًا مما كانت عليه منذ أن تزوجا، لكنها لم ترغب في دعوة أحد ولم ترحب كثيرًا بفكرة الخروج. كان ستونر يقوم بالتسوق كله تقريباً بقوائم تسوق تكتبها له بخط عسير

وطفولي على نحو لافت للنظر في ورقات زرقاء صغيرة. كانت تبدو أسعد حين تختلي بنفسها، تجلس بالساعات تعمل بالإبرة أو في تطريز المفارش والمناديل، وعلى شفتيها ابتسامة خفيفة متحفظة. بدأت إيما دارلي تزورها أكثر، وكان ويليام غالباً ما يجدهما معاً لدى عودته من الجامعة بعد الظهر، تحتسيان الشاي وتدردشان بصوت خافت للغاية حتى ليُعَد همساً. كانتا تحييانه بأدب، لكنه كان يعرف أنهما تنظران إليه بندم، نادراً ما كانت السيدة دارلي تبقى بعد عودته لأكثر من دقيقة أو دقيقتين. تعلّم أن يتخذ موقعًا متواريًا عن الأنظار وحساسًا تجاه العالم الذي راحت تعيش فيه.

في صيف ١٩٢٠، قضى أسبوعاً عند والديه فيما كانت تزور أهلها في سانت لويس. لم يكن قد رأى أمه وأبيه منذ حفل الزفاف.

عمل في الأرض ليوم أو اثنين مساعداً أبيه والزنجي الأجير. لكن مرونة الثرى الرطب الدافئ تحت قدميه ورائحة الأرض المحروثة لتوها في أنفه لم تحرك بداخله أية مشاعر عن العودة أو الألفة. عاد إلى كولومبيا وقضى بقية الصيف يعد لمنهج جديد عليه أن يدرّسه في العام الأكاديمي القادم. يقضي معظم وقته في المكتبة، وأحياناً يعود للبيت ولإديث في وقت متأخر من المساء، يسير في العبير الحلو الثقيل المنبعث من شجيرات زهر العسل لينتشر في الهواء الدافئ وبين الأوراق الرقيقة لأشجار القرانيا التي تخشخش وتتحول إلى ما يشبه الأشباح في الظلام. عيناه مجهدتان من التركيز في النصوص القاتمة، ينوء ذهنه بما ظل يمتصه، وأصابعه مخدّرة بما تبقى بها من لمس الجلد العتيق والسبورة والورق، لكنه كان منفتحاً للعالم الذي سار خلاله لدقائق، ووجد فيه بعض السرور.

ظهر القليل من الوجوه الجديدة في اجتماعات القسم، واختفت بعض الوجوه المألوفة، وواصل آرشر سلوان انهياره الذي لاحظه

ستونر أثناء الحرب. صارت يداه ترتعشان ولم يعد بمقدوره التركيز فيما يقوله. واصل القسم أعماله بقوة الدفع التي اكتسبها من أعرافه ومن الواقع المجرد لوجوده.

واصل ستونر تدريسه بحدة وضراوة هابها بعض الأعضاء الجدد في القسم وتسببت في إثارة قلق زملائه الذين يعرفونه منذ وقت أطول. بات وجهه منهكاً، وفقد وزنه وزاد انحناء كتفيه. واتته الفرصة في الفصل الدراسي الثاني من ذاك العام لتحمل أعباء إضافية في التدريس بأجر إضافي، فانتهزها، ومقابل أجر إضافي أيضاً درّس في المدرسة الصيفية الجديدة ذاك العام. كان لديه خطة مبهمة لادخار مال كافٍ للسفر للخارج، ليجعل إديث ترى أوروبا التي ضحت بها من أجله.

في صيف ١٩٢١، وهو يبحث عن مرجع لقصيدة لاتينية كان قد نسيها، ألقى نظرة عابرة على رسالة الدكتوراه التي قدمها للنقاش منذ ثلاثة أعوام. قرأ مقتطفات منها ورآها معقولة. فكر متخوفاً قليلاً من رأيه أن يعيد العمل عليها وينشرها في كتاب. وبالرغم من انشغاله بالتدريس طوال الصيف، تدبر أن يعيد قراءة معظم النصوص التي أوردها فيها وأن يوسع نطاق بحثه. بنهاية كانون الثاني كان قد تأكد من إمكانية نشر الكتاب، ومع بداية الربيع كان قد قطع شوطاً طويلاً حتى أمكنه كتابة أولى الصفحات التجريبية.

وكان في ربيع ذاك العام أن أخبرته إديث بهدوء وشبه لامبالاة أنها قررت إنجاب طفل.

جاء القرار مفاجئًا ودون سبب واضح، لذلك كانت تتحدث بدهشة حين أعلنت ذلك لويليام ذات صباح وهما يتناولان الإفطار وقبل موعد انصرافه بدقائق قليلة، كما لو كانت قد اكتشفت ذلك لتوها.

قال: «ماذا؟ ماذا قلتِ؟»

قالت وهي تقضم قطعة توست: «أريد طفلاً. أظن أنني أريد طفلاً». ومسحت شفتيها بطرف منديل وابتسمت بثبات. ثم سألته: «ألا تظن أن علينا أن ننجب؟ نحن متزوجان منذ ثلاث سنوات تقريباً».

قال وهو يضع فنجانه على طبقه بحرص شديد: «بالطبع». ودون أن ينظر إليها أكمل: «هل أنتِ متأكدة؟ لم نتحدث في الأمر من قبل، لا أريدك أن...»

«أوه، نعم. متأكدة تماماً، أعتقد أن علينا أن ننجب طفلاً».

نظر في ساعته وقال: «تأخرت، كنت أتمنى لو كان لدينا متسع من الوقت لنتحدث، أريدك أن تتأكدي».

بدت تغضينة خفيفة بين عينيها وقالت: «أخبرتك أنني متأكدة. ألا تريد أنت طفلاً؟ لماذا تظل تسألني؟ لا أريد أن أتحدث عن الأمر ثانيةً».

قال: «وهو كذلك». وجلس ينظر إليها لدقيقة، ثم قال: «يجب أن أذهب». لكنه لم يتحرك. ووضع يده بارتباك على أصابعها الطويلة المرتاحة على مفرش المائدة وأبقاها حتى أبعدت هي يدها. نهض وسار بجانبها متمهلاً، وبخجل تقريباً، ثم لملم كتبه وأوراقه. قامت، كما تفعل دائماً، إلى غرفة الجلوس لتودعه. قبلها على خدها.. شيء لم يفعله منذ وقت طويل.

لدى الباب استدار وقال لها: «أنا... أنا سعيد لإنكِ تريدين طفلاً يا إديث، أعرف أن زواجنا قد خيّب آمالك بطريقة ما، أرجو أن يغير هذا الأمر علاقتنا».

قالت: «نعم. ستتأخر على المحاضرة. الأفضل أن تسرع».

ظلت، بعد أن غادر، واقفة في وسط الغرفة لدقائق، تحدق في الباب

المغلق كأنها تحاول تذكر شيء ما. ثم جالت بقلق في أرجاء الشقة، من مكان إلى آخر، تتحرك في ثيابها كأنها لا تطيق حفيفها ولمسها لجسدها. حلّت أزرار روبها المنزلي الرمادي الضيق المصنوع من الحرير الرقيق، وتركته يسقط على الأرض. أحاطت صدرها بذراعيها وعانقت نفسها، فركت لحم ذراعيها من أعلى من تحت قميص نومها الفانيلا الخفيف. توقفت ثانيةً بلا حراك، ثم توجهت صوب غرفة النوم الصغيرة وفتحت باب خزانة الملابس الذي يحمل من الداخل مرآة طويلة. عدلت وضع المرآة من الضوء ووقفت قبالتها، تتفحص القامة الطويلة النحيفة في قميص النوم الأزرق المفرود. دون أن يحيد نظرها عن المرآة، حلّت أزرار قميص النوم وشدته من فوق رأسها ووقفت عارية في ضوء الصباح، كوّمت قميص النوم وألقت به في خزانة الملابس، ثم دارت أمام المرآة وهي تتفحص الجسد كأنه لشخص آخر غيرها. مرّت بيديها على منحنى ثدييها، وتركتهما تتحركان بخفة إلى خاصرتها الطويلة وعلى بطنها المسطحة.

ابتعدت عن المرآة وذهبت إلى الفراش الذي ما زال لم يرتب، سحبت الأغطية وطوتها بلا عناية ووضعتها في الخزانة. سوّت ملاءة السرير واستلقت هناك على ظهرها. قدماها مفرودتان ويداها إلى جانبيها. لا يطرف لها جفن ولا تحرك ساكنًا، رقدت تحدق في السقف، وقضت النهار كله كذلك.

حين عاد ويليام ستونر ذاك المساء إلى البيت، كان الظلام قد خيم تقريباً، لكن نوافذ الطابق الثاني كانت ما زالت غير مضاءة. صعد السلم منقبضاً على نحو مبهم، وأضاء غرفة الجلوس. كانت الغرفة خالية. نادى: «إديث؟»

لم يتلقَ رداً. نادى ثانيةً.

بحث في المطبخ، كانت أطباق الإفطار ما زالت على الطاولة الصغيرة. سار بخفة عبر غرفة الجلوس وفتح باب غرفة النوم.

كانت إديث ترقد عارية على الفراش الخالي. حين انفتح الباب وسقط عليها الضوء القادم من غرفة الجلوس أدارت له رأسها، دون أن تنهض. كانت عيناها واسعتين زجاجيتين، وأصوات خافتة تصدر من فمها المفتوح.

كرر ستونر وهو يتجه حيث ترقد: «إديث؟». ركع بجانبها: «هل أنت بخير؟ ما الأمر؟»

لم تجبه، تعالت الأصوات الصادرة عن فمها وتحرك جسدها بجواره. امتدت يداها إليه فجأة كمخلبين. جفل منتفضاً، لكنهما أمسكتا بملابسه، تقبضان وتشدان، وتسحبانه إلى الفراش بجانبها. أطبقت على فمه بفمها، منفرجًا وحارًا، كانت يداها تمران على جسده وتنزعان ملابسه وتبحث عنه، وعيناها، طوال الوقت، مفتوحتان ومحدجتان ومطمئنتان، كأنهما عينا شخص آخر غيرها ولا تريان شيئاً.

كانت معرفة جديدة بإديث، تلك الرغبة التي كانت كجوع قارص للغاية لحد بدا معه أنه لا علاقة له بها، ما إن تشبع حتى يعاودها مرة أخرى سريعاً، وهكذا عاش الاثنان في توتر انتظار حضوره.

كان الشهران اللاحقان لهذا هما الفترة العاطفية الوحيدة في حياة ويليام وإديث ستونر، مع ذلك لم تتغير علاقتهما. سرعان ما أدرك ستونر أن القوة التي تشد جسدهما للآخر لا تمت للحب بصلة، كانا يتعاشران بعزم شديد لكنه مبتور، ثم يتباعدان، ثم يتعاشران مرة أخرى، دون قدرة على إشباع رغبتيهما.

كانت تلك الرغبة تنتاب إديث أحياناً أثناء النهار، حين يكون ويليام

ستونر في الجامعة، وبقوة شديدة حتى لا يمكنها البقاء ساكنة، فكانت تخرج من الشقة، وتروح وتجيء في الشوارع متنقلة بلا هدف من مكان لآخر. ثم تعود للبيت، تسدل الستائر، تنزع ملابسها، جاثمة في شبه الظلمة، تنتظر عودة ويليام للبيت. وحين يفتح الباب تنقضّ يداها المتوحشتان الراغبتان، كأنهما مستقلتان عنها، تسحبانه إلى غرفة النوم ثم إلى الفراش الذي يكون مبعثراً من استخدامه تلك الليلة أو ذاك النهار.

حمَلت إديث في حزيران وسقطت على الفور فريسة لمرض لم تتعافَ منه تماماً طوال فترة حملها. حتى قبل أن يتأكدا من الخبر سواء من توقيتها أو من طبيبها، كانت رغبتها المتوحشة في ويليام التي ظلت تعتريها طوال الشهرين الماضيين قد انحسرت تقريباً. أوضحت لزوجها أنها لا تطيق لمسة يده، وبدأ يلاحظ أنها قد تعتبر حتى نظرته لها انتهاكًا. أصبحت رغبتهما في ممارسة الحب ذكرى، وفي نهاية المطاف اعتبرها ستونر كحلم ليس له علاقة بأي منهما.

غدا الفراش الذي كان حظيرة رغبتهما فراش مرضها. كانت ترقد فيه طوال اليوم تقريباً، تنهض فقط لقيء الصباح، ولتسير مترنحة لدقائق قليلة في غرفة الجلوس في الظهيرة. كان ويليام يهرع عائداً من عمله في الجامعة في الظهيرة والمساء ليبدأ بتنظيف الغرف، وغسيل الصحون، وإعداد وجبة المساء، ثم يحمل عشاء إديث إليها على صينية. بالرغم من عدم رغبتها في تناول الطعام معه، كانت ترحب أحياناً باحتساء فنجان شاي صغير معه بعد العشاء. فكانا أحياناً، لدقائق قليلة في المساء، يتحدثان بهدوء وأريحية، كأنهما صديقان قديمان أو عدوّان متهادنان. بعد ذلك تغرق إديث في النوم سريعاً، ويعود ويليام للمطبخ لينهي أعمال المنزل، ثم يضع طاولة قبالة الأريكة في غرفة الجلوس حيث يجلس ليصحح الأوراق أو يحضِّر الدروس. وعند منتصف الليل، يتدثر ببطانية يحتفظ بها مطوية بعناية خلف الأريكة، ويكوِّر قامته الطويلة على الأريكة لينام نومًا متقطعًا حتى الصباح.

ولدت الطفلة بعد ثلاثة أيام من المخاض في منتصف آذار ١٩٢٣، سمياها جريس، على اسم خالة إديث المتوفاة منذ سنوات كثيرة.

كانت جريس طفلة جميلة حتى وهي حديثة الولادة، لها ملامح مميزة وزغب خفيف لشعر ذهبي. تحولت حمرة بشرتها الأولى خلال أيام قليلة إلى الوردي الذهبي اللامع، كانت نادراً ما تبكي وتبدو واعية تقريبا بما يحيط بها. وقع ويليام في غرامها من أول لحظة، كان يحبها الحب الذي لم يستطع إظهاره لإديث، ووجد متعة لم يكن يتوقعها في العناية بها.

ظلت إديث طريحة الفراش جزئياً لمدة عام بعد الولادة، حتى قلقا من أن تظل قعيدة إلى الأبد، مع ذلك لم يجد الطبيب علة محددة. استعان ويليام بامرأة لتأتي في الصباح ريثما يكون في الجامعة لتعتني بها، ورتب محاضراته ليستطيع العودة إلى المنزل مبكرًا في الظهيرة.

وهكذا، ظل ويليام يعتني بالمنزل وبمخلوقتين ضعيفتين لأكثر من عام. كان يستيقظ قبل الفجر، يصحح الأوراق ويحضر المحاضرات، وقبل أن يذهب إلى الجامعة يُطعم جريس، ويحضّر الفطور لنفسه وإديث، ويعدّ غداءً سريعًا لنفسه ليأخذه معه إلى الكلية في حقيبة أوراقه. ثم يعود بعد محاضراته إلى البيت ليكنس ويلمع وينظف.

وكان لابنته أُمّا تقريباً أكثر منه أباً. يغير لها حفاضاتها ويغسلها، ويختار ملابسها ويصلّحها لها حين تتمزق، ويُطعمها ويحممها ويهدهدها على ذراعيه حين تتألم. من حين لآخر كانت إديث تنادي بتبرُّم على طفلتها، فيأتي ويليام بها إليها، تحملها على ذراعيها وهي جالسة في الفراش لدقائق قليلة، بصمت وتعب، كأنها طفلة شخص آخر. ثم يصيبها التعب وتعيد الطفلة له وهي تتنهد، أحياناً تبكي قليلاً من عواطف غامضة، ثم تمسح عينيها وتدير له ظهرها.

هكذا لم تعرف جريس ستونر في عامها الأول سوى لمسة أبيها وصوته

وحبه.

٧.

في بداية صيف ١٩٢٤، في ظهيرة أحد أيام الجمعة، شاهدت مجموعة من الطلبة آرشر سلوان يذهب إلى مكتبه. وفي فجر الاثنين التالي، اكتشفه الحاجب الذي يمر على مكاتب مبني الجيسي هول لإفراغ سلال المهملات. كان سلوان يجلس على كرسيه أمام مكتبه مسنداً ظهره بجمود، ورأسه مائل بزاوية غريبة وعيناه مفتوحتان ومثبتتان في تحديقة رهيبة. تحدث الحاجب إليه ثم هرول صارخاً في أروقة المبنى. تأخروا قليلاً في نقل الجثة من المكتب، ولم يكن بأروقة المبنى سوى القليل من الطلبة المبكرين، حين حُملت القامة المسجاة والملفوفة بعناية على نقالة وهبطوا بها السلم إلى سيارة الاسعاف المنتظرة بالأسفل. عُرف بعد ذلك أنه قد توفى مساء الجمعة أو صباح السبت لأسباب من الواضح أنها طبيعية، لكن يستحيل تحديدها بدقة، وقضى العطلة الأسبوعية كلها على مكتبه يحدق أمامه في اللاشيء. أعلن الطبيب الشرعي أن سبب الوفاة أزمة قلبية، مع ذلك ظل ويليام ستونر يشعر أن سلوان قد تمنى في لحظة غضب ويأس أن يتوقف قلبه، كأنها إشارة صامتة أخيرة تنم عن حب وازدراء لعالم خيب أمله على نحو عميق لم يستطع تحمله.

كان ستونر أحد حملة النعش في الجنازة. ولم يستطع التركيز في الكلمة التي ألقاها القس أثناء المراسم، لكنه عرف أنها فارغة. كان يتذكر سلوان الذي رآه أول مرة في قاعة الدرس، وأحاديثهما الأولى معاً، والانهيار البطيء للرجل الذي كان يعدّه صديقًا غير قريب. بعد انتهاء المراسم، حين رفع مقبض النعش الرمادي وساعد في حمله إلى عربة نقل الموتى بالخارج، كان حمله خفيفاً للغاية لحد لم يصدق أن ثمة أي شيء بداخل الصندوق الرفيع.

لم يكن لسلوان عائلة، وقف زملاؤه في العمل وقليل من أبناء البلدة فحسب حول الحفرة الضيقة واستمعوا بألم، وإحراج، واحترام لكلمات القس. وإذ لم يكن له أبناء ولا أحباب يحزنون لرحيله، بكى ستونر حين أُنزِلَ النعش، كأن بكاءه قد يخفف من وحدة المثوى الأخير. لم يعرف هل كان يبكي نفسه، يبكي الجزء الذي اقتُطع من تاريخه وشبابه ووُري في التراب، أم يبكي الجسد النحيل الذي كان يشغله ذات مرة الرجل الذي أحبه؟

أقله جوردون فينش إلى البلدة، ولم يتحدثا معظم الوقت. ثم سأل فينش عن إديث وهما يقتربان من البلدة، قال ويليام شيئًا ما وسأل عن كارولاين. رد جوردون ثم ساد صمت طويل. تحدث جوردون فينش ثانيةً وهما بالقرب من منزل ستونر.

«لا أعرف، طوال وقت الجنازة ظللت أفكر في ديف ماسترس. في موته في فرنسا، والعجوز سلوان يجلس هناك في مكتبه، ميتًا لمدة يومين، كأنها الميتة نفسها. لم أعرف سلوان جيداً قط لكن ظني أنه كان رجلاً صالحًا، هذا ما سمعته على الأقل. وعلينا الآن أن نجد شخصًا آخر، ونجد رئيسًا جديدًا للقسم. كأنها دائرة تدور بلا توقف. الأمر يجعلك تتعجب».

قال ويليام: «نعم»، ولم يزد عن هذا. لكنه شعر لدقيقة بود شديد تجاه جوردون فينش، وحين ترجل من السيارة وشاهد جوردون يقود مبتعدًا كان متيقناً أن جزءًا آخر منه، من ماضيه، كان يبتعد عنه ببطء، وبالتدريج تقريباً، ليتلاشى في الظلام.

بالإضافة لمنصبه نائبًا للعميد، تولى جوردون فينش الرئاسة المؤقتة لقسم الإنجليزي، وصارت مهمته الطارئة أن يجد بديلاً لآرشر سلوان.

استقر الأمر بعد تموز، دعا فينش أعضاء القسم الذين بقوا في كولومبيا

في الصيف ليعلن لهم النبأ. أخبر الأعضاء القليلين أنه «هوليز إن لوماكس»، متخصص في أدب القرن العشرين وتلقى درجة الدكتوراه مؤخراً من جامعة هارفارد، لكنه مع ذلك قام بالتدريس لعدة سنوات في كلية صغيرة للآداب بولاية نيويورك. جاء بتزكية رفيعة المستوى، وكان قد صدرت له كتب، وسيتم تعيينه على درجة مساعد أستاذ. أكد فينش أنه لا توجد خطط حالية بشأن رئاسة القسم، وأنه سيبقى الرئيس المؤقت لمدة عام على الأقل.

ظل لوماكس لبقية الصيف كيانًا غامضًا ومادة لتكهنات أعضاء الكلية الثابتين. كانوا ينقبّون عن مقالاته التي ينشرها في المجلات، يقرؤونها ويتداولونها بإيماءات لبيبة. لم يظهر خلال أسبوع الطلبة الجدد، ولم يحضر اجتماع الكلية العمومي الذي ينعقد يوم الجمعة السابق ليوم الاثنين المقرر فيه فتح باب التسجيل للطلبة. وظل أعضاء القسم يوم التسجيل، وهم جالسون صفاً خلف المناضد الطويلة، ويساعدون الطلبة بضجر في اختيار المواد وفي الروتين القاتل لملء الاستمارات، ينظرون حولهم خلسة بحثاً عن وجه جديد. وما زال لوماكس لم يظهر.

لم يره أحد حتى اجتماع القسم في نهاية ظهيرة يوم الثلاثاء، بعد إنهاء أعمال التسجيل، حينئذ، كان أعضاء قسم الأدب الإنجليزي، متعبين من رتابة اليومين الماضيين ومتحمسين مع ذلك لبداية عام دراسي جديد، قد نسوا أمر لوماكس تقريباً. انتشروا على الكراسي المكتبية في قاعة محاضرات كبيرة في الجناح الغربي من مبنى الجيسي هول يتطلعون بانتباه مستهين، وحريص مع ذلك، إلى منصة القاعة حيث يقف جوردون فينش ينظر إليهم بشعور هائل من الإحسان. سرت في القاعة همهمة خفيضة، وصرّت الكراسي التي تُجرّ على الأرضية، بين الفينة والأخرى يضحك شخص ما عمداً، وبخشونة. رفع جوردون فينش راحة يده اليمنى منبسطة في وجه جمهوره، فهدأت الهمهمة قليلاً.

هدأت على نحو جعل جميع من في القاعة يسمعون صرير الباب الخلفي للقاعة وهو ينفتح ثم الصوت المميز لوقع خطوات تتقدم ببطء على الأرضية الخشبية العارية. استداروا وخرست الهمهمة. همس أحدهم: «إنه لوماكس». وكان صوته حادا ومسموعاً في القاعة كلها.

دخل لوماكس من الباب، أغلقه، تقدم خطوات قليلة، ثم وقف عند عتبته. لم يكد طوله يتجاوز الخمسة أقدام، وجسده سيء التكوين على نحو منفر. تشد حدبة صغيرة كتفه الأيسر إلى رقبته، وتتدلى ذراعه اليسرى مرتخية إلى جانبه، وله جذع ضخم ومُقوّس، ويبدو في نضال دائم من أجل الحفاظ على توازنه، ساقاه رفيعتان ويسير بعرج في ساقه اليمنى المتخشبة. وقف لدقائق قليلة ورأسه الأشقر منكس، كأنه يتفحص حذاءه الأسود المُلمّع جيداً والطية الحادة لبنطاله الأسود. ثم مد ذراعه الأيمن كاشفاً عن معصم أبيض طويلٍ بسلاسل ذهبية، وبين أصابعه الطويلة الشاحبة سيجارة. مجّ منها نفساً عميقاً ثم أطلق دخانه في خيط رفيع. وحينها استطاعوا رؤية وجهه.

كان وجه معبودًا للجماهير. طويل ونحيف وحيوي، بملامح قوية مع ذلك، جبينه عالٍ وضيق بعروق بارزة، وشعره كث مجعد، بلون الحنطة، ممشطاً لأعلى بشكل بومبادور[1] مسرحي إلى حد ما، ألقى بسيجارته على الأرض وسحقها بأخمص قدمه وتحدث.

قال: «أنا لوماكس». ثم سكت، صوته ثري وعميق، يلفظ بدقة، ثم أضاف برنين درامي: «أرجو ألا أكون قد قاطعت اجتماعكم».

استمر الاجتماع دون أن يعير أحد اهتماماً كبيرًا لما يقوله جوردون

---

(١) طريقة في تسريح الشعر لأعلى، نسبة لجان انطوانيت بواسون مركيزة بومبادور وعشيقة لويس الخامس عشر

فينش. جلس لوماكس وحده في الخلف، يدخن ويتطلع إلى السقف العالي، بدا غير عابئ بالرؤوس التي تستدير من حين لآخر لتنظر إليه. بعد انتهاء الاجتماع ظل جالساً وترك زملاءه يصعدون إليه، يقدمون أنفسهم له ويقولون ما يتوافر لهم قوله. حيّا كل منهم باقتضاب، بود ساخر على نحو غريب.

بدا واضحاً خلال الأسابيع القليلة الأولى أن لوماكس ليس لديه النية للانخراط في الحياة الاجتماعية والثقافية والأكاديمية لجامعة كولومبيا بميزوري. لكنه، للمفارقة، كان محبوباً من زملائه، لم يكن يرسل دعوات ولا يقبلها، حتى إنه لم يحضر الحفل السنوي بمنزل العميد كلاريمونت، برغم كونه تقليداً قديماً حتى إن الحضور يكاد يكون إلزاميًا، ولم يره أحد في الحفلات الموسيقية أو الندوات التي تنظمها الكلية. قيل إن محاضراته حيوية وإن تعامله مع الطلبة غريب الأطوار. كان مدرساً محبوباً، يتجمع الطلبة حول مكتبه خلال ساعات راحته، ويتبعونه في الأروقة، كان معروفًا بدعوته لطلبته من حين لآخر لقاعات الدرس حيث يمتّعهم بحديثه وبإلقاء بعض رباعياته.

تمنى ويليام ستونر أن يعرفه على نحو أفضل لكنه لم يعرف كيف. كان يتحدث إليه حين يكون لديه ما يقوله. ودعاه على العشاء، لكنه، حين أجابه لوماكس كما أجاب غيره- رافضًا الدعوة بتهذيب وبرود ساخرين-لم يسعه التفكير في شيء آخر.

استغرق ستونر وقتًا ليدرك سر انجذابه لهوليس لوماكس. رأى ستونر في عجرفة لوماكس، وطلاقته، ومرارته المرحة صورة صديقه ديف ماسترس، مشوهة لكن مميزة. تمنى لو يتحدث معه كما كان يتحدث مع ديف، لكنه لم يستطع ذلك، حتى بعد أن أسر به لنفسه. لم يبارحه ارتباك الشباب، لكن الحماسة والمباشرة اللتين تجعلان الصداقة أمراً ممكناً قد بارحتاه. عرف أن ما يتمناه مستحيل، وأحزنه ذلك.

كان في المساء، بعد أن ينظف الشقة ويغسل صحون العشاء ويضع جريس في مهدها في ركن غرفة الجلوس، يعمل على مراجعة كتابه. انتهى منه في نهاية العام، ورغم عدم رضاه الكامل عنه، أرسله إلى ناشر. لدهشته، تم قبول الدراسة وتقرر نشرها في خريف ١٩٢٥ . بفضل كتابه الذي لم ينشر بعد، تمت ترقيته لدرجة أستاذ مساعد وتثبيته في منصبه.

تأكدت ترقيته بعد أسابيع قليلة من قبول كتابه للنشر، وإزاء هذا التأكيد أعلنت إديث أنها والطفلة ستقضيان أسبوعًا في سانت لويس عند أبويها.

عادت إلى كولومبيا في أقل من أسبوع متعبة ومجهدة لكنها مبتهجة وهادئة. قطعت زيارتها لأن والدتها لم تستطع حمل عبء العناية برضيع، وكانت إديث مرهقة للغاية من الرحلة فلم تكن قادرة على العناية بجريس بنفسها. لكنها حققت شيئًا ما. أخرجت من حقيبتها حزمة أوراق وناولت ويليام ورقة صغيرة. كان شيك بستة آلاف دولار، للسيد ويليام ستونر وزوجته، موقع بخربشة هوراس بوستفيك الوقحة والمبهمة تقريباً. سألها ستونر: «ما هذا؟»

ناولته الأوراق الأخرى وهي تجيبه: «إنه قرض. ليس عليك سوى أن توقع هذه الأوراق، لقد وقعتها بالفعل».

«ولكن ستة آلاف دولار؟ لماذا كل هذا؟»

«منزل. منزل حقيقي يكون ملكاً لنا».

ألقى ويليام ستونر نظرة أخرى على الأوراق، تصفحها بسرعة وقال: «إديث، نحن لا نستطيع. أنا آسف، ولكن.. انظري، سيكون دخلي العام القادم كله ألف وستمائة دولار فقط، وسداد هذا القرض سيأخذ ستين دولارًا شهريًا، هذا نصف راتبي تقريباً. بالإضافة للضرائب والتأمين

و.. أنا لا أرى كيف سيمكننا هذا. أتمنى لو كنت قد تحدثتِ معي قبلاً».

بدا الأسى على وجهها، وأشاحت به عنه قائلة: «أردت مفاجئتك، أنا لا يسعني سوى فعل القليل جدًا، وقد استطعت فعل هذا».

شكرها لهذا، لكنها لم تهدأ. قالت: «كنت أفكر فيك وفي الطفلة، سيكون لديك مكتب، ولدى جريس فناء تلعب فيه».

قال ويليام: «أعرف.. لكن خلال سنوات قليلة ربما».

«خلال سنوات قليلة..». كررت كلماته. ثم أردفت بفتور: «لا أستطيع العيش هكذا، لم أعد أستطيع العيش في شقة. أينما ذهبت أستطيع سماعك، وسماع الطفلة، و....الرائحة.. لا أستطيع.. تحمل.. الرائحة! يومًا بعد يوم، رائحة الحفاضات.. وأنا لا أستطيع تحملها، ولا أستطيع الهروب منها. ألا تعرف؟ ألا تعرف؟»

في نهاية المطاف قبلا المال. قرر ستونر أن يقضي الصيف في التدريس بدلاً من الدراسة والكتابة كما كان يُمنّي نفسه، على الأقل لسنوات قليلة.

تحملت إديث مسؤولية البحث عن المنزل. كدّت في البحث طوال نهاية الربيع وبداية الصيف، وبدا أنه علاج ناجع لمرضها. كانت تخرج ما إن يعود ويليام من الجامعة ولا تعود حتى حلول المساء. أحياناً تسير على قدميها وأحياناً تقلّها كارولاين فينش التي صارت صديقة عابرة لها. عثرت على المنزل الذي أرادته في نهاية حزيران، وفي منتصف آب كانت قد وقعت عقد الشراء وحجة الملكية.

كان منزلاً من طابقين يبعد شوارع قليلة عن الجامعة. تركه مالكوه السابقون يتداعى، تقشر الطلاء الأخضر الداكن على الألواح. وصارت الحديقة بنية وتفشى فيها العشب الضار، لكن فناءه فسيح وغرفه

واسعة. كانت له أبهة بالية حلمت إديث بتجديدها. اقترضت خمسة آلاف أخرى من والدها لشراء أثاث، وعلى مدار فترة الصيف وبداية الفصل الدراسي الخريفي أعاد ستونر طلاء المنزل. أرادت إديث اللون الأبيض وكان عليه وضع ثلاث طبقات من الطلاء لحجب الأخضر الداكن جيداً. قررت عند بداية أيلول، فجأة، أنها ستقيم حفلاً لاستقبال معارفهما في المنزل. أعلنت الخبر ببعض الحزم كأنه بداية عهد جديد.

دعيا جميع أعضاء القسم الذين عادوا من عطلاتهم الصيفية وبعض أقارب إديث في البلدة، أدهش هوليس لوماكس الجميع بقبوله الدعوة، أول دعوة يقبلها منذ وصوله إلى كولومبيا منذ عام مضى. وجد ستونر تاجر خمور وابتاع عدة زجاجات من الجِن، ووعد جوردون فينش بجلب بيرة، وساهمت إيما خالة إديث بزجاجتين من الشيري المعتّق لمن لا يشربون الخمور الثقيلة. لم ترحب إديث بتقديم الخمور على الإطلاق، لأنه غير قانوني في الواقع، لكن كارولاين فينش ألمحت أن لا أحد من الجامعة سيظن الأمر غير مناسب حقاً، فاقتنعت إديث. جاء الخريف مبكرًا ذاك العام. سقط ثلج خفيف في العاشر من أيلول، قبل يوم من التسجيل، وفي الليل أحكمت موجة صقيع قوية قبضتها على الأرض. تحسن الطقس بنهاية الأسبوع، موعد الحفل، كان ثمة برودة فقط، لكن الأشجار كانت عارية، ولون العشب بني ويسود عراء عام ينذر بشتاء قارص. الطقس البارد بالخارج، وأشجار الحور والدردار العارية والمنتصبة بجهامة في باحتهما، والدفء الذي تشيعه الترتيبات الأخيرة للحفل بالداخل، تذكر ويليام ستونر يومًا آخر، ظل لبعض الوقت لا يعرف ما الذي يحاول أن يتذكره، ثم أدرك أنه في يوم كهذا، منذ سبع سنوات تقريباً، أن ذهب إلى منزل جوزيه كلاريمونت ورأى إديث للمرة الأولى. بدت الذكرى غريبة تماماً عنه، وبعيدة، لم يستوعب ذهنه التغيير الذي صنعته تلك السنوات القليلة.

خلال كل الأسبوع الذي يسبق الحفل تقريباً، ظلت إديث منهمكة

في الترتيبات بحماس، فاستأجرت فتاة زنجية لمدة أسبوع لمساعدتها في التحضيرات وللخدمة يوم الحفل. قامتا بتنظيف الأرضيات والجدران، وتلميع الخشب والأثاث، وتنظيفه وترتيبه وإعادة ترتيبه، حتى باتت إديث ليلة الحفل على وشك الانهيار. أسفل عينيها تجويفان داكنان، وصوتها على حافة الانفجار. في السادسة مساءً - كان موعد الحفل في السابعة - أحصت الكؤوس مرة أخيرة واكتشفت أنها لن تكفي المدعوين. فانهارت تبكي، واندفعت إلى الطابق العلوي وهي تجهش بالبكاء معلنة أنها لا تأبه لما سيحدث وأنها لن تهبط ثانيةً. حاول ستونر تهدئتها لكنها لم تستجب. أخبرها ألا تقلق وإنه سيأتي بكؤوس. أخبر الخادمة أنه سيعود سريعاً وانطلق خارجاً. ظل لمدة ساعة تقريباً يبحث عن متجر ما زال مفتوحاً حيث يمكنه شراء كؤوس، بعد أن وجده واختار الكؤوس وعاد أدراجه كان الوقت قد تجاوز السابعة بقدر لا بأس به، وقد وصل أول الضيوف بالفعل، كانت إديث معهم في غرفة الجلوس، تبتسم وتتحدث كمن لا يهمه شيء، حيت ويليام بعفوية وأخبرته أن يذهب بالحزمة إلى المطبخ.

كان الحفل كغيره من الحفلات. تبدأ المحادثة عشوائياً، تجمع طاقة سريعة لكنها ضعيفة، ثم تميل بغير مناسبة إلى محادثات أخرى، الضحكات سريعة وعصبية وتدوي كوابل مستمر متقطع من انفجارات صغيرة، والضيوف يتحركون بسلاسة من ركن لآخر كأنهم بتغيير أماكنهم ينفذون إستراتيجية احتلال. تجوّل القليل منهم كالجواسيس في أنحاء المنزل، يقودهم إما إديث أو ويليام، ويعلّقون على مميزات تلك البيوت القديمة على العمارات الجديدة الرديئة التي ترتفع هنا وهناك عند أطراف المدينة.

بحلول العاشرة مساءً، كان أغلب الضيوف يحملون أطباقًا مليئة بشرائح لحم الخنزير والرومي المدخنين، والمشمش المخلل، وزينة الطعام المختلفة من طماطم صغيرة وعيدان كرفس، وزيتون، ومخللات، وفجل

هش، وقرنبيط صغير. كان قليل منهم ثملين فلم يأكلوا. وبحلول الحادية عشرة كان أغلبهم قد غادروا، وظل من بين من بقوا جوردون وكارولاين فينش، وقليل من أعضاء القسم الذين يعرفهم ستونر منذ سنوات عديدة، وهوليس لوماكس. كان لوماكس ثملاً تماماً، وإنما ليس بشكل مبالغ فيه، فكان يسير بحرص كمن يحمل أوزانًا على أرض غير مستوية، ووجهه النحيل الشاحب يلمع تحت غشاء من العرق. أطلق الخمر لسانه، وبرغم دقة حديثه، فقدَ صوته رنينه الساخر، وبدا بلا دفاعات.

تحدث عن وحدته وهو طفل في أوهايو، حيث كان والده رجل أعمال صغير بقدر لا بأس به من النجاح، تحدث- كأنه يتحدث عن شخص آخر- عن العزلة التي فرضتها عليه عاهته، عن الخزي الذي لم يستطع فهم منبعه ولم يحظَ بأي دعم في مواجهته. وحين تحدث عن الأيام والليالي الطويلة التي قضاها وحده في غرفته، يقرأ ليكسر القيود التي يفرضها عليه جسده ويعثر شيئًا فشيئًا على إحساس بالحرية كان ينمو ويشتد مع ازدياد فهمه لطبيعة تلك الحرية، حين تحدث عن هذا، شعر ويليام ستونر تجاهه بقرابة أكيدة. عرف أن لوماكس قد مر بما يشبه الاهتداء، لحظة تجلٍ عرف فيها بالكلمات شيئًا ما لا يمكن صياغته في كلمات، كما حدث لستونر مرة في المادة التي كان يدرّسها آرشر سلوان. كان لوماكس قد توصّل إليها مبكراً ووحيداً لذلك كانت المعرفة أقرب لنفسه منها لستونر، لكن الأهم في النهاية، أن الرجلين متشابهان، رغم عدم رغبة كل منهما في الإقرار بهذا للآخر أو لنفسه حتى.

ظلوا يتحدثوا حتى الرابعة فجراً تقريباً، ورغم شربهم المزيد من الخمر فإن الحوار كان يهدأ شيئًا فشيئًا، إلى أن سكت الجميع في النهاية. جلسوا قريبين من بعضهم البعض بين أنقاض الحفل، كأنهم في جزيرة وقد تجمعوا للشعور بالدفء والأمان. بعد فترة نهض جوردون وكارولاين فينش وعرضا أن يقلا لوماكس إلى منزله. صافح لوماكس ستونر

وسأله عن كتابه وتمنى له التوفيق فيه، سار إلى إديث التي كانت تجلس منتصبة على كرسي مستقيم، وأمسك بيدها، وشكرها على الحفل. ثم، وبحركة بدت عفوية تماماً، انحنى قليلاً ولمس بشفتيه شفتيها، ارتفعت يد إديث بخفة إلى شعره، وظلا كذلك لعدة ثوانٍ بينما يقف الآخرون ينظرون، كانت أطهر قبلة رآها ستونر في حياته، وبدت طبيعية تماماً.

ودّع ستونر ضيوفه عند الباب، وتلكأ دقائق قليلة، يرقبهم يهبطون السلم ويسيرون خارج دائرة ضوء الشرفة. أحاطه الهواء البارد والتصق به، تنفس بعمق، أنعشته البرودة الحادة. أغلق الباب مكرهاً واستدار، كانت غرفة الجلوس خالية، كانت إديث قد صعدت إلى الطابق العلوي. أطفأ الأنوار وسار عبر فوضى الغرفة إلى السلم. اعتاد على المنزل تماماً. أمسك بدرابزين لا يراه وتركه يقوده لأعلى، في الطابق الأعلى صار بإمكانه رؤية طريقه، إذ كان الرواق مضاءً بضوء يأتي من باب غرفة النوم الموارب. صرّت الألواح تحت خطواته وهو يسير في الرواق ويدخل غرفة النوم.

كانت ملابس إديث مبعثرة على الأرض بجوار الفراش الذي ألقت بأغطيته في ركن الغرفة بإهمال، رقدت على الملاءة البيضاء المستوية عارية تلمع تحت الضوء. كان جسدها لين وداعر في تمدده العاري، يلمع مثل الذهب الباهت. اقترب ويليام من الفراش. سقطت في النوم سريعاً، لكن فمها بدا، في خدعة من الضوء، مفتوحًا قليلاً كأنه يشكل كلمات حب وغرام. وقف ينظر إليها طويلاً. شعر بعطف بعيد وصداقة عازفة واحترام مألوف، وشعر أيضاً بحزن قاتم، لعلمه أن رؤيتها لن تثير فيه بعد الآن تباريح الرغبة التي عرفها ذات مرة، وحضورها لن يحركه ثانيةً كما كان يحركه من قبل. هدأ حزنه، غطاها برقة وأطفأ النور، ورقد في الفراش بجانبها.

استيقظت إديث في الصباح التالي عليلة ومرهقة، وقضت اليوم في

غرفتها. نظف ويليام المنزل واعتنى بابنته. رأى لوماكس يوم الاثنين وتحدث معه بالود المتصل من ليلة الحفل، أجابه لوماكس بسخرية كانت كالغضب البارد، ولم يتحدث عن الحفل لا ذاك اليوم ولا بعد ذلك أبداً. بدا الأمر كأنه اكتشف عداوة ما تبقيه بعيداً عن ستونر، ولم يكن ليتركها.

كما تخوّف ويليام، ثبت سريعاً أن المنزل عبء مالي مدمر تقريباً. ومع أنه كان يقتطع من مرتبه بحرص لكنه كان يصل إلى نهاية الشهر بلا نقود دائماً، وكان كل شهر يقلل من مدخرات تدريسه الصيفي التي تتضاءل بانتظام. في العام الأول لامتلاكهما المنزل لم يدفع قسطين من أقساط سداد الدين لوالد إديث، فتلقى خطابًا لاذعًا وتوجيهيًا ينصحه بالتخطيط المالي السليم.

مع هذا، بدأ يشعر بمتعة الملكية ويعرف سبل راحة لم يكن ليتوقعها. كانت حجرة مكتبه في الطابق الأرضي، قبالة غرفة الجلوس، ولها نافذة شمالية عالية، يضيئها ضوء النهار بنعومة، وتلمع أخشاب جدرانها بعبق الزمن. وجد في القبو، تحت بعض الأشياء التالفة والقذرة، كمية من الألواح تناسب خشب الجدران، فعالجها وصنع منها خزانات للكتب لتحيط به كتبه، وجد أيضاً في متجر للأثاث المستعمل كراسي قديمة، وأريكة، ومكتبًا قديمًا، دفع مقابلها دولارات قليلة وقضى أسابيع كثيرة في تصليحها.

فيما يعمل هو في الغرفة، وفيما يتضح شكلها ببطء، أدرك أنه لسنوات كثيرة لا يعرف عدّتها، ظل بداخله تصور أغلق عليه كأنه سر مُخز، تصور عن غرفة في ظاهره، لكنه في جوهره عنه هو نفسه. لذلك كان في عمله في غرفة مكتبه يحاول تعريف نفسه. فيما يصقل الألواح القديمة لمكتبته، يرقب تلاشي خشونة الأسطح وتقشر طبقة التعرية الرمادية عن الخشب الأصلي إلى أن يصل أخيراً إلى النقاء الثري للتجزيعات البنية.

وفيما يُصلّح أثاثه ويرتبه في الغرفة، كان يشكل نفسه ببطء، ينظم نفسه على نحو ما، يجعل نفسه ممكناً.

وهكذا، برغم ضغوط الدين والعوز المتكررة، كانت السنوات القليلة التالية سعيدة، وعاش كما حلم أن يعيش حين كان طالبًا حديث التخرج وحينِ تزوج أول مرة. لم تشارك إديث في حياته بالقدر الذي كان يأمله حقاً، بدا أنهما دخلا في هدنة طويلة الأمد تشبه إحراج الشاه (ورطة في الشطرنج)، قضيا معظم حياتيهما منفصلين. حافظت إديث على بريق المنزل الذي كان نادراً ما يأتيه زوار. حين لم تكن تكنس أو تلمع أو تغسل أو تجلي، كانت تلزم غرفتها وتبدو راضية بذلك. لم تدخل مكتب ويليام قط، كأنه غير موجود بالنسبة لها.

تولى ويليام معظم واجبات العناية بابنتهما. كان يعود من العمل في الظهيرة فيأخذ جريس من غرفة النوم العلوية التي حوّلها إلى حجرة نوم أطفال إلى غرفة مكتبه حيث يتركها تلعب إلى أن ينهي عمله. تلعب بهدوء وسرور على الأرض، راضية بكونها وحدها، من حين لآخر يتحدث ويليام معها، فتتوقف لتنظر إليه بجهامة وفرحة بطيئة.

كان أحياناً يدعو طلبته لاجتماعات أو للدردشة، يعد لهم الشاي على موقد صغير يحتفظ به بجانب مكتبه، ويشعر بغرام غريب بهم وهم جالسون باعتداد على الكراسي، يثنون على مكتبته، ويطرون جمال ابنته. كان يعتذر لغياب زوجته، ويشرح مرضها، حتى أدرك أخيراً أن اعتذاراته المتكررة تؤكد على غيابها أكثر مما تفسره، فلم يقل شيء عن الأمر بعد ذلك وتمنى أن يكون صمته أقل بوحاً من تفسيراته.

فيما خلا غياب إديث عن حياته، فقد كانت كما تمناها تقريباً. يدرِس ويكتب حين لا يحضّر محاضرات أو يصحح أوراق أو يقرأ أطروحات. كان يتمنى أن يجد الوقت لنفسيه كطالب وكمدرس. كان رأيه في كتابه

الأول حذرًا ومتواضعًا، وكان ذلك حقاً، كتب عنه أحد القراء أنه «ركيك» ورآه آخر «استعراض وافٍ». كان في البداية فخوراً للغاية بالكتاب، يحمله بين يديه ويربت على غلافه القماشي ويقلب صفحاته. بدا رقيقاً وحيوياً كطفل. عاود قراءته وهو مطبوع، واندهش قليلاً لأنه لم يكن لا بأحسن ولا بأسوأ مما ظنّه. بعد فترة، مَلّ من رؤيته، لكنه لم يفكر فيه أو في تأليفه له دون أن ينتابه الشعور بالعجب وعدم التصديق إزاء تهوره وتلك المجازفة التي أخذها.

vii

في ربيع ١٩٢٧ كان ويليام ستونر عائدًا إلى البيت ذات مساء. امتزجت عطور براعم الزهور وعلقت في الهواء الرطب الدافئ، وأتي صوت صراصير الليل من الظل، ومن بعيد صوت سيارة وحيدة تعفر التراب وترسل ضجة عالية غير هيابة في هدأة الليل. سار بطيئًا، مأخوذًا بالاستيقاظ النعس لفصل جديد، ومنبهرًا ببراعم ضئيلة خضراء تومض تحت ظل الأجمات والأشجار.

حين عاد إلى المنزل كانت إديث في أقصى غرفة الجلوس، تمسك بسماعة الهاتف إلى أذنها وتنظر إليه.

قالت: «تأخرت».

قال بانشراح: «نعم. كانت لدينا امتحانات شفوية للدكتوراه».

ناولته السماعة قائلة: «إنها لك، مكالمة بعيدة. أحدهم يحاول الوصول إليك طوال فترة الظهيرة. أخبرتهم أنك في الجامعة لكنهم ظلوا يتصلون بك هنا كل ساعة».

أخذ ويليام السماعة. لم يجبه أحد. قال ثانيةً: «ألو؟»

أجابه الصوت الرفيع الغريب لرجل يسأل: «هل هذا بيل ستونر؟»

«نعم. مَن معي؟»

«أنت لا تعرفني. لقد كنت أمر بوالديك، وطلبت مني والدتك أن أتصل بك، وظللت اتصل بك طوال الظهيرة».

قال ستونر ويده التي تمسك بالبوق ترتعش: «نعم. ما الأمر؟»
قال الصوت: «إنه والدك، لا أعرف كيف أبدأ...»

تابع الصوت الجاف المقتضب الخائف كلامه، وويليام ستونر منصتًا له بفتور كأنه شيء لا وجود له خلف السماعة التي يرفعها إلى أذنيه. عرف أن والده، كما قال الصوت، ظل مريضاً لأسبوع، ولأن مساعده لم يستطع إتمام العمل وحده، اضطر الأب برغم الحمى أن يهبط في الصباح لإتمام بعض الأعمال، لكن مساعده وجده عند منتصف النهار منكفئًا على وجهه على الأرض الجافة، فاقد الوعي. حمله إلى المنزل، ووضعه في الفراش، وذهب ليحضر طبيبًا، لكنه توفي عند الظهيرة.

قال ستونر بآلية: «شكرًا لاتصالك. أخبر والدتي أنني سأكون هناك في الصباح».

علق السماعة على مشجبها وحدق لفترة طويلة في البوق الذي يشبه الجرس الملحق بالأسطوانة السوداء الرفيعة. ثم استدار ونظر في الغرفة، كانت إديث تنظر إليه بانتظار.

سألت: «حسنا؟ ما الأمر؟»

«إنه والدي.. توفي».

قالت: «أوه، ويلي». ثم أومأت: «ستغيب لبقية الأسبوع تقريباً إذاً».

«نعم».

«سآتي إذن بالخالة إيما لتساعدني بالاعتناء بجريس».

قال بآلية: «نعم، نعم».

رتب أن يدرّس أحدهم محاضراته نيابةً عنه لبقية الأسبوع، وفي

الصباح التالي استقل الحافلة مبكراً إلى بونفيل. كان الطريق السريع من كولومبيا إلى كنساس سيتي، الذي يقطع بونفيل، الطريق نفسه الذي سافره منذ سبع عشرة سنة حين جاء إلى الجامعة لأول مرة، صار الآن واسعاً وممهداً، والسياجات المنتظمة المستقيمة تحيط بحقول القمح والذرة التي تتوهج خارج نافذة الحافلة.

تغيرت بونفيل قليلاً خلال السنوات التي لم يرها فيها. ظهرت مبانٍ جديدة قليلة، وتهدمت مبانٍ قديمة قليلة، لكن البلدة ظلت محتفظة بعرائها ورقة حالها، ما زالت تبدو كترتيب مؤقت يمكن إزالته في أيِ لحظة. وبالرغم من تمهيد معظم طرقها خلال السنوات الماضية، علَق فوقها سديم ترابي، وظل عدد قليل من عربات الخيل ذات العجلات الحديدية تسير في الطرقات، تطلق الشرارات أحياناً عند احتكاكها بأسفلت الشارع وهي تتوقف.

لم يتغير جوهر البيت أيضاً، لعله صار أكثر رمادية وجفافًا، لم تبقَ قشرة طلاء واحدة على الألواح الخشبية، وغارت ألواح أرضية الشرفة غير المطلية حتى كادت تصل إلى الأرض.

كان ثمة ناس في البيت – جيران – لم يتذكرهم ستونر، رجل طويل نحيل يرتدي بذلة سوداء وقميص أبيض وربطة عنق من شريط يميل على والدته الجالسة على كرسي مستقيم الظهر بجوار الصندوق الخشبي الطويل الذي يحمل جثمان والده. راح ستونر يعبر الغرفة، رآه الرجل فسار ليقابله. كانت عينا الرجل رماديتين ومصقولتين مثل الأواني الفخارية. له صوت عميق ومداهن وأجش، ردد بعض الكلمات بهمس وغلظة، وكان يخاطبه بـ «يا أخي» وتحدث عن «الفقد»، و «الرب الذي أخذه»، وأراد أن يعرف ما إذا كان ستونر سيصلي معه. لم يكترث ستونر به ووقف أمام والدته. سبح وجهها أمامه. غشى بصره حين رآها تومئ له وتنهض عن كرسيها. أمسكت بذراعه وقالت: «يجب أن ترى

والدك».

قادته بلمسة واهنة لم يكد يشعر بها إلى جانب النعش المفتوح. نظرٍ إلى أسفل. ظل ينظر حتى اتضحت رؤيته، ثم عاد بصره يغشى ثانيةً من صدمته، بدا الجسد الممدد جسد رجل غريب عنه، كان منكمشًا ضئيلاً، ووجهه مثل قناع بني من ورق رقيق، بفجوتين سوداوين عميقتين مكان العينين. كانت البذلة الزرقاء الداكنة التي يرتديها واسعة على نحو منفر، واليدان البارزتان من الأكمام أعلى الصدر مثل مخالب حيوان محنط. استدار ستونر لوالدته وأدرك أن الرعب الذي شعر به بادٍ في عينيه.

قالت: «فقد والدك الكثير من وزنه خلال الأسبوع أو الأسبوعين الماضيين، توسلت إليه ألا يخرج للحقل لكنه كان يستيقظ قبلي ويخرج. لم يكن ذهنه متيقظًا، كان مريضاً جداً لحد إنه لم يكن يفكر بوضوح ولم يعِ ما كان يفعله. قال الطبيب إنه بالتأكيد كذلك وإلا لم يكن ليتحمل العَمل».

رآها ستونر بوضوح وهي تتحدث إليه، كانت كأنها هي الأخرى ميتة، راح جزء منها بلا رجعة في هذا النعش مع زوجها الذي لن يقوم ثانية. رآها الآن، وجهها نحيل ومنكمش، مشدود للغاية، حتى وهو مسترخٍ، إلى درجة أن أطراف أسنانها كانت تبدو من تحت شفتيها الرفيعتّان. سارت كأنها بلا وزن ولا قوة. تمتم بكلمة وغادر الصالون، ذهب إلى الغرفة التي كبُر فيها ووقف في وسطها. كانت عيناه ساخنتين وجافتين، ولم يستطع البكاء.

قام بما ينبغي القيام به من ترتيبات الجنازة وتوقيع أوراق يجب توقيعها. كان لدى والديه بوليصة دفن مثل سكان البلدة الآخرين، ظلوا يدخرون لها طوال حياتهم قروش قليلة كل أسبوع، حتى في

أوقات العوز الشديد. كان ثمة شيء ما مثير للشفقة في البوليصة التي أتت بها والدته من حقيبة قديمة في غرفة نومها، بدأت الطباعة المذهّبة تتقشر والورقة الرخيصة هشة من قِدَمها. تحدث مع أمه عن المستقبل، أرادها أن تأتي معه إلى كولومبيا. قال إن هناك مساحة كافية وإن إديث، وهنا شعر بغصة حادة عابرة، سترحب بوجودها معهم.

لكنها لم توافق. قالت: «لن أشعر أنني بخير، أنا وأبوك.. لقد عشت هنا طيلة حياتي كلها تقريباً، لا أظن أن بإمكاني العيش في مكان آخر، كما أن توبي...» تذكر ستونر أن توبي هو الزنجي الأجير الذي كان يساعد والده في الحقل. «... قال إنه سيبقى هنا طالما احتجته، لقد رتب لنفسه حجرة جيدة في القبو، سنكون بخير».

جادلها ستونر لكنها لم تعدل عن رأيها. أدرك أخيراً أنها لا ترغب في شيء سوى أن تموت، وأن يكون هذا في المكان الذي عاشت فيه، ورأى أن أقل ما تستحقه هو أن يكرمها بفعل ما تريده.

دفنا والده في مقبرة صغيرة على أطراف بونفيل، وعاد ويليام إلى المزرعة مع أمه. لم يستطع النوم تلك الليلة. ارتدى ملابسه وسار في الحقل الذي ظل والده يعمل فيه عامًا بعد آخر حتى النهاية التي وصل إليها الآن. حاول تذكر والده لكن لم يحضر في ذهنه الوجه الذي عرفه به فترة شبابه. ركع على الأرض وقبض حفنة من التراب الجاف البارد. فركها وراقب الحبيبات، داكنة في ضوء القمر، تتفتت وتتسلل من بين أصابعه. نفض يده في بنطاله ونهض وعاد أدراجه إلى المنزل. لم ينم، رقد على الفراش يرقب النافذة الوحيدة حتى طلع الفجر، واختفت كل الظلال من على الأرض، وامتدت الأرض كلها أمامه رمادية قاحلة وبلا نهاية.

بعد وفاة أبيه كان ستونر يزور المزرعة في عطلاته الأسبوعية من حين

لآخر بقدر ما يمكنه، وكلما رأى والدته، وجدها تنحل وتشحب وتهدأ حتى بدا في النهاية أن عينيها الغائرتين اللامعتين هما فقط اللتان على قيد الحياة. في أيامها الأخيرة لم تتحدث معه قط، كانت عيناها تطرفان بوهن وهي تنظر إلى أعلى من فراشها، ومن حين لآخر تصدر تنهيدة صغيرة من بين شفتيها.

دفنها بجانب زوجها. وقف وحيداً بعد انتهاء المراسم ورحيل المعزّين القليلين، في رياح تشرين الثاني الباردة، ينظر إلى القبرين، أحدهما مفتوح لِحمله الجديد والآخر ممتلئ ومكسو بعشب خفيف، دار بنظره في المقبرة الصغيرة العارية من الأشجار التي تحوي آخرين مثل والديه، وشخص ببصره إلى الأرض الممتدة في اتجاه المزرعة التي وُلد فيها والتي قضى فيها والداه سنواتهما. فكر في الجهد الذي بذلته التربة، سنة تلو الأخرى، وبقائها كما كانت. صارت أجدب قليلاً ربما، أكثر شحاً في إثمارها. لم يتغير شيء. انقضت حياتهما في كدح مضنٍ، انكسرت إرادتيهما، وغاب ذهناهما. صارا الآن في الأرض التي منحاها حياتهما، وستأخذهما ببطء سنة بعد أخرى. سينفذ الرطب والعفن ببطء في أخشاب النعشين اللذين يحملان جسديهما، وسيلمس لحمهما ببطء، وفي النهاية سيستهلك آخر آثار جوهريهما. وسيغدوان جزءًا لا معنى له من تلك التربة العنيدة التي استسلما لها منذ أمد بعيد.

ترك توبي يمكث في المزرعة طوال الشتاء، وعرض المزرعة للبيع في ربيع ١٩٢٨ . اتفقا على أن يبقى توبي في المزرعة إلى أن يتم بيعها ويأخذ أياً ما يزرعه. أصلح توبي المكان بقدر ما أمكنه، رمم البيت وأعاد طلاء الحظيرة الصغيرة، ومع ذلك لم يستطع ستونر العثور على مشترٍ ملائم حتى ربيع ١٩٢٩ . قبل بأول عرض تلقاه، أكثر من ألفي دولار بقليل، أعطى توبي بضع مئات، وأرسل الباقي لحماه في نهاية آب سدادًا لجزء من قرض منزله في كولومبيا.

في تشرين الأول من ذاك العام، انهارت سوق الأسهم، وانشغلت الصحف بقصص من الوول ستريت عن ثروات ضاعت، ومصائر تبدّلت. مسّ الأمر أشخاصًا قليلين في كولومبيا، كان مجتمعًا محافظًا، ولا أحد من أبناء البلدة يملك أسهم أو سندات. لكن بدأت أخبار تنتشر عن انهيار مصارف في أرجاء البلاد، وانتابت بعض أبناء البلدة حالة من الحيرة، سحب مزارعون قليلون مدخراتهم، وأضاف قليلون آخرون (بناءً على طلب الصيارفة المحليين) إلى ودائعهم. لكن أحدً لم يفهم شيئًا حتى جاء نبأ انهيار مصرف خاص صغير، «ذا ميرشانتس تراست»، في سانت لويس.

كان ستونر يتناول غداءه في مقصف الكلية حين وصله الخبر، فعاد إلى المنزل على الفور ليخبر إديث. كان «الميرشانتس تراست» هو المصرف الذي منحهم قرض المنزل، والذي يترأسه والد إديث.

اتصلت إديث بسانت لويس تلك الظهيرة وتحدثت مع والدتها، كانت أمها مبتهجة وأخبرتها أن السيد بوستفيك أكد لها أنه لا داعي للقلق وأن كل شيء سيعود على ما يرام خلال أسابيع.

بعد ثلاثة أيام توفى بوستفيك منتحراً. ذهب إلى مكتبه في المصرف ذات صباح بمزاج رائق على غير العادة، حيّا العديد من موظفي المصرف الذين ما زالوا يعملون خلف أبوابه المغلقة، ودخل مكتبه بعد أن أخبر مساعدته ألا تحوّل إليه أي اتصالات، وأغلق بابه. حوالي العاشرة صباحاً، أطلق رصاصة على رأسه من مسدس كان قد اشتراه في اليوم السابق وأحضره معه في حقيبة أوراقه. لم يترك رسالة خلفه، لكن الأوراق الموضوعة بترتيب على مكتبه قالت كل ما كان عليه قوله، وكان ما عليه قوله ببساطة هو أنها كارثة مالية. كما فعل والده البوسطني قبله، استثمر استثمارات غير حكيمة، ليس ماله فقط، بل مال المصرف أيضاً، وكانت مصيبته مستحكمة إلى درجة أنه لم ير منها مخرجًا. حين

اتضح الأمر، عُرف أن الكارثة لم تكن ماحقة تماماً كما ظن قبل انتحاره. انتهى الأمر ببقاء المنزل بلا مساس، وبعض العقارات الصغيرة على أطراف سانت لويس أمدت زوجته بدخل صغير لبقية حياتها.

بيد أن ذلك كله لم يُعرف على الفور. تلقى ويليام ستونر المكالمة التي حملت خبر انهيار هورس بوستفيك وانتحاره، ونقل لإديث النبأ بالرقة التي سمحت بها غربتهما.

تلقت إديث النبأ بهدوء، كأنها كانت تتوقعه. نظرت إلى ستونر لدقائق دون أن تنبس بكلمة، ثم هزت رأسها وقالت بذهول: «يا لأمي المسكينة، ماذا ستفعل؟ كان يوجد أحد ما ليعتني بها دائماً. كيف ستعيش؟»

قال ستونر: «اخبريها...» وسكت بارتباك. «أخبريها أنها، إذا أرادت، يمكنها أن تأتي وتعيش معنا، ستكون محل الترحيب».

ابتسمت إديث له بمزيج غريب من الحب والرضا وقالت: «أوه يا ويلي، ستموت إن لم تفعل ذلك، ألا تعرف هذا؟»

أومأ ستونر قائلاً: «أعتقد أني أعرف».

وهكذا، غادرت إديث كولومبيا إلى سانت لويس، مساء اليوم الذي تلقى فيه ستونر المكالمة، لحضور الجنازة، ولتبقى هناك طالما احتاجتها أمها. حين انقضى على سفرها أسبوع تلقى ستونر منها رسالة تنبأه بأنها ستبقى مع أمها لأسبوعين آخرين، وربما أكثر. انقضى شهران تقريباً وويليام وحده في البيت الكبير مع ابنته.

في الأيام القليلة الأولى كان خلو البيت مزعجاً على نحو غريب وغير متوقع، لكنه اعتاده وبات يستمتع به، وخلال أسبوع شعر أنه يقضي أسعد أيام حياته منذ سنين، وحين يفكر في عودة إديث الحتمية كان

يتملّكه أسف لم يعد يخفيه عن نفسه.

أتمت ابنته عامها السادس في ربيع ذاك العام، وبدأت عامها الدراسي الأول في الخريف، كان يجهزها للمدرسة كل صباح، ويعود من الجامعة في الظهيرة قبل عودتها إلى البيت.

في السادسة كانت جريس فتاة طويلة رشيقة بشعر أشقر أكثر منه أحمر، بشرتها صافية تماماً وعيناها زرقاوان داكنتان، بنفسجيتان تقريباً. كانت هادئة وبشوشة، وتفرح لأشياء تثير لدى والدها ما يشبه الحنين إلى القدسية.

أحياناً تلعب مع أولاد الجيران، لكنها غالباً ما تجلس مع والدها في غرفة مكتبه الضخمة تراقبه وهو يصحح الأوراق أو يقرأ أو يكتب. كانت تتحدث معه وتدور بينهما حوارات هادئة وجادة تجعل قلب ويليام ستونر يذوب بعواطف لم يكن ليتخيلها قط. كانت جريس ترسم صورًا غريبة وساحرة على أوراق صفراء وتعرضها بجهامة على أبيها، أو تقرأ له بصوت عالٍ من كتاب القراءة للصف الأول الدراسي. في الليل، حين يضعها في فراشها ويعود إلى غرفته، كان يشعر بغيابها عن غرفته ويطمئن لحقيقة أنها نائمة في أمان فوقه. بدأ تعليمها على نحو لم يعي له تقريباً، وراقبها بذهول وحب وهي تنمو أمامه ويبدو على وجهها الذكاء المتقد بداخلها.

لم تعد إديث إلى كولومبيا حتى بداية العام الجديد، فقضى ويليام ستونر وابنته عيد الميلاد وحدهما. تبادلا الهدايا صباح عيد الميلاد. صنعت جريس في المدرسة التقدمية بحذر الملحقة بالجامعة، منفضة سجائر غير متقنة لأبيها الذي لا يدخن. وأهداها ويليام فستانًا جديدًا ابتاعه لها من محل في وسط البلدة، وبضعة كتب، وعدة تلوين. جلسا معظم اليوم أمام الشجرة الصغيرة، يتحدثان ويرقبان بريق انعكاسات

الضوء على الزينة واللمعة الفضية لنبات التنوب الأخضر الداكن مثل النار الخامدة.

في عطلة عيد الميلاد، تلك الوقفة الغريبة في خط سير الفصل الدراسي، أدرك ويليام ستونر شيئين: أهمية جريس المحورية لوجوده، وأنه سيضحى مدرساً جيداً.

كان على استعداد لأن يعترف لنفسه بأنه لم يكن مدرساً جيداً. كان دائماً، منذ كان يركض من فصل لآخر يدرس القواعد الأساسية لطلبة السنة الأولى، ما يشعر بالفجوة بين ما يفكر فيه وما يلقيه في قاعة الدرس. أمِلَ أن يعالج الوقت والخبرة تلك الفجوة، لكنهما لم يفعلا. تنجرح الأشياء التي يحملها بداخله بعمق حين يتحدث عنها في الدرس، يذبل في كلماته كل ما هو مفعم بالحياة، ويتحول ما يحركه داخله بشدة إلى شيء بارد حين يصاغ في كلمات. أحزنه بشدة وعيه بعدم كفاءته حتى صار الحزن عادة، جزء لا يتجزأ منه، مثل انحناءة كتفيه.

لكنه في الأسابيع التي قضتها إديث في سانت لويس، ألفى نفسه، حين يحاضر، يسترسل من حين لآخر في موضوعه فينسى نفسه، وعدم كفاءته، وطلبته الجالسين أمامه حتى. كان من فرط الحماسة يتلعثم ويستخدم يديه للتعبير ويتجاهل ملحوظات المحاضرة التي يسترشد بها عادة في حواراته. في البدء أزعجته تلك الشطحات، كأنه يتطاول على موضوعه، وكان يعتذر من طلبته، لكن حين بدأوا يأتون إليه بعد الدرس وتكشفت في أوراقهم بوادر خيال وود وجِل، واتته الشجاعة لفعل ما لم يتعلم فعله من قبل قط. بدأ يبوح بحبه للأدب، اللغة، غموض الفكر والقلب الذي يتكشف للحظة غريبة وفي تركيبة غير متوقعة من الحروف والكلمات، بحروف مطبوعة سوداء باردة.. الحب الذي كتمه كأنه وزر وخطأ جسيم، بدأ يكشف عنه، بتردد في البداية، ثم بجرأة، ثم بفخر.

أحزنه وأسعده في نفس الوقت اكتشافه لما بمقدوره أن يفعله، شعر أنه كان يخون نفسه وطلبته دون قصد منه. صار الطلبة الذين كانوا، حتى ذلك الحين، يتدبرون أمرهم لاجتياز مواده بخطوات ميكانيكية مكررة ينظرون إليه الآن بحيرة واستياء، والذين لم يحضروا محاضراته من قبل بدأوا يحضرونها ويحيونه برؤوسهم في الأروقة. كان يتحدث بمزيد من الثقة ويشعر بقوة صلبة ودافئة تتشكل بداخله. خطر له أنه يبدأ، متأخراً عشر سنوات، في اكتشاف نفسه، وكان من رآه لا بأكثر ولا بأقل مما تخيله عن نفسه من قبل. شعر بنفسه أخيراً بدأ يكون مُعلّما، والمُعلِّم بالنسبة له ببساطة هو الرجل الذي يعتبر كتبه الحقيقة، الذي وُهِب كرامة الفن بغض النظر عن حماقته أو ضعفه أو عدم كفاءته كرجل. كان إدراكًا يستعصي عليه التحدث عنه، لكنه غيّره ما إن دار بخلده، على نحو لا يخطئه أحد.

وهكذا، حين عادت إديث من سانت لويس، وجدته متغيرًا على نحو لم تستطع فهمه لكنها لاحظته على الفور. عادت دون إخطار في قطار الظهيرة، عبرت غرفة الجلوس إلى المكتب حيث يجلس زوجها وابنتها في هدوء. كانت ترغب في مفاجئتهما بظهورها المفاجئ ومظهرها المختلف، لكن حين تطلع ويليام إليها، ورأت المفاجأة في عينيه، عرفت فوراً أن التغيير الحقيقي قد حدث له هو، وأنه تغيير جذري إلى درجة أن تأثير ظهورها معدوم، قالت لنفسها بشرود قليلاً وذهول مع ذلك، أنا أعرفه أفضل مما كنت أتخيل.

فوجئ ويليام بظهورها وبمظهرها المختلف، لكنهما لم يعودا يحركانه الآن كما كانا يحركانه من قبل. نظر إليها لعدة دقائق ثم نهض عن مكتبه، سار عبر الغرفة، وحياها برصانة.

كانت قد قصّت شعرها وارتدت إحدى تلك القبعات التي تحتضن رأسها بشدة حتى يلتصق الشعر القصير برأسها كإطار غير متقن،

وتضع أحمر شفاه برتقالي، وبقعتان من أحمر الخدود يحددان عظمتي وجنتيها. كانت ترتدي فستانًا قصيرًا على غرار موضة الشابات الأصغر سناً خلال السنوات القليلة الماضية، يتهدل منبسطًا من كتفيها حتى ركبتيها، ابتسمت بثقة لزوجها وسارت عبر الغرفة صوب ابنتها التي جلست على الأرض تتطلع إليها بهدوء وجدية، ركعت بارتباك، فستانها الجديد يضيق حول ساقيها.

قالت بصوت بدا لويليام متكلّف وبارد: «جرايسي، حبيبتي، هل افتقدت أمك؟ هل ظننتِ أنها لن تعود ثانيةً أبداً؟»

قبّلت جريس أمها على خدها ونظرت لها برزانة. قالت: «تبدين مختلفة».

ضحكت إديث ونهضت عن الأرض، دارت في الغرفة وهي ترفع يديها فوق رأسها وقالت: «لدي فستان جديد، وحذاء جديد وتسريحة شعر جديدة. هل أعجبتك؟»

أومأت جريس برأسها بتردد وقالت مرة أخرى: «تبدين مختلفة».

اتسعت ابتسامة إديث، التصق بعض أحمر الشفاه على أسنانها. استدارت لويليام وسألته: «هل أبدو مختلفة؟»

قال ويليام: «نعم. فاتنة جداً، جميلة جداً».

ضحكت له وهزت رأسها قائلة: «يا ويليام المسكين». ثم استدارت مجددًا لابنتها وقالت لها: «أنا مختلفة على ما أعتقد. أعتقد حقاً أنني مختلفة».

لكنه عرف أنها توجه كلامها له هو. وعرف في تلك اللحظة أيضاً، بطريقة ما، أن إديث، رغمًا عنها، وبلا فهم، ودون حتى أن تعي، تحاول

إرسال إعلان حرب جديدة.

vi.

كان إعلان الحرب جزءًا من حملة التغيير التي نفذتها خلال الأسابيع التي قضتها في «البيت» في سانت لويس بعد وفاة أبيها. وقد زاد من حدته، ومنحه أخيراً هدفًا وزخمًا، ذلك التغيير الآخر الذي انتاب وتغلغل في ويليام ستونر لاكتشافه إنه قد يضحي معلِّما جيداً.

لم تكن إديث قد حزنت لوفاة أبيها كثيرًا. جلست أثناء المراسم المملة منتصبة القامة بوجه جامد لم تتغير تعبيراته حين وجب عليها أن تمر بجسد أبيها المسجى لامعًا وممتلئاً في النعش. لكنها، في المدافن، حين كانوا على وشك وضع النعش في الحفرة المكسوة بعشب صناعي، وضعت وجهها الخالي من التعبير في يديها ولم ترفعه حتى ربت أحدهم على كتفها.

بعد الجنازة، قضت عدة أيام في حجرتها التي كبرت فيها، دون أن ترى والدتها سوى على الإفطار وعلى العشاء. قيل للزوار إن حزنها ما يجعلها تنعزل. قالت والدة إديث بغموض: «كانا مقربين جداً. أكثر قرباً بكثير مما بدا عليهما».

لكن إديث في تلك الحجرة، كانت تسير على نحو ما كمن يسير بحرية لأول مرة، تلمس الجدران والنوافذ، تجس صلابتها. جلبوا لها من العليّة صندوقًا مليئًا بأمتعة طفولتها. فتشت في أدراج مكتبها التي ظلت دون أن تُمس لأكثر من عشر سنوات. وباستمتاع شديد بالفراغ، كمن يملك كل الوقت، راحت تتفحص أشياءها، وتُغرَم بها، تقلبها على هذا النحو وذاك، وتفحصها بعناية تخالطها هيبة. وجدت رسالة

تلقتها وهي طفلة، قرأتها من بدايتها حتى نهايتها كأنها تقرأها لأول مرة، وحين وجدت دمية منسية، ابتسمت وربتت على خديها الفخاريين المطليين، كأنها عادت طفلة مرة أخرى وهي تتلقى الهدية.

جمعت في النهاية كل أمتعة طفولتها في كومتين، واحدة للعب والحلي التي حصلت عليها بنفسها، وصور ورسائل سرية من زملاء الدراسة، وهدايا تلقتها من أقارب بعيدين ذات مرة. والأخرى للأشياء التي جلبها لها والدها أو التي ترتبط به بشكل مباشر أو غير مباشر. فرغت لتلك الكومة الأخيرة، وبمنهجية وجفاف، بلا غضب ولا فرح، ظلت تأخذ منها شيئًا بعد الآخر وتدمره. حرقت الرسائل والملابس والدمى المحشوة ووسادات الدبابيس والصور في المدفأة، وسحقت الرؤوس الفخارية والخزفية وأيادي الدمى وأذرعها وسيقانها إلى مسحوق ناعم في المستوقد، وكنست ما تبقى بعد الحرق والسحق في كومة صغيرة ألقتها في الحمام الملحق بحجرتها وضخت عليها المياه.

بعد انتهاء الأمر- خلت الحجرة من الدخان، وكُنِس المستوقد، وعاد ما تبقى من أشياء إلى الأدراج- جلست إديث بوستفيك ستونر إلى مرآتها ونظرت إلى نفسها، طبقة المرآة الفضية الخلفية زائلة ومتقشرة، لم تعكس أجزاء متفرقة من صورتها، أو لعلها لم تعكس صورتها البتة، ما منح وجهها مظهرًا غير مكتمل على نحو غريب. كانت في الثلاثين، بدأت لمعة الشباب تذوي في شعرها، وبدت خطوط صغيرة تحيط بعينيها، وبدأ جلد وجهها يقسو حول عظمتي وجنتيها الحادين. أومأت لصورتها في المرآة ونهضت بغتة، وهبطت إلى الطابق الأرضي، حيث تحدثت مع أمها ببهجة وحميمية لأول مرة منذ أيام.

أرادت (حسب قولها) أن تغيّر نفسها، بعد أن ظلت على ما هي عليه لوقت طويل للغاية، تحدثت عن طفولتها وزواجها. ومن مصادر ليس بمقدورها التحدث عنها، إلا بغموض وحيرة، حددت تصور لما تتمنى

أن تكون عليه، وظلت طوال الشهرين اللاحقين اللذين قضتهما في سانت لويس مع أمها، لا تألو جهدًا لتحقيق هذا.

سألت أمها أن تقرضها مبلغًا من المال، فمنحتها إياه كهدية في نوبة كرم. اشترت ملابس جديدة وحرقت كل القديمة التي أتت بها من كولومبيا، قصّت شعرها على الطراز الحديث، اشترت عطورًا وأدوات زينة ظلت تتدرب على استخدامها يوميًا في غرفتها. تعلمت التدخين واخترعت طريقة كلام متكلفة، ذات لكنة إنجليزية، وصاخبة قليلاً. عادت إلى كولومبيا بهذا التغيير الخارجي الذي أتقنته، وبتغيير آخر سري وكامن بداخلها.

خلال الأشهر القليلة التي تلت عودتها لكولومبيا كانت تقوم بأنشطتها كالمحمومة، لم يعد تمارضها ضرورياً. انضمت لمجموعة مسرحية صغيرة وانهمكت في العمل الذي منحوه لها، كانت تصمم وتطلي المناظر، وتتولي شؤون تمويل المجموعة، وأحياناً تلعب أدوارًا صغيرة في عروضهم. كان ستونر حين يعود من الجامعة في الظهيرة يجد غرفة الجلوس مزدحمة بأصدقائها، وغرباء ينظرون إليه بصفته هو الدخيل، فيومئ لهم بأدب ويتجه لغرفة مكتبه، حيث يمكنه سماع أصواتهم الخطابية مكتومة من خلف الجدران.

اشترت بيانو قائم مستخدَم ووضعته في غرفة الجلوس، بعرض الحائط الفاصل بينها وبين غرفة مكتبه. كانت قد تركت تمرينات الموسيقا قبل زواجها بوقت قصير، وتبدأ الآن من نقطة الصفر تقريباً، تتمرن على السلم الموسيقي وتكد في تمرينات صعبة للغاية عليها، أحيانًا تعزف لمدة ساعتين أو ثلاثة يومياً، وغالباً في المساء بعد أن تذهب جريس لفراشها.

زاد عدد الطلبة الذين يدعوهم ستونر لمنزله وزادت الاجتماعات المتكررة، ولم تعد إديث ترغب في البقاء في الدور العلوي، بعيدًا عن

الاجتماعات. كانت تصر على تقديم الشاي أو القهوة لهم، وكانت تجلس معهم حين تفعل ذلك. تتحدث بصخب ومرح وتتعمد توجيه دفة الحوار نحو عملها في المسرح الصغير، أو موسيقاها، أو رسمها ونحتها اللذين تخطط (كما أعلنت) للعودة إليهما مجددًا ما إن تجد الوقت لذلك. توقف الطلبة عن المجيء تدريجياً تحرّجاً وتعجُّباً، وبدأ ستونر يجتمع معهم لشرب فنجان قهوة في مقصف الكلية أو في المقاهي الصغيرة المتناثرة حول الحرم.

لم يتحدث معها حول سلوكها الجديد، لم تسبب له أفعالها سوى قدر قليل من الازعاج، وبدت سعيدة، على رغم اليأس الذي يشوب هذه السعادة. كان في النهاية يُحمّل نفسه مسؤولية المسار الجديد الذي اتخذته حياتها، إذ لم يستطع أن يمنحها معنى لحياتهما معاً، أو لزواجهما. لذلك حقّ لها أن تعثر على أي معنى قد تجده في مجالات لا تمت له بصلة، وأن تذهب في طرق لا يمكنه سلكها معها.

أمدّه نجاحه الجديد في التدريس، وشعبيته بين أوائل الطلبة الخريجين، بالشجاعة لبدأ العمل على كتاب جديد في صيف ١٩٣٠ صار يقضي معظم وقت فراغه تقريباً في المكتب. ظل هو وإديث يتظاهران بمشاركة غرفة نوم واحدة لكنه كان نادرًا ما يدخلها، وإن حدث فلا يكون ليلاً أبداً. كان ينام على أريكة المكتب ويحتفظ بملابسه في خزانة صنعها لهذا الغرض ووضعها في أحد أركان الغرفة.

كان يقضي وقتًا طويلاً مع جريس، اعتادت منذ غياب أمها الطويل، أو ربما بسببه، أن تقضي معظم وقتها مع أبيها في غرفة مكتبه، حتى إنه وجد لها مكتبًا وكرسيًا صغيرين، فصار مكانها للقراءة ولإنجاز فروضها المدرسية. كانا يتناولان أغلب وجباتهما معاً وحدهما، إذ كانت إديث خارج البيت معظم الوقت، وحين تبقى في البيت كانت تقيم لأصدقائها المسرحيين حفلات صغيرة لا تسمح بوجود أطفال.

ثم فجأة بدأت إديث تمكث في البيت. بدأوا يتناولون الوجبات ثلاثتهم معاً مجدداً، حتى إن إديث قامت بعدة خطوات للاهتمام بالمنزل. كان المنزل هادئاً، وبقي البيانو دون استخدام، حتى علت مفاتيحه طبقة من التراب.

وصلا لتلك النقطة من حياتهما حيث يندر أن يتحدث أحدهما عن نفسه أو مع الآخر، دون الإخلال بالتوازن الدقيق الذي يجعل حياتهما معاً ممكنة. لذلك استغرق ستونر وقتًا طويلاً من التردد والتفكير في العواقب قبل أن يسألها إن كان ثمة خطب ما.

كانا على مائدة العشاء وقد استأذنت جريس وذهبت بكتاب إلى مكتب ستونر.

سألته إديث: «ماذا تعني؟»

قال: «مر وقت طويل دون أن يجيء أصدقاؤك، ولم تعودي منشغلة للغاية بعملك المسرحي، فكنت فقط أسأل إن كان ثمة خطب ما».

سحبت سيجارة من علبة سجائرها الموضوعة بجانب طبقها بحركة ذكورية تقريباً وحشرتها بين شفتيها، وأشعلتها بسيجارة أخرى لم تكن قد أنهتها، مجّت نفسا عميقاً، ومالت برأسها للوراء دون أن تُخرج السيجارة من فمها، نظرت إلى ويليام بعينين ضيقتين هازئتين حذرتين. قالت: «لا خطب، أنا فقط مللتهم ومللت العمل معهم. أثمة خطب في هذا؟» قال: «لا. ظننت فقط أنك لست على ما يرام أو شيء كهذا».

لم يفكر في الأمر لأكثر من هذا، نهض بعد قليل تاركًا المائدة واتجه إلى غرفة مكتبه حيث كانت تجلس جريس إلى مكتبها مستغرقة في كتابها. انعكس ضوء مصباح المكتب على شعرها ملقياً حول وجهها الصغير الجاد هالة حادة. فكر ويليام أنها كبرت قليلاً خلال العام الأخير، وشعر

بغصّة حزن صغيرة غير مؤلمة في حلقه، ابتسم وذهب بهدوء إلى مكتبه.

انهمك في عمله خلال دقائق قليلة. كان قد أنهي أعمال التدريس، صحح الأوراق وحضّر محاضرات الأسبوع المقبل كله. منّى نفسه بالأمسية التي بين يديه وما سيليها من أمسيات سيمكنه فيها العمل على كتابه. لم يكن ما يريد أن يفعله في هذا الكتاب واضحاً له بدقة بعد، لكنه بصفة عامة أراد أن يصل إلى أفق أبعد من دراسته الأولى، سواء زمنياً أو موضوعياً. أراد أن يعمل على حقبة النهضة الإنجليزية وأن يوسّع دراسته في أثر التراث اللاتيني الكلاسيكي والأوسط في تلك الحقبة. كان في مرحلة التخطيط لدراسته، وكانت تلك المرحلة الأمتع بالنسبة له- الاختيار من بين مقاربات بديلة، تنحية استراتيجيات جانباً، الغموض والحيرة الكامنان في الاحتمالات غير المكتَشفة، عواقب أي اختيار.. كان ما يجده من احتمالات يثيره إلى حد لا يعود قادرًا على البقاء ساكناً. نهض عن مكتبه يذرع الخطى في الغرفة قليلاً، وتحدث مع ابنته بما يشبه الفرح المحبَط، رفعت له بصرها وأجابته.

فهمت مزاجه، وأضحكها شيء ما قاله، فضحك الاثنان معاً بعبث كأنهما طفلان. انفتح باب غرفة المكتب فجأة، وتدفق الضوء القوى الآتي من غرفة الجلوس في الخلوة الظليلة لغرفة المكتب. وقفت إديث في مستطيل من هذا الضوء. قالت بحدة وبطء: «جريس، والدك يحاول العمل، يجب ألا تزعجيه».

بهت ويليام وابنته من هذا التدخل المفاجئ إلى درجة أنهما ظلا بلا حراك دون أن ينبسا بكلمة لعدة دقائق، ثم تدبر ويليام أن يقول: «لا بأس يا إديث، إنها لا تزعجني».

قالت إديث كأنه لم يقل شيء: «جريس، هل سمعتني؟ اخرجي من هنا فوراً».

نهضت جريس من على كرسيها حائرة وسارت عبر الغرفة. توقفت في منتصفها ونظرت لأبيها أولاً ثم لأمها. كانت إديث على وشك أن تقول شيئاً لكن ويليام قاطعها موجهاً كلامه لجريس بأقصى ما أمكنه من رقة: «لا بأس، اذهبي مع أمك».

ما أن غادرت جريس المكتب، حتى قالت إديث لزوجها: «لقد نالت الطفلة حرية أكثر مما تتحمل. ليس طبيعياً بالنسبة لمن في مثل سنها أن يكونوا بهذا الهدوء، وهذا الانطواء. لقد ظلت وحيدة فترة طويلة للغاية. يجب أن تكون أكثر حيوية، وأن تلعب مع أطفال في مثل سنها. ألم تلحظ كم كانت تعيسة؟»

وصفقت الباب قبل أن يجيبها.

لم يتحرك لوقت طويل. نظر إلى مكتبه، تبعثرت فوقه الأوراق والكتب، سار إليه ببطء، رتب الأوراق والكتب بلا حماس. وقف هناك لعدة دقائق أخرى مقطّبًا حاجبيه كأنه يحاول تذكر شيء ما. ثم استدار مرة أخرى واتجه نحو مكتب جريس الصغير؛ وقف هناك لوقت كما وقف عند مكتبه، أطفأ مصباح المكتب، فصار سطح المكتب رماديًا جامدًا، وسار إلى الأريكة حيث رقد بعينين مفتوحتين يحدق في السقف.

استوعب هول الأمر تدريجياً، لذلك كان قد انقضى عدة أسابيع قبل أن يصارح نفسه بما كانت إديث تقوم به، وحينها لم يندهش تقريباً. كانت إديث تشن حملة شعواء بمهارة وحذق بحيث لا يجد أي أسباب منطقية للشكوى. بعد دخولها المباغت شبه المتوحش، الذي بدا له بعد ذلك تقنية الهجوم المفاجئ، صارت إستراتيجيتها غير مباشرة، وأكثر هدوءًا واحتواءً. إستراتيجية متنكرة بقناع الحب والاهتمام، لذلك كان لا حول له ولا قوة في مواجهتها.

صارت إديث الآن تمكث في البيت طوال الوقت تقريباً. تنشغل

بالنهار وبداية الظهيرة، فترة وجود جريس في المدرسة، بإعادة تصميم ديكور غرفة نوم جريس، نقلت المكتب الصغير من غرفة مكتب ستونر، أصلحته مجددًا وأعادت طلاءه بلون زهري باهت، وربطت على سطحه شريطة عريضة من الساتان المنفوش من لون مقارب، فانتفت كل صلته بالمكتب الذي اعتادت جريس استعماله. وقامت في أحد الأيام، وجريس قابعة بجانبها بهدوء، بتفحّص كل الملابس التي اشتراها ويليام لجريس، استبعدت معظمها، ووعدت جريس بأنهما سيذهبان في العطلة القادمة إلى وسط المدينة ليستبدلا الملابس المستبعدة بملابس أكثر أناقةً، أشياء «بناتيّة». وقد فعلتا. عادت إديث في آخر النهار في أحد الأيام، متعبة لكنها منتصرة، بحمل من الحقائب وابنة مرهقة وغير مرتاحة وتعيسة في ثوب جديد منشّى وبكشكشات لا تحصى، تبرز ساقاها من حاشيته المنتفخة كعصاوين مثيرتين للشفقة. اشترت إديث لابنتها دمى ولعب وظلت تحلّق حولها وهي تلعب بها، كأنه فرض مدرسي. وبدأت معها دروس البيانو وكانت تجلس بجانبها على المقعد أثناء التمرين. كانت تقيم لها حفلات صغيرة بمناسبة وبغير مناسبة، تدعو إليها أطفال الجيران، الذين يأتون بوجوه انتقامية ومتجهمة في ملابسهم الرسمية الجامدة، وفرضت رقابة صارمة على قراءة ابنتها وفروضها المدرسية، ومنعتها من المذاكرة بعد الوقت المخصص لهذا.

صار الآن ضيوفها من الجارات الأمهات. يأتين في الصباح ليشربن القهوة ويدردشن وأطفالهن في المدرسة. بعد الظهر كن يحضرن معهن أطفالهن ويراقبنهم وهم يلعبون في غرفة الجلوس الفسيحة، ويتحدثن بلا هدف بأصوات تعلو فوق صوت اللعب والركض.

في فترات بعد الظهر تلك كان ستونر يبقى في غرفة مكتبه، ويمكنه سماع ما تقوله الأمهات وهن يتحدثن بصوت عالٍ عبر الغرفة يعلو فوق أصوات أطفالهن.

ذات مرة، خمدت الضجة مؤقتاً، وسمع إديث تقول: «مسكينة جريس، مرتبطة جداً بأبيها لكن ليس لديه وقت لها.. عمله، كما تعرفن.. وقد بدأ العمل على كتاب جديد...»

راقب يديه الممسكتين بالكتاب وقد بدأتا في الارتعاش، على نحو غريب ومنفصل تقريباً. ارتعشتا لدقائق عديدة قبل أن يعيد السيطرة عليهما بدسهما في عمق جيبيه، وقبضهما، وإبقائهما هناك.

نادرًا ما يرى ابنته الآن، يتناول ثلاثتهم الوجبات معاً لكنه في تلك الأوقات لم يكن ليجرؤ على الحديث معها، لأن إديث ما أن تبدأ جريس في الرد عليه، تجد خطأً ما في جريس، في آداب المائدة أو في طريقة جلوسها على الكرسي فتشرع بالتوجيه والتصحيح بحدة، وتظل ابنتها صامتة وخافضة العينين لبقية الوقت.

بدأ جسد جريس، النحيف أساساً، ينحف أكثر، كانت إديث تضحك منها قائلة: «تكبرين لكنك لا تبرزين». صارت عيناها مؤرقتين، ومجهدتين تقريباً. غدا الوجه الساكن الوديع إما كئيب بائس عند أحد طرفي النقيض، أو مبتهج بحيوية على هاوية الهستيريا عند الطرف الآخر، باتت نادرًا ما تبتسم، مع إنها تضحك كثيراً. وكانت حين تبتسم يبدو كأن شبحًا عبر بوجهها. قابل ويليام ابنته صدفة ذات مرة في غرفة الجلوس فيما كانت إديث في الطابق العلوي. ابتسمت جريس له بخجل، فركع رغمًا عنه على الأرض واحتضنها. شعر بجسدها يتخشب ورأى وجهها يعتريه الارتباك والخشية. نهض مبتعدًا عنها برقة، ردد شيئًا ما بلا معنى، وانسحب لغرفة مكتبه.

في الصباح التالي ظل جالسًا إلى مائدة الإفطار حتى غادرت جريس إلى المدرسة، مع علمه بأنه سيتأخر على محاضرة التاسعة صباحاً. لم تعد إديث إلى حجرة السفرة بعد أن ودعت جريس على الباب، وعرف أنها

تتجنبه، ذهب إلى غرفة الجلوس حيث تجلس زوجته على أحد طرفي الأريكة بفنجان قهوة وسيجارة.

قال بدون مقدمات: «إديث، أنا لا يعجبني ما يحدث لجريس».

قالت فوراً كأنها تلتقط إشارة البدء في عرض مسرحي: «ماذا تقصد؟»

انهار على الطرف الآخر من الأريكة، بعيداً عنها. غلبه شعور بقلة الحيلة، وقال بسقم: «أنت تعرفين ما أقصده. اتركي لها الحبل قليلاً.. لا تقسي عليها بشدة هكذا».

سحقت إديث سيجارتها في طبق الفنجان. «جريس في أسعد حالاتها الآن، لديها أصدقاء وأشياء تشغلها. أعرف أنك مشغول جدًا فلم تلاحظ ذلك.. لكن بالتأكيد رأيت كيف تبدو منفتحة أكثر مؤخراً. وهي تضحك. لم تتعود أن تضحك، لم تضحك قط تقريباً».

نظر إليها بذهول تام وقال: «أنت تصدقين هذا، أليس كذلك؟»

«بالطبع أصدقه. أنا أمها».

أدرك أنها تؤمن بما تقوله حقاً. هز رأسه وقال بما يشبه الهدوء: «لم أرغب قط في الاعتراف بهذا لنفسي، لكنك تكرهينني حقاً، أليس كذلك إديث؟»

قالت بذهول حقيقي في صوتها: «ماذا؟ أوه، ويلي». وضحكت بوضوح وأريحية. «لا تكن أحمق. بالطبع لا. أنت زوجي».

«لا تستخدمي الطفلة». لم يستطع منع صوته من الارتعاش. «ليس عليك فعل ذلك بعد الآن. أي شيء آخر. لكن إن استمريت في استخدام جريس، سوف...» ولم يكمل.

قالت بعد برهة: «سوف ماذا؟» بهدوء وبلا تحدٍ. «كل ما يمكنك هو أن تتركني، وأنت لن تفعل هذا، نحن الاثنان نعرف هذا».

أومأ قائلاً: «أنتِ محقة». نهض لا يرى شيئًا وسار إلى غرفة مكتبه. أخذ المعطف من الخزانة والحقيبة من جانب المكتب وفيما يعبر غرفة الجلوس تحدثت معه مجدداً: «ويلي، لم أكن لأؤذي جريس، يجب أن تعرف هذا، أنا أحبها، إنها ابنتي الوحيدة».

وكان يعرف أنها محقة، إنها تحبها فعلاً. جعلته تلك الحقيقة يكاد أن يصرخ. هز رأسه وخرج للهواء الطلق.

حين عاد إلى البيت ذلك المساء وجد إديث قد قضت يومها، بمساعدة اثنين من الحماليّن أتت بهما من البلدة، في نقل جميع أمتعته خارج غرفة مكتبه. تكومت الأريكة والمكتب في أحد أركان غرفة الجلوس، وأُلقيَ بجوارهما بإهمال، كومة ملابسه، وأوراقه، وكتبه كلها.

أخبرته أنها قررت- بما أنها ستقضي المزيد من الوقت في المنزل الآن- أن تعود لرسمها ونحتها مجدداً، وأن غرفة مكتبه، بإضاءة نافذتها الشمالية ستمنحها الإضاءة الوحيدة المعقولة في المنزل كله. وأنها تعرف أنه لن يمانع، وأن بإمكانه الانتقال إلى الشرفة الشمسية ذات الزجاج الداكن في خلفية المنزل، وهي أبعد عن غرفة الجلوس من غرفة مكتبه، وسيحظى بالمزيد من الهدوء لإنجاز عمله. لكن الشرفة الشمسية ضيقة للغاية فلم يستطع ترتيب كتبه فيها، وكذلك لم تسع المكتب ولا الأريكة اللذين كانا في غرفة مكتبه، فوضعهما في القبو. كان من الصعب تدفئتها في الشتاء، وفي الصيف - كما توقع - كانت الشمس تضرب من خلال الزجاج الذي يؤطر الشرفة فيجعلها غير صالحة للسكن تقريباً. مع ذلك عمل هناك لعدة شهور. جاء بطاولة صغيرة بدلاً من المكتب واشترى مدفأة محمولة مشعة ليخفف قليلاً من البرودة التي تتسرب ليلاً من بين

الفتحات الرفيعة لجوانب الألواح. وكان في الليل ينام على أريكة غرفة الجلوس متدثرًا ببطانية.

بعد عدة شهور من السلام النسبي رغم التوتر، بدأ يجد، عند عودته من الجامعة بعد الظهر، مخلفات وعلب سلع مستهلكة، مصابيح مكسورة، أبسطة ممزقة، علب صغيرة وصناديق خردوات ملقاة بإهمال على أرضية الشرفة التي صارت الآن غرفة مكتبه.

قالت إديث: «الجو رطب للغاية في القبو. ستفسدها الرطوبة، أنت لا تمانع في أن أتركها هنا لبعض الوقت أليس كذلك؟»

عاد إلى البيت بعد الظهر ذات يوم ربيعي أثناء عاصفة مطرية، واكتشف أن أحد الألواح الزجاجية قد انكسر بطريقة ما وأفسد المطر عدة كتب وكثيرًا من ملحوظاته. بعد ذلك بعدة أسابيع، عاد إلى المنزل ليجد جريس وبعض أصدقائها قد سُمح لهم باللعب في الشرفة، وأن المزيد من ملحوظاته وصفحات قليلة من مخطوطة كتابه الجديد قد مُزِّقت تماماً. قالت إديث: «لقد سمحت لهم الدخول هناك لدقيقة فقط، ليس لديهم مكان ليلعبوا فيه، لكن لم تكن لدى أدنى فكرة، يجب أن تتحدث مع جريس، لقد أخبرتها كم أن عملك مهم بالنسبة لك».

عندئذ استسلم. نقل ما أمكنه نقله من كتب لمكتبه في الجامعة الذي يشاركه فيه ثلاثة أساتذة أصغر منه، وظل من حينها يقضي أغلب الوقت الذي اعتاد أن يقضيه في البيت في الجامعة، ولا يعود إلى البيت مبكراً إلا حين يجعله شوقه لرؤية ابنته أو التحدث معها ولو قليل عاجزاً عن البقاء بعيدًا.

لكن المكتب لم يسع سوى القليل من كتبه فكان غالباً ما يقطع عمله في المخطوطة لعدم وجود النصوص الضرورية معه، إلى جانب أن أحد زملائه في المكتب اعتاد أن يعقد اجتماعات للطلبة في المساء، وكانت

همهمة المحادثات المنهَكة التي تصل له عبر الحجرة تشتته فيستعصي عليه التركيز. فقد اهتمامه بالكتاب وصار عمله بطيئًا، ثم توقف تماماً. أدرك فجأة أن عمله كان ملجأ أو ملاذًا أو ذريعة ليحضر إليه ليلاً. كان يقرأ ويدرس ويعثر في النهاية على بعض الراحة، بعض المتعة، يعثر حتى على شبح البهجة القديمة التي كان يجدها في الدراسة بلا غرض محدد.

وهدأت إديث في سعيها للاستحواذ على جريس، فعادت الطفلة تبتسم له من حين لآخر وتتحدث معه بأريحية أحياناً. فشعر بأن العيش ممكناً، وحتى السعادة ممكنة، من حين لآخر.

vii.

ظلت الرئاسة المؤقتة لقسم الأدب الإنجليزي، التي تولاها جوردون فينش بعد وفاة آرشر سلوان، تُجدد له عامًا بعد آخر، حتى اعتاد جميع أعضاء القسم على هرمية اتفاقية يتم بها جدولة المحاضرات وتدريسها، والتعيينات الجديدة لطاقم العمل، والعناية بالتفاصيل التافهة في القسم بطريقة ما، ويتم بها، وبهذا المنوال، توالت السنوات. كان المعروف عموماً أن الرئيس الدائم سيتم تعيينه بأسرع ما يمكن، ليتولى فينش منصب عميد كلية الآداب والعلوم، وهو منصب يتولاه فينش في الحقيقة، وإن لم يكن رسميًا، فجوزيه كلاريمونت يهدّد بألا يموت أبداً، ومع ذلك لم يعد الآن يُرى متجولاً في الأروقة إلا نادراً.

سار أعضاء القسم على نهجهم، يلقون المحاضرات التي ألقوها العام الماضي، يتزاورون في مكاتبهم في الساعات الفارقة بين المحاضرات، كانوا يجتمعون رسميًا فقط في بدايات الفصول الدراسية حين يدعو فينش لاجتماع قسم متكلف، وكان في هذه المناسبات أن يرسل إليهم عميد كلية الخريجين بمذكرات تطلب منهم عمل اختبارات شفوية وتحريرية للطلبة الخريجين الذين يوشكون على إنهاء أعمالهم.

كانت تلك الاختبارات تستهلك وقتاً متزايداً من ستونر. لدهشته كان قد بدأ يستمتع بشعبية متواضعة كأستاذ، كان عليه أن يرفض بعض الطلبة الخريجين الذين أرادوا دراسة منهج السنة الأخيرة في التراث اللاتيني وأدب النهضة الذي يدرّسه، كذلك كانت محاضراته للسنوات الدراسية الأخرى مليئة على الدوام. طلب منه خريجون عديدون

الإشراف على رسائلهم، وطلب المزيد منهم أن يكون في لجان مناقشتها.

في خريف ١٩٣١ كانت الحلقة الدراسية التي يدرسها قد امتلأت تقريباً حتى قبل يوم التسجيل، إذ كان الكثير من الطلبة قد رتبوا مع ستونر في نهاية العام الماضي أو خلال الصيف. بعد أسبوع من بدء الفصل الدراسي، وبعد أن عقدت الحلقة اجتماعًا واحدًا، جاء أحد الطلبة إلى مكتب ستونر وسأله أن يسمح له بالانضمام إليها.

كان جالساً إلى مكتبه ينظر في قائمة أسماء طلبة الحلقة الدراسية، يحاول توزيع المهام البحثية عليهم، وصعب عليه ذلك، إذ أنه لا يعرف الكثير منهم جيدًا. كان ذلك في ظهيرة أحد أيام أيلول، وقد ترك النافذة المجاورة لمكتبه مفتوحة، ألقت واجهة المبنى الضخم بظلها المحدد بإتقان على العشب الأخضر قبالتها، بالقبة شبه الدائرية وخط سقف متعرج يُظلِم العشب الأخضر ويزحف خفية ليشمل الحرم وما وراءه. هبت من النافذة نسمة باردة تحمل الشذا الهش للخريف.

سمع طرقًا على باب المكتب، استدار لباب مكتبه المفتوح وقال: «تفضّل».

تحركت قامة من ظلمة عتبة الباب إلى دائرة الضوء في الغرفة. جفل ستونر بنعاس في الظلمة، ورأى طالبًا كان قد لاحظه من قبل في الأروقة، لكنه لا يعرفه. كانت ذراع الطالب اليسرى معلّقة بتخشب إلى جانبه، ويجرجر قدمه اليسرى وهو يسير. وجهه شاحب ومستدير، عدستا نظارته ذات الإطار العاجي مستديرتان، شعره الأسود الخفيف مفروق جيدًا من الجانب ويلتصق بجمجمته المستديرة.

سأل: «دكتور ستونر؟» صوته مهزول ومشذب ويتحدث بوضوح.

قال ستونر: «نعم. هلاّ تفضلت بالجلوس؟»

جلس الشاب على الكرسي الخشبي إلى جانب مكتب ستونر، امتدت ساقه في خط مستقيم، وارتاحت عليها يده اليسرى التي التوت راحتها بشكل مستديم في نصف قبضة. ابتسم ورفع رأسه وتحدث وجو غريب من التضاؤل الذاتي يحيط به: «قد لا تعرفني يا سيدي. أنا تشارلز ووكر. طالب دكتوراه في السنة الثانية. ومساعد دكتور لوماكس».

قال ستونر: «نعم يا سيد ووكر، ماذا يمكنني أن أفعل لك؟»

ابتسم ووكر مجدداً وقال: «أنا.. أنا هنا لطلب معروف منك يا سيدي. أنا أعرف أن حلقتك الدراسية مليئة لكنني بحاجة ماسة للالتحاق بها». سكت ثم قال بتأكيد: «اقترح دكتور لوماكس أن أتحدث معك».

«فهمت.. ما تخصصك يا سيد ووكر؟»

«الشعراء الرومانسيون. وسيكون دكتور لوماكس المشرف على الرسالة».

«وإلى أين وصلت في أعمالك البحثية؟»

«أتمنى أن أنهيها خلال عامين».

«حسناً، هذا يجعل الأمر أسهل. أنا أقدم الحلقة الدراسية كل عام. وقد امتلأت جداً الآن حتى إنها لم تعد حلقة دراسية، وشخص واحد إضافي سينهي الأمر. لماذا لا تنتظر حتى العام القادم إن كنت تريد المنهج حقاً؟»

ابتعدت عينا ووكر عنه وقال: «بصراحة...» ثم رسم ابتسامته مجدداً: «أنا ضحية سوء تفاهم. كل هذا خطأي بالطبع. لم أكن أعرف أن على طالب الدكتوراه دراسة أربع مواد تخرج في الحلقات الدراسية للخريجين لنيل درجته. وكما تعرف فإنه غير مسموح بحضور أكثر من

حلقة دراسية كل فصل دراسي. وإن كنت سأتخرج خلال سنتين فعلى حضور واحدة هذا الفصل الدراسي».

تنهد ستونر وقال: «فهمت. إذاً ليس لديك اهتمام حقاً بتأثير التراث اللاتيني؟»

«أوه. بالطبع يا سيدي، بالطبع لدي. سيكون مفيداً للغاية لرسالتي».

«سيد ووكر، يجب أن تعرف أن هذه حلقة متخصصة نوعاً ما، وأنا لا أشجع الآخرين على دخولها إلا إذا كان لديهم اهتمام خاص بها».

«نعم سيدي، أؤكد لك أن لدي اهتمام خاص حقاً».

أومأ ستونر وسأل: «كيف هي لاتينيتك؟»

هزّ ووكر رأسه قائلاً: «أوه، جيدة يا سيدي، لم أدخل الامتحان بعد لكنني أقرأ اللاتينية جيداً».

«هل تقرأ الفرنسية أو الألمانية؟»

«أوه، نعم يا سيدي، لم أدخل الامتحانات بعد كذلك، لكنني سأدخلها جميعاً مرة واحدة، في نهاية هذا العام، لكنني أقرأ الفرنسية والألمانية جيداً». سكت ثم أضاف: «قال دكتور لوماكس إنه واثق من أنني قادر على أعمال الحلقة الدراسية».

تنهد ستونر وقال: «حسناً. معظم القراءة ستكون باللاتينية، والقليل بالفرنسية والألمانية، مع ذلك يمكنك الفهم بدونهما، سأعطيك قائمة بالكتب، وستتحدث عن موضوعك في الحلقة الدراسية يوم الأربعاء القادم بعد الظهر».

شكره ووكر بامتنان شديد ونهض عن كرسيه ببعض الصعوبة. قال:

«سأبدأ في القراءة على الفور، أنا واثق أنك لن تندم على إلحاقي بدرسك يا سيدي».

نظر إليه ستونر بدهشة طفيفة وقال: «لم يخطر الندم ببالي يا سيد ووكر». ثم أضاف بخشونة: «أراك الأربعاء القادم».

كانت الحلقة الدراسية تنعقد في غرفة سفلية بالجناح الجنوبي بمبنى الجيسي هول. انبعثت من الجدران الإسمنتية رائحة رطبة ليست منفرّة، وتردد همس أجوف لوقع الخطوات على الأرضية الإسمنتية العارية. تدلى مصباح وحيد من وسط السقف ملقياً بضوئه لأسفل، فبدا الجالسون على الكراسي ذات الأسطح المكتبية وسط الغرفة في دفق من السطوع، بينما الجدران رمادية داكنة، والأركان سوداء تقريباً، كأن الإسمنت الناعم غير المطلي يمتص الضوء الهابط من السقف.

في ذاك الأربعاء الثاني من الحلقة الدراسية، جاء ويليام ستونر إلى الدرس متأخرًا دقائق قليلة، تحدث مع طلبته وبدأ ترتيب كتبه وأوراقه على المكتب الصغير المصنوع من البلوط الملون الرابض في المنتصف أمام جدار السبورة. نظر إلى المجموعة الصغيرة المتناثرة في الغرفة. يعرف بعضهم، اثنين منهم طالبي دكتوراه ويشرف هو على رسالتيهما، وأربعة آخرين طلبة ماجستير في القسم كان يدرسهم قبل تخرجهم. وممن تبقوا كان هناك ثلاثة يدرسون دبلومًا في اللغة الحديثة، وطالب فلسفة يقوم برسالة حول الفلسفة المسيحية في القرون الوسطى، وامرأة في منتصف العمر، معلّمة في المدرسة الثانوية تحاول تحضير الماجستير خلال إجازتها مدفوعة الأجر، والأخيرة شابة ذات شعر داكن، معيدة جديدة في القسم، حصلت على وظيفة لمدة عامين ريثما تنهي أعمال رسالة بدأتها بعد أن تخرجت في جامعة من الشرق. كانت قد طلبت من ستونر أن تقوم بأعمال تسجيل الحلقة الدراسية فوافق. لم يكن تشارلز ووكر من

ضمن المجموعة. انتظر ستونر بضع دقائق أخرى، ثم قلّب أوراقه وسعل وبدأ الدرس.

«ناقشنا أثناء اجتماعنا الأول نطاق هذه الحلقة الدراسية، وقررنا أن نُقصر دراستنا للتراث اللاتيني في القرون الوسطى على أول ثلاثة من العلوم الإنسانية السبعة، ألا وهي النحو والبلاغة والمنطق». توقف ونظر إلى الوجوه- منتبهة ومتطلعة وتشبه الأقنعة- تركز عليه وعلى ما يقوله.

«قد يبدو هذا القصر ضيقًا لبعضكم: لكنني واثق أننا سنجد ما يكفي لشغلنا حتى لو تعقبنا مسار العلوم الثلاثة حتى القرن السادس عشر على نحو سطحي فقط. من الأهمية بمكان أن ندرك أن فنون النحو والبلاغة والمنطق كانت تعني شيئًا ما لرجل أواخر القرون الوسطى وبدايات النهضة الذي نستطيع، اليوم، أن نستشعره قليلاً فقط بدون الخيال التاريخي. إذ لم يكن علم النحو، على سبيل المثال، لطالب هذا العلم، مجرد وضع ميكانيكي لأجزاء الكلام. منذ أواخر العصور الهيلينية وحتى العصور الوسطى، لم تشتمل دراسة وممارسة النحو على «مهارة الكتابة» التي ذكرها أفلاطون وأرسطو فحسب، بل اشتملت أيضاً، وقد صار هذا مهمًا للغاية، دراسة الشعر في تقنياته البيانية، تفسيره شكلاً وموضوعاً، وأناقة الأسلوب، وهكذا بقدر ما يمكن تمييزه عن البلاغة».

شعر بنفسه يندمج في موضوعه، ولاحظ أن عددًا من الطلبة قد مالوا إلى الأمام وتوقفوا عن تسجيل الملاحظات. واصل: «بالإضافة لذلك، إن سُئلنا نحن اليوم في القرن العشرين عن أهم فن من تلك الفنون الثلاثة، فقد نختار المنطق، أو البلاغة، لكننا على الأرجح لن نختار النحو. ومع ذلك فقد يعتبر الطالب -أو الشاعر- الروماني في القرون الوسطى، على نحو مؤكد تقريباً، فن النحو هو الفن الأهم. يجب أن

نتذكر...»

قاطعته جلبة عالية. انفتح الباب ودلف تشارلز ووكر إلى الغرفة، وفيما يغلق الباب سقطت الكتب التي يحملها أسفل ذراعه المشوه وتناثرت على الأرض. انحنى بارتباك، وامتدت ساقه الكسيحة خلفه، ليلم كتبه وأوراقه ببطء، ثم شد قامته ناهضًا وسار عبر الغرفة. صدر عن احتكاك قدميه بالإسمنت العاري هسيس عالٍ ومزعج بدا ذا صفير أجوف في الغرفة.

واصل ستونر بعد أن جلس ووكر ورتب كتبه وأوراقه على سطح منضدته: «يجب أن نتذكر أن مفهوم القرون الوسطى عن النحو كان أكثر عمومية عنه في أواخر العصور الهيلينية أو الرومانية. فلم يشمل علم الكلام السليم وفن التفسير فحسب، بل شمل كذلك المفهوم الحديث للتجانس وأصل الكلام، وطرق التقديم، والتركيب، وحالة الحرية الشعرية، واستثناءات تلك الحالة.. وحتى اللغة المجازية أو التعبيرية».

جالت عيناه في الغرفة، وهو يواصل شرح وتوضيح تلك التصنيفات النحوية التي ذكرها، وأدرك أنه فقد اهتمام طلبته بدخول ووكر وأنه سيستغرق المزيد من الوقت ليستعيد اهتمامهم مرة أخرى. ظل ينظر إلى ووكر الذي ترك قلمه بعد أن ظل يسجل الملاحظات بحرارة لدقائق قليلة، يستريح على أوراقه تدريجيًا، بينما يحدق في ستونر بتقطيبة حائرة. في النهاية رفع يده، فأنهى ستونر الجملة التي كان يقولها وأومأ له.

قال ووكر: «سيدي.. استميحك عذرًا.. لكنني لا أفهم.. ما علاقة...» سكت وجعل فمه يلتوي حول كلمة.. «النحو بالشعر؟ أعني بشكل أساسي الشعر الحقيقي».

قال ستونر بلطف: «كما كنت أقول قبل دخولك يا سيد ووكر، فإن

مصطلح «النحو» كان بالنسبة لأهل البلاغة من الرومان والقرون الوسطى يعني أكثر مما يعنيه الآن. كان يعني بالنسبة لهم..» سكت مدركاً أنه على وشك تكرار الجزء الأول من محاضرته، مستشعراً حركة ما بين طلبته. فأردف: «أعتقد أن العلاقة ستتضح لك فيما نواصل، فيما نرى إلى أي مدى كان الشعراء والمسرحيون حتى الذين من منتصف عصر النهضة وأواخره يدينون للبلاغيين اللاتينيين».

«جميعهم يا سيدي؟» قال ووكر وهو يبتسم ويميل بظهره للوراء. «ألم يكن صموئيل جونسون الذي قال عن شكسبير نفسه إن لديه القليل من اللاتينية والأقل من اليونانية؟»

انتشر في الغرفة ضحك مكتوم وشعر ستونر بشفقة تنتابه. قال: «أنت تعني بن جونسون بالطبع».

نزع ووكر نظارته ومسحها وهو يطرف بعينيه بضعف قائلاً: «بالطبع، إنها زلة لسان».

على الرغم من مقاطعة ووكر له عدة مرات، تدبر ستونر أن يواصل محاضرته بلا صعوبة تذكر، وكذلك أن يوكل لطلبته بمهام التقارير الأولية. أنهى الحلقة مبكرًا حوالي نصف الساعة، وأسرع يخرج من الغرفة حين رأى ووكر يجرجر خطواته نحوه بابتسامة ثابتة على وجهه، صعد بجلبة على الدرجات الخشبية للطابق التحتي، ثم الدرجات الرخامية الناعمة المؤدية إلى الطابق الثاني، كان يصعد درجتين في القفزة الواحدة، إذ كان لديه شعور غريب بأن ووكر، في أثره كالكلب، يحاول أن يلحق به. انتابه شعور خاطف بالخجل والذنب.

في الطابق الثالث، توجه مباشرة إلى مكتب لوماكس. كان لوماكس في اجتماع مع طالب. أدخل ستونر رأسه من الباب وقال: «هولي، هل لي بدقيقة معك بعد أن تنتهي؟»

أشار لوماكس له بيده قائلاً بإحسان: «تفضل بالدخول، نحن على وشك الانتهاء بالفعل».

دلف ستونر وتظاهر بتصفح الكتب المرصوصة على الأرفف ريثما يقول لوماكس وطالبه كلماتهما الأخيرة. حين غادر الطالب جلس ستونر على المقعد الذي أخلاه. نظر إليه لوماكس بتساؤل.

قال ستونر: «الأمر بشأن طالب. تشارلز ووكر، أخبرني أنك أرسلته إليّ».

جمع لوماكس أطراف أصابعه معاً وتأملها وهو يومئ قائلاً: «نعم. اقترحت أن بإمكانه أن يستفيد من حلقتك الدراسية.. ما هي؟ في التراث اللاتيني».

«هل لك أن تخبرني بشأنه؟»

رفع لوماكس نظره عن يده وحدق في السقف، التوت شفته السفلى بتأنٍ وقال: «إنه طالب جيد. يمكنني القول إنه متفوق. يقوم برسالته عن شيلي والخيال الهيليني. شيء واعد، ذكي حقاً. لن يكون ما قد يدعوه البعض..» – وتردد بلطف في نطق الكلمة– «.. عقلاني، لكنه خيالي حقاً. ألديك سبب محدد للسؤال عنه؟»

قال ستونر: «نعم.. لقد تصرف بحماقة إلى حد ما في الحلقة الدراسية اليوم. كنت فقط أتساءل إن كان ذلك ذا أهمية خاصة».

اختفى قناع لوماكس الأولي المهذب، وانزلق على وجهه القناع الساخر المألوف أكثر. قال بابتسامة مجمدة: «آه. نعم. إنها رعونة وحماقة الشباب. إن ووكر، لأسباب قد تتفهمها، خجول على نحو أخرق إلى حد ما، ولذلك أحيانًا ما يكون دفاعي وجازم بشدة إلى حد ما. مثلنا جميعاً، لديه مشاكله، لكن قدراته العلمية والنقدية، على ما آمل، لا

يمكن الحكم عليها في ضوء عجزه الجسدي الظاهر». ثم نظر مباشرة في عيني ستونر وقال بخبث مرح: «لابد أنك لاحظت أنه معاق».

قال ستونر بتأمل: «قد يكون الأمر كذلك». ثم تنهد ونهض عن الكرسي. «أعتقد أن الوقت مبكر للغاية لأهتم بهذا الأمر. أردت فقط أن أتأكد منك».

فجأة صار صوت لوماكس مشدودًا ويرتعد تقريباً من غضب مكتوم وهو يقول: «ستجد أنه طالب متفوق. أؤكد لك. ستجده طالبًا ممتازًا».

تأمله ستونر لبرهة قاطبًا حاجبيه بحيرة. ثم أومأ وخرج من الغرفة.

انعقدت الحلقة الدراسية أسبوعياً. ظل ووكر في الاجتماعات القليلة الأولى يقاطع الدرس بأسئلة وتعليقات تثير الارتباك لبُعدها عن الموضوع إلى حد جعل ستونر يفشل في الرد عليه. سرعان ما صار طلبة الحلقة أنفسهم يقابلون أسئلة ووكر وتعليقاته بالضحك أو بالتجاهل عمداً، وبعد أسابيع قليلة لم يعد يتحدث على الإطلاق، بل كان يجلس بسخط متجمد ومظهر ينم عن كرامة مهانة، فيما تسير أعمال الحلقة الدراسية من حوله. فكر ستونر أن الأمر كان سيبدو مسلياً لو لم يكن ثمة شيء ما عارٍ بفداحة في غضب ووكر وضغينته.

لكن على الرغم من ووكر، كانت الحلقة الدراسية ناجحة، واحدة من أفضل الحلقات الدراسية التي أدراها ستونر. منذ البداية تقريباً، استحوذ مضمون المادة على اهتمام الطلبة، وتشاركوا جميعاً ذلك الشعور بالاستكشاف الذي يأتي المرء حين يرى أن الموضوع الذي بين يديه يقع في القلب من موضوع أكبر منه بكثير، ويشعر بقوة أن مساره سيقوده، على الأرجح، إلى حيث لا يدري. انتظمت الحلقة الدراسية من نفسها، وانخرط فيها الطلبة حتى شعر ستونر نفسه ببساطة أنه واحد منهم،

يبحث بكد مثلهم. حتى المسؤولة عن التقرير- المعيدة الشابة التي توقفت في جامعة كولومبيا لتنهي أعمال رسالتها- سألت إن كان بإمكانها تقديم بحث في موضوع درس ما، حيث تعتقد أنها توصلت إلى شيء ما قد يكون ذا قيمة للآخرين. كان اسمها كاثرين دريسكول، في أواخر العشرينيات. لم يكن ستونر قد لاحظها حقاً حتى تحدثت معه بعد الدرس عن البحث، وسألته إن كان يرحب بقراءة رسالتها حين تنهيها. أخبرها أنه يرحب ببحثها وأنه يسعده قراءة رسالتها.

كان من المحدد تسليم تقارير الحلقة الدراسية في النصف الثاني من الفصل الدراسي، بعد إجازة عيد الميلاد. وكان على ووكر تسليم تقريره عن «الهيلينية والتراث اللاتيني للقرون الوسطى» في بداية الفصل الدراسي، لكنه ظل يؤخره، مبررًا ذلك لستونر بأنه يجد صعوبة في الحصول على الكتب التي يريدها لأنها غير موجودة في مكتبة الجامعة.

كان من المفهوم ضمنياً أن على الآنسة دريسكول، المسؤولة عن تسجيل أعمال الحلقة، تقديم بحثها بعد أن يقدم الطلبة المعتمدون أبحاثهم، لكن في اليوم الأخير سمح ستونر بعرض أبحاث الحلقة الدراسية قبل أسبوعين من انتهاء الفصل الدراسي، ومجددًا توسل ووكر لستونر أن يمنحه أسبوعًا آخر، لأنه كان مريضًا، عيناه تؤلمانه، وكتاب مهم للغاية لم يصل بعد من مكتبة أخرى. لذلك قدمت الآنسة دريسكول بحثها في اليوم الذي كان على ووكر تقديم بحثه فيه.

كان بحثها بعنوان «دوناتوس[1] وتراجيديا النهضة» وموضوعه استخدام شكسبير للتراث الدوناتي الذي تناقلته قواعد النحو والكتيبات خلال العصور الوسطى. عرف ستونر بعد دقائق قليلة من

(١) Aelius Donatus عالم نحو روماني ومُعلّم بلاغة من القرن الرابع قبل الميلاد.

بدء عرضها أن بحثها سيكون جيداً، وشعر بمتعة لم يشعر بها منذ فترة طويلة. بعد أن انتهت من العرض وناقشها الطلبة، استبقاها ستونر لدقائق قليلة فيما يغادر الطلبة الآخرون الغرفة.

قال: «آنسة دريسكول، أردت فقط أن أقول...» وسكت، غمرته للحظة موجة من الارتباك، وتغلب عليه الوعي الذاتي. كانت تنظر إليه بعينين داكنتين واسعتين بتساؤل، ووجه أبيض ناصع مؤطر بشعرها الأسود الحالك المسحوب للوراء بإحكام في ذيل حصان صغير. أردف يقول: «أردت فقط أن أقول إن بحثك كان أفضل نقاش سمعته عن الموضوع، وإنني ممتن لأنك تطوعت بعرضه».

لم تجبه، ولم يتغير تعبير وجهها، وأحس ستونر للحظة أنها غاضبة، إذ لمح شيئًا ما شرس يبرق خلف عينيها. ثم احمرّ وجهها بشدة وأحنت رأسها، لم يستطع ستونر أن يحدد أكان ذلك غضباً أم شكراً، وأسرعت تسير مبتعدة عنه. غادر ستونر الغرفة ببطء، منزعجاً ومتحيراً، يخشى أن يكون، بحماقته، قد أزعجها على نحو ما.

كان قد أنذر ووكر بقدر ما أمكنه من اللطف بضرورة تقديم بحثه الأربعاء المقبل لينال شهادة الحلقة الدراسية، وكما توقع تقريباً، قابل ووكر الإنذار بغضب بارد وواضح، وكرر الظروف والصعوبات العديدة التي تؤخره، وأكد على ستونر أنه لا داعي للقلق، وأنه يكاد أن ينهي بحثه.

في ذلك الأربعاء الأخير، تأخر ستونر في مكتبه لعدة دقائق بسبب طالب بائس أراد أن يتأكد أنه سيحصل على تقدير مقبول في مادة السنة الثانية، لئلا يتم طرده من الأخوية التي ينتمي إليها. أسرع ستونر يهبط السلم إلى الغرفة السفلية التي تنعقد فيها الحلقة الدراسية ودخل يلهث قليلاً، ليجد تشارلز ووكر جالساً إلى مكتبه، ينظر بغطرسة وجهامة

للمجموعة الصغيرة من الطلبة. كان واضحاً أنه غائب في خيال ما خاص به. استدار لستونر وحدّق فيه بعجرفة، كأنه دكتور جامعي يوبخ طالب حديث شقي. ثم زال هذا التعبير وقال: «كنا على وشك أن نبدأ بدونك..» سكت في اللحظة الأخيرة، وترك ابتسامة ترتسم على شفتيه، ورفع رأسه وأضاف، كمن يريد أن يفهم ستونر إنه يمزح- «يا سيدي».

نظر إليه ستونر لبرهة ثم استدار لطلبته قائلاً: «عذراً للتأخير. كما تعرفون، على السيد ووكر أن يقدم بحثه اليوم عن الهيلينية والتراث اللاتيني في القرون الوسطى». ثم جلس على كرسي في الصف الأول، إلى جانب كاثرين دريسكول.

ظل تشارلز ووكر يعبث في حزمة الأوراق الموضوعة أمامه على المكتب لدقيقة تاركاً العزلة تزحف عائدة إلى وجهه. خبط بسبابته اليمنى على مخطوطته ونظر نحو ركن الغرفة بعيدًا عن حيث يجلس ستونر وكاثرين دريسكول، كأنه في انتظار شيء ما. ثم، وهو يختلس النظر من حين لآخر إلى حزمة الأوراق على المكتب، بدأ.

«أمام سحر الأدب، وقوته التي لا توصف، ليس بأيدينا إلا أن نستكشف منبع ذلك السحر وتلك القوة. ومع ذلك، ففي نهاية المطاف، ما جدوى ذلك؟ إن العمل الأدبي يلقي أمامنا حجاباً ثقيلاً لا يمكننا سبر غوره، ولسنا سوى مؤيدين، قليلي الحيلة تحت سطوته. من ذا الذي يجرؤ على كشف ذلك الحجاب، ليستكشف ما لا يمكن استكشافه، ليصل إلى ما لا يمكن الوصول إليه؟ إن أقوانا ليسوا سوى ضعاف تافهين، ليسوا سوى رنين صناج وقعقعة نحاس في مواجهة الغموض الأزلي».

ارتفع صوته وانخفض، وامتدت يده اليمنى، بأصابعها الملتوية لأعلى، بتوسل، وتمايل جسده مع إيقاع كلماته. زاغ بصره قليلاً لأعلى

كأنه يبتهل. كان ثمة شيء ما فيما يقوله ويفعله مألوفاً على نحو بشع. وفجأة أدرك ستونر ما هذا الشيء. كان هذا هوليس لوماكس، أو بالأحرى كاريكاتير مبتذل له. ومثل الكاريكاتير، لم يكن ينم عن تحقير أو كراهة، وإنما عن حب واحترام.

انخفض صوت ووكر إلى مستوى المحادثة، وخاطب الجدار الخلفي للغرفة بنبرة هادئة ورصينة على نحو معقول. «استمعنا مؤخراً إلى عرض لبحث لا بد أن يُعد، بالنسبة للعقل الأكاديمي، ممتاز. ملحوظاتي التالية عليه ليست شخصية. آمل أن أقوم بتبسيط وجهة نظري. استمعنا في ذلك البحث إلى ما يُقصد به تفسير لغموض وانطلاقة شاعرية فن شكسبير. حسناً، أقول لكم..» ورفع سبابته مشيرًا بها إلى مستمعيه كأنه يرشقهم: «أقول لكم إن هذا غير حقيقي». ثم عاد للوراء في مقعده وعبث بالأوراق الموضوعة أمامه. «طُلب منا أن نصدق أن رجلاً يدعى دوناتس- مدرس نحو من القرن الرابع قبل الميلاد- طلب منا أن نصدق أن هذا الرجل، المتحذلق، لديه ما يكفي من القوة ليؤثر على أعمال أحد العباقرة العظام في تاريخ الفن بأسره. ألا نرتاب في مواجهة تلك النظرية؟ ألا يجب علينا أن نشكك فيها؟»

انتاب ستونر غضب هادئ بطيء، سيطر على المشاعر المعقدة الأخرى التي داخلته منذ بداية عرض البحث. شعر برغبة في الوقوف فورًا ومقاطعة تلك المهزلة الدائرة أمامه. علم أنه لو لم يقاطع ووكر فوراً سيكون عليه أن يدعه يواصل حتى ينتهي من كلامه متى شاء. مال برأسه قليلاً ليرى وجه كاثرين دريسكول، كان وجهها هادئًا وبلا تعبير، ما خلا اهتمام مهذب ومحايد، نظرت العينان الداكنتان لووكر بلا مبالاة تشبه الضجر. نظر إليها ستونر خفية لعدة دقائق، ووجد نفسه يفكر فيما كانت تشعر به وفيما تريده أن يفعل. حين حرّك نظره عنها أخيراً، أدرك أنه قد اتخذ قراره، لقد فات وقت مقاطعته الآن، وكان ووكر منطلقاً بجرأة فيما كان يقوله.

«... ذلك الصرح الضخم المدعو بأدب النهضة، ذلك الصرح الذي يعد حجر الزاوية لشعر القرن التاسع عشر العظيم. إن مسألة الأدلة، الشائعة في عملية الدراسة البليدة مقارنة بعملية النقد، هي أيضاً، للأسف، منقوصة. ماذا لدينا من أدلة على أن شكسبير قد قرأ لهذا النحوي الروماني المغمور حتى؟ لابد أن نتذكر أن بن جونسون..» هنا تردد للحظة. «... أن بن جونسون نفسه، صديق شكسبير ومعاصره، من قال إن شكسبير يتحدث القليل من اللاتينية والأقل منها باليونانية. وبالتأكيد هو جونسون الذي أحب شكسبير هذا الحب الأعمى، لم يلصق بصديقه العظيم أي نقص. بل بالعكس، لقد أراد أن يقول، كما أريد أنا أن أقول، إن شاعرية شكسبير الساحرة لا تعود إلى احتراق زيت منتصف الليل، بل إلى عبقرية فطرية تتجاوز الحكم والقانون الدنيوي. بخلاف شعراء أقل قيمة، لم يولد شكسبير ليحمر خجلاً في الخفاء ويفقد حلاوته في هواء الصحراء، ليشارك في هذا المعين الغامض الذي يذهب إليه الشعراء جميعاً لينهلوا منه، ما حاجة الشاعر الملحمي الخالد لتلك القواعد الخانقة الموجودة في النحو الصِرف؟ ماذا يكون دوناتوس بالنسبة له، حتى إن كان قد قرأه؟ إن رجلاً عبقريًا، فريدًا، رجلاً يعد قانونًا في حد ذاته، لا يحتاج إلى دعم ذلك «التراث» الذي وصفوه لنا، سواء كان لاتينيًا عموماً، أو دوناتيًا، أو أيًا كان. عبقري وساحر وحر، لابد...»

بعد أن ألِف غضبه، ألفى ستونر إعجاباً ممانعاً وفاسداً يتسلل إليه. كان الرجل، على زخرُف قوله وقلة دقته، يمتلك قوى بلاغية وابداعية مؤثرة على نحو مرعب، وعلى بشاعته، كان حضوره حقيقياً. كان في عينيه شيء ما بارد وماكر ويقظ، شيئا ما متهور بلا داع، ومع ذلك حذر على نحو بائس. أدرك ستونر أنه أمام محتال عتيد وجسور، وأنه لا يملك الأدوات اللازمة للتعامل معه.

كان الأمر جلياً، حتى لأقل الطلبة انتباهاً في الغرفة، إن ووكر مندمج

في عرض مرتجل بكامله. شك ستونر في إن ووكر كانت لديه أية فكرة واضحة عما كان سيقوله، حتى جلس إلى المكتب أمام الطلبة ونظر إليهم بطريقته المتغطرسة الباردة. بدا واضحاً أن حزمة الأوراق الموضوعة أمامه على المكتب لم تكن سوى حزمة أوراق، إذ ما إن انهمك فيما كان يقوله، لم يعد ينظر إليها، ولو حتى من باب التظاهر. وحين أوشك على ختام حديثه، كان قد دفع بها بعيدًا في غمرة حماسته وانطلاقه.

تحدث لمدة ساعة تقريباً، وعند نهايتها كان الطلبة ينظرون لبعضهم البعض بقلق، كأنهم في مواجهة خطر ما ويبحثون عن مهرب منه، يتجنبون النظر سواءً إلى ستونر أو إلى الشابة الجالسة بجانبه ببرود. أنهى ووكر حديثه فجأة كأنه استشعر قلق مستمعيه، استند بظهره إلى الكرسي، وابتسم بانتصار.

ما إن أنهى ووكر حديثه، نهض ستونر على قدميه وأذن للطلبة بالانصراف، وبالرغم من عدم وعيه بذلك حينها، لكنه كان مراعاةً لووكر على نحو مبهم، لئلا يتيح الفرصة لأحد من الطلبة لمناقشة ما قاله. ثم توجه ستونر إلى المنضدة حيث جلس ووكر وطلب منه أن يبقى لعدة دقائق أخرى. أومأ ووكر برأسه بشرود كأنه في مكان آخر. ثم استدار ستونر وتبع الطلبة القليلين المتفرقين خارج الغرفة إلى الردهة. رأى كاثرين دريسكول تبدأ سيرها مبتعدة، تسير وحدها في الردهة. نادى عليها، وحين توقفت سار إليها ووقف أمامها، وحين تحدث إليها شعر مجددًا بالارتباك الذي انتابه الأسبوع السابق حين أطرى على بحثها.

«آنسة دريسكول، أنا.. أنا آسف. كان ذلك إجحافًا بالطبع، أشعر أنني مسؤول عن ذلك بطريقة ما. ربما كان عليّ أن أوقفه».

لم تجبه، ولم يرتسم على وجهها أي تعبير، كانت تنظر إليه كما كانت

تنظر إلى ووكر وهو يتحدث.

أردف قائلاً بمزيد من الارتباك: «على أية حال، أنا آسف لهجومه عليكِ».

حينها ابتسمت. ابتسامة بطيئة بدأت في عينيها ووصلت إلى شفتيها حتى كللت وجهها فرحة متوهجة وسرية وحميمية، كاد ستونر أن يتراجع للوراء أمام ذلك الدفء المفاجئ التلقائي.

قالت: «أوه، لم يفعل». رنّت في صوتها الخافت رعشة صغيرة لضحك مكتوم وهي تقول: «لم يكن يهاجمني أنا على الإطلاق، بل كان يهاجمك أنت. لم يكن لي أدنى علاقة بالأمر».

شعر ستونر أن عبئاً من الأسف والقلق، لم يكن يعرف إنه يحمله، قد انزاح عن كاهله، كاد الشعور بالراحة أن يكون بدنيًا أيضاً، فشعر بخفة في قدميه وبداية دوار. ضحك قائلاً: «بالطبع، هذا حقيقي تماماً».

ابتعدت الابتسامة بسلاسة عن وجهها، ونظرت إليه لدقيقة أخرى برصانة. ثم هزت رأسها واستدارت تبتعد عنه، سارت بخفة تعبر الردهة. جسدها نحيل ورشيق، وتتحرك على نحو متواضع. ظل ستونر واقفاً ينظر في الردهة بعد أن اختفت لعدة دقائق. ثم تنهد وعاد أدراجه إلى غرفة الدرس حيث ينتظره ووكر.

لم يكن ووكر قد تحرك من جلسته إلى المكتب. حدق في ستونر وابتسم، ولاح على وجهه مزيج غريب من الخنوع والعجرفة. جلس ستونر على الكرسي الذي قام من عليه منذ دقائق قليلة، ونظر إلى ووكر باستغراب.

قال ووكر: «نعم يا سيدي؟»

سأل ستونر بهدوء: «هل لديك تفسير؟»

بدت في وجه ووكر المستدير نظرة ألم مفاجئ وقال: «ماذا تقصد يا سيدي؟»

قال ستونر بضجر: «سيد ووكر، رجاءً، لقد كان يوم طويلاً، وكلانا متعب، هل لديك تفسير لما فعلته اليوم؟»

قال ووكر: «أؤكد لك يا سيدي أنني لم أقصد أية إساءة». ثم نزع نظارته ومسحها بسرعة، صُدِم ستونر مرة أخرى من العجز في وجهه. «لقد قلت إن ملاحظاتي ليست شخصية. إن كنت قد جرحت مشاعر أحد ما، سيسعدني كثيراً أن أفسر للسيدة الشابة...»

قاطعه ستونر: «سيد ووكر، أنت تعلم أن هذا ليس قصدي».

سأله ووكر: «هل اشتكت لك الشابة؟» ارتعشت أصابعه وهو يعيد وضع نظارته، فارتسمت على وجهه، ما إن وضعها، تقطيبة غضب. «حقاً يا سيدي، إن شكوى طالب ما قد تكون مشاعره قد انجرحت لا يجب أن...»

«سيد ووكر!» سمع ستونر صوته يخرج قليلاً عن سيطرته، أخذ نفسا عميقاً ثم أردف: «هذا الأمر ليس له علاقة بالسيدة الشابة، أو بي شخصياً، أو بأي شيء ما عدا أداءك. وما زلت في انتظار أي تفسير قد يكون لديك».

«إذاً أخشى أنني لا أفهم شيئًا على الإطلاق يا سيدي، إلا إذا...»

«إلا إذا ماذا يا سيد ووكر؟»

«إلا إذا كان الأمر ببساطة مسألة خلاف. أدرك أن أفكاري قد لا تتفق مع أفكارك، لكنني طالما ظننت أن هذا الخلاف أمر صحي، وقد افترضت أنك كبير بما يكفي لـ...»

«لن أسمح لك بالالتفاف على الموضوع». قال ستونر بصوت بارد ورزين. «الآن، ما كان موضوع بحثك المفروض مناقشته؟»

قال ووكر: «أنت غاضب؟»

«نعم، أنا غاضب، ما كان موضوع مناقشتك؟»

صار ووكر رسميًا ومؤدبًا على نحو متخشب وقال: «كان الهيلينية والتراث اللاتيني في القرون الوسطى يا سيدي».

«ومتى انتهيت من ذلك البحث يا سيد ووكر؟»

«منذ يومين. كما أخبرتك، كان منتهياً تقريباً منذ أسبوعين، لكن كتابًا كنت قد طلبته من مكتبة أخرى لم يكن قد وصلني بعد حتى...»

«سيد ووكر، إن كان بحثك كان قد انتهى تقريباً منذ أسبوعين فكيف تسنى لك أن تؤسسه، بالكامل، على بحث الآنسة دريسكول، الذي عرضته منذ أسبوع فقط؟»

«لقد قمت بعدة تعديلات يا سيدي، في اللحظات الأخيرة». حمل صوته سخرية ثقيلة. «ظننت أن هذا مسموح به، وقد انجرفت عن النص الأصلي مرة أو اثنين. لاحظت أن طلبة آخرين قاموا بالمثل، فظننت أن من حقي أنا أيضاً استغلال ذلك الامتياز».

جاهد ستونر ليكبح نوبة ضحك هستيري وسأله: «سيد ووكر، هل لك أن تشرح لي ما علاقة هجومك على بحث الآنسة دريسكول بالهيلينية في التراث اللاتيني للقرون الوسطى؟»

«لقد تناولت موضوعي على نحو غير مباشر سيدي، ظننت أننا نتمتع ببعض الحرية في عرض مفاهيمنا».

بقي ستونر صامتًا لبرهة، ثم قال بنفاد صبر: «سيد ووكر، أنا أكره أن أُسقِط طالب دراسات عليا، خاصة حين يكون غارقاً في أعماله».

قال ووكر بتذلل: «سيدي!»

«لكنك تجعل الأمر صعبًا عليّ للغاية. يبدو لي الآن أن أمامي خيارات قليلة. يمكنني أن أعطيك تقدير غير تام في المادة، على أن تقدم بحثًا جيدًا في الموضوع المحدد لك خلال ثلاثة أسابيع».

قال ووكر: «لكن يا سيدي، لقد قدمت بحثي بالفعل. إن وافقت على تقديم بحث آخر سأكون بذلك مقراً أن.. سأقر...»

«وهو كذلك.. أعطني النص الذي.. حِدت عنه قليلاً اليوم، وسأرى إن كان يمكنني انقاذ شيء منه».

صاح ووكر: «سيدي، لا أعلم إن كان بإمكاني عرضه على أحد غيري الآن، لأنه مجرد مسودة بدائية جداً».

واصل ستونر بعبوس وغيظ مكتوم: «لا بأس، سأجد ما أريده».

نظر إليه ووكر بمكر قائلاً: «أخبرني يا سيدي، هل طلبت من أحد غيري تسليم بحثه؟»

قال ستونر: «لا. لم يحدث».

قال ووكر بانتصار وسعادة تقريباً: «لابد إذاً أن أرفض أنا أيضاً تسليمك بحثي من حيث المبدأ. إلا إذا طلبت من الآخرين جميعًا تسليمك أوراقهم».

نظر إليه ستونر بجمود لدقيقة ثم قال: «حسناً يا سيد ووكر، لقد اتخذت قرارك. هذا كل شيء».

قال ووكر: «ماذا أفهم من هذا يا سيدي؟ ماذا أتوقع من هذه الحلقة الدراسية؟»

ضحك ستونر باقتضاب وقال: «سيد ووكر أنت تثير دهشتي، أنت راسب بالطبع».

حاول ووكر جعل وجهه المستدير طويلاً وقال بمرارة وبطولية: «فهمت. حسناً يا سيدي. على المرء أن يتحمل عواقب إيمانه بمبادئه».

قال ستونر: «وعواقب كسله، وغشه، وجهله.. سيد ووكر، سأقول لك ما قد يبدو لا داعي لقوله، لكني أنصحك بمراجعة الغرض من وجودك هنا، لأني أشك حقاً في أن تحظى بمكان في برنامج دراسات عليا آخر».

بدا انفعال ووكر صادقًا لأول مرة، منحه غضبه شيئًا ما يقرب إلى الكرامة، قال: «سيد ستونر، لقد خضت في هذا إلى حد بعيد للغاية! أنت لا تعني هذا».

قال ستونر: «بالتأكيد أعني كل ما قلته».

بقي ووكر هادئًا لدقيقة، نظر إلى ستونر بتأمل، ثم قال: «كنت أنوي أن أتقبل أي تقدير تمنحه لي. لكن يجب أن تعرف إنني لن أقبل بهذا. أنت تشكك في كفاءتي!»

قال ستونر بنفاد صبر: «نعم يا سيد ووكر». ونهض عن كرسيه مضيفاً: «الآن، بعد إذنك...» وتوجه نحو الباب.

لكنه توقف لسماع اسمه يتردد بصوت عال. استدار. فوجد وجه ووكر أحمر قانياً منتفخًا إلى درجة أن عينيه بدتا من خلف النظارة السميكة كنقطتين صغيرتين. صاح مرة أخرى: «سيد ستونر. الأمر لم

ينتهِ بعد. صدقني، لم ينته بعد!»

نظر إليه ستونر ببرود ولا مبالاة، أومأ له بحيرة، واستدار وخرج إلى الردهة. كانت قدماه ثقيلتين، وهو يجرجرهما على الأرضية الإسمنتية العارية. كان مستنزفًا شعوريًا، وأحس أنه عجوز متعب.

viii.

ولم ينته الأمر بعد.

سلّم ستونر درجات الطلاب يوم الاثنين التالي ليوم الجمعة الأخير في الفصل الدراسي. كان ذلك الجزء من عمله الذي يكرهه أكثر من أي جزء آخر، لذلك كان ينتهي منه بأسرع ما يمكنه. منح ووكر درجة راسب ولم يفكر في الأمر بعد ذلك. قضى الأسبوع الفاصل بين الفصلين الدراسيين يقرأ مسودتي رسالتين يجب تقديمهما بشكل نهائي في الربيع. كانتا مُنجزتين على نحو مضطرب وتحتاجان إلى قدر كبير من الانتباه. انشغل ذهنه عن مسألة ووكر.

لكنه عاد يتذكرها مجددًا بعد أسبوعين من بدء الفصل الدراسي الثاني. حين وجد ذات صباح في صندوق بريده رسالة من جوردون فينش يطلب منه فيها أن يمر عليه في مكتبه، حين يتيح له وقته، للدردشة.

كانت صداقة جوردون فينش ووليام ستونر قد وصلت إلى النقطة التي تصل إليها تلك العلاقات التي دامت طويلاً بما يكفي، فصارت عفوية وعميقة وحميمية على نحو حذر للغاية إلى درجة أنها بدت غير شخصية تقريباً. كانا نادرًا ما يلتقيان في زيارات اجتماعية، رغم زيارات كارولاين فينش السطحية لإديث من حين لآخر. وكانا حين يتحدثان يتذكران سنوات شبابهما، ويفكر أحدهما في الآخر كما عرفه في ذلك الزمن الآخر.

كان لفينش في بداية منتصف عمره مظهر منتصب وناعم لرجل يحاول

بكل جهده إبقاء وزنه تحت السيطرة، وجهه مكتنز ولم تقربه التجاعيد بعد، مع ذلك كانت ألغاده قد بدأت تترهل، وتجمع اللحم في ثنيات عند قفاه. كان شعره خفيفًا للغاية، وقد بدأ يسرحه على نحو يخفي صلعته بسهولة.

مر ستونر بمكتبه في الظهيرة، تحدثا لدقائق قليلة بتلقائية عن عائلتيهما، حافظ فينش على العرف السائد بالتظاهر بأن زواج ستونر طبيعي، وصرّح ستونر بعدم تصديقه المعتاد بأن جوردون وكاورلاين يمكن أن يكونا والدين لطفلين أصغرهما في سن الحضانة بالفعل.

بعد الإشارات التلقائية لصداقتهما المتقطعة، نظر فينش خارج نافذته باضطراب وقال: «الآن، عما أردت أن أتحدث معك؟ أوه، نعم. عميد كلية الخريجين.. رأى أنه، بما أننا صديقان، فعليّ أن أحدثك في الأمر. لا شيء ذا أهمية خاصة». ثم نظر إلى ورقة في دفتر ملحوظاته وتابع: «مجرد طالب دراسات عليا غضوب، يظن إنه غُبن في أحد حلقاتك الدراسية في الفصل الدراسي الماضي».

قال ستونر: « ووكر.. تشارلز ووكر».

أومأ فينش قائلاً: «هذا هو.. ما قصته؟»

رفع ستونر كتفيه وقال: «على حد علمي لم يقرأ شيء من قائمة القراءة المحددة للحلقة الدراسية التي كانت عن التراث اللاتيني. وقد حاول تزييف بحثه، وحين منحته الفرصة لتقديم بحث آخر أو تقديم نسخة من البحث الذي أعده رفض. فلم يكن أمامي من خيار آخر غير أن أُسقطه».

أومأ فينش مجدداً وقال: «كما ظننت. يعلم الله أنني كنت أتمنى ألا يضيعوا وقتي في أشياء كهذه، لكن يجب أن أتأكد من الأمر، لحمايتك أكثر من أي شيء آخر».

سأله ستونر: «هل ثمة صعوبة خاصة في هذا؟»

قال فينش: «لا، لا، إطلاقاً، مجرد شكوى. أنت تعلم كيف تسير تلك الأمور، في الواقع كان تقدير ووكر جيد في أول مادة درسها هنا كطالب دراسات عليا، يمكننا طرده من البرنامج فوراً إذا أردنا، لكن ظني أننا قررنا أن ندعه يجتاز امتحاناته الشفوية التمهيدية الشهر القادم، وأن نعدّ ما جرى في الماضي، أنا آسف لأنني اضطررت إلى إزعاجك بهذا الشأن».

تحدثا قليلاً عن أمور أخرى، وحين أوشك ستونر على الانصراف، استبقاه فينش على نحو تلقائي قائلاً: «أوه، يوجد شيء آخر أردت أن أحدثك بشأنه، لقد قرر الرئيس ومجلس الإدارة ضرورة اتخاذ قرار بشأن كلاريمونت، لذلك على ما أظن ابتداءً من العام القادم سأكون عميد كلية الآداب والعلوم.. رسمياً».

قال ستونر: «يسعدني هذا يا جوردون، لقد حان الوقت لذلك».

«ما يعني أن علينا اختيار أحد غيري لرئاسة القسم، هل لديك أية اقتراحات؟»

«لا. لم أفكر في الأمر من قبل مطلقاً».

«يمكننا إما أن نجلب شخصًا من خارج القسم أو أن نعين أحدًا من الداخل، ما أريد أن أعرفه هو، في حال قررنا اختيار أحد من القسم... هل ترغب أنت في المنصب؟»

فكر ستونر لدقيقة ثم قال: «لم أفكر في الأمر من قبل، ولكن... لا. لا، لا أظن أنني أريد المنصب».

بدا ارتياح جوردون جلياً للغاية لدرجة أن ابتسم ستونر. قال فينش:

«جيد، لم أظن أنك سترغب فيه، إنه حِمل من الهراء. مجهود في الترفيه والاجتماعيات و..» وأشاح ببصره بعيداً عن ستونر وتابع «أعلم أنك لست ممن يهتمون بمثل تلك الأعمال، ولكن منذ أن مات سلوان العجوز، ومنذ أن تقاعد هاجنز وهذا الآخر ماذا كان اسمه، كوبر العام الماضي، أصبحت أنت أقدم أعضاء القسم. لكن طالما لا تضع عينيك عليه، إذاً...»

قال ستونر مؤكداً: «لا. الأرجح أنني سأكون رئيس بغيضاً، أنا لا أتوقع هذا المنصب ولا أريده».

قال فينش: «حسنًا، جيد، هذا يسهّل الأمور كثيراً».

ودّع أحدهما الآخر ولم يفكر ستونر في محادثتهما لوقت طويل.

تحدد موعد الامتحانات الشفوية التمهيدية لتشارلز ووكر في منتصف آذار، ولدهشة ستونر تلقى مذكرة من فينش تخطره أنه تم اختياره بطريقة ما ليكون أحد أعضاء اللجنة الثلاثية التي ستمتحن ووكر. ذكّر ستونر فينش أنه قد أسقط ووكر، وأن الأخير أخذ قرار الرسوب على محمل شخصي، وطلب منه إعفاءه من هذه المهمة تحديداً.

أجابه فينش وهو يتنهد قائلاً: «إنها القواعد. أنت تعرف كيف يسير الأمر. تتشكل اللجنة من المشرف على الطالب، وأستاذ جامعي حضر الطالب له حلقة دراسية في دراساته العليا، وآخر خارج مجال اختصاصه. لوماكس هو المشرف، وأنت الوحيد الذي درّسه في حلقة دراسية، وقد اخترت الرجل الجديد، جيم هولاند، ليكون الثالث من خارج مجال اختصاصه. وسأجلس أنا وراثرفورد عميد كلية الخريجين بحكم منصبينا. وسأحاول بقدر ما يمكنني جعل الأمر يمر بدون متاعب».

لكنها كانت محنة لا مناص من آلامها. وبالرغم من عزم ستونر على ألا يطرح سوى أقل ما يمكنه من أسئلة، إلا أن قواعد الامتحانات الشفوية التمهيدية لم تكن بتلك المرونة، كان على كل أستاذ أن يستغرق خمسًا وأربعين دقيقة في توجيه ما يشاء من الأسئلة للطالب، مع ذلك جرت العادة أن يتدخل الأستاذان الآخران.

في الظهيرة التي تحددت للامتحان، جاء ستونر متأخراً عن عمد إلى إحدى القاعات بالطابق الثالث من مبنى الجيسي هول. كان ووكر جالساً إلى طرف منضدة طويلة تم تلميعها جيداً، وقد حضر أربعة من الممتحنين بالفعل- فينش، لوماكس، الرجل الجديد هولاند، وهنري راثرفورد- وجلسوا إلى المنضدة من حوله. دخل ستونر من الباب واتخذ مقعدًا إلى طرف المنضدة المواجه لووكر. أومأ له فينش وهولاند. حدق لوماكس، الجالس مستندًا بظهره على كرسيه، أمامه مباشرة وهو ينقر بأطراف أصابعه البيضاء على سطح المنضدة الذي يشبه المرآة. حدق ووكر على طول المنضدة، رافعاً رأسه عالياً بجمود في أنفة باردة.

تنحنح راثرفورد قائلاً: «آه. سيد..» ونظر في ورقة أمامه. «سيد ستونر». كان راثرفورد رجلاً نحيلاً طويلاً، أشيب الشعر، بكتفين مستديرين، تهبط عيناه وحاجباه من الطرف الخارجي، على نحو يمنح وجهه يأساً رقيقاً طوال الوقت. لم يستطع تذكر اسم ستونر أبداً رغم معرفتهما لسنوات طوال. تنحنح ثانيةً وقال: «كنا على وشك البدء».

أومأ ستونر ورفع ساعديه على الطاولة، شابكاً أصابعه ومحدقاً فيها، فيما يردد راثرفورد، بنبرة رتيبة، رسميات الامتحانات الشفوية.

كان ووكر يجتاز امتحاناته (انخفض صوت راثرفورد إلى همهمة ثابتة ورتيبة) ليتم تحديد مستواه في دراسات الدكتوراه بقسم الإنجليزي بجامعة ميزوري. وكان على جميع طلبة الدراسات العليا اجتياز ذلك

الامتحان، الذي تم تصميمه، ليس فقط للحكم على المستوى العام للطالب، وإنما أيضاً لتحديد نقاط قوته وضعفه، ولتوجيه برنامج دراسته المستقبلي على نحو مُجدٍ. كان ثمة ثلاث نتائج محتملة: النجاح، أو النجاح المشروط، أو الرسوب. قام راثرفورد بوصف عواقب تلك الاحتمالات، ودون أن يرفع نظره، قام بتقديم الممتحنين والممتحَن. ثم أزاح الأوراق من أمامه ونظر بيأس إلى من حوله.

قال برقة: «جرت العادة أن يبدأ المشرف على رسالة الممتَحن بطرح الأسئلة. سيد..» ونظر بسرعة في الورقة. «السيد لوماكس هو، على ما أعتقد، المشرف على السيد ووكر. لذلك...»

اهتز رأس لوماكس للخلف كأنه أفاق فجأة من غفوة. جال بنظره على الطاولة، طرَف بعينه، وعلى شفتيه ابتسامة طفيفة، لكن عينيه ماكرتان وحذرتان. قال: «سيد ووكر، لقد أعددت رسالتك عن شيلي والتصور الهيليني. ليس من المحتمل أن تكون قد تمكنت من موضوعك تماماً الآن، لكن هل لك أن تبدأ بعرض خلفية عن الموضوع، وسبب اختيارك له، وما إلى ذلك؟»

أومأ ووكر وبدأ يتحدث. «أنا أنوي أن أتعقب رفض شيلي الأولي للجبرية الجودوينية كنموذج أفلاطوني من بعيد أو قريب، في «أنشودة الجمال الفكري»، ووصولاً إلى أنضج استخدام لذلك النموذج في بروميثيوس طليقاً، بالمزيج الشامل من إلحاده المبكر، وتطرفه، ومسيحيته، وحتميته العلمية، وأخيراً توثيق انهيار ذلك النموذج في أعماله الأخيرة مثل هيلاس. إنه بالنسبة لي موضوع مهم لثلاثة أسباب: الأول لأنه يبين جودة فكر شيلي، ومن ثم يقودنا إلى فهم أفضل لأشعاره، والثاني لأنه يوضح الصراعات الفلسفية والأدبية الرائدة في بدايات القرن التاسع عشر، ومن ثم يوسع فهمنا وتقديرنا للشعر الروماني، والثالث لأنه موضوع قد يكون ذا صلة خاصة بعصرنا الحالي، الذي نشهد فيه الكثير

من الصراعات المشابهة التي واجهت شيلي ومعاصريه».

استمع ستونر ودهشته تتزايد. لم يصدق أن هذا هو الرجل الذي حضر حلقته الدراسية، الذي ظن أنه يعرفه. كان عرض ووكر سلساً وواضحاً وذكياً، وأحياناً ألمعياً تقريباً. كان لوماكس محقاً، إن استوفت الرسالة ما تعد به، ستكون رسالة نبيهة. شعر بأمل ودفء وانتعاش، فمال إلى الأمام بانتباه.

تحدث ووكر عن موضوع رسالته لحوالي عشر دقائق ثم توقف بغتة. طرح لوماكس سؤال آخر بسرعة، وأجاب ووكر فوراً.

التقت عينا فينش بعيني ستونر بنظرة تساؤل معتدل، ابتسم ستونر ابتسامة خفيفة، تنم عن لومه لنفسه، ورفع كتفيه قليلاً.

حين توقف ووكر مرة أخرى، تحدث جيم هولاند على الفور. كان شابا نحيلاً، حاداً شاحباً بعينين زرقاوين جاحظتين قليلاً، يتحدث ببطء مقصود، بصوت يبدو متهدجاً على الدوام تحت وطأة كبح قسري. قال: «يا سيد ووكر، لقد ذكرت من قبل المذهب الجبري لجودوين. أتساءل إن كان بإمكانك الربط بين ذلك ومذهب الظاهراتية لجون لوك؟» تذكر ستونر أن هولاند متخصص في القرن الثامن عشر.

ساد الصمت لدقيقة. استدار ووكر لهولاند، نزع نظارته المستديرة، ومسحها، طرفت عيناه وحدقتا في اللاشيء. أعاد وضع نظارته وطرف ثانيةً. «هلا كررت السؤال ثانيةً، رجاءً؟»

بدأ هولاند يتحدث لكن لوماكس قاطعه قائلاً بدماثة: «جيم، هل تمانع إن أوضحتُ السؤال قليلاً؟» ثم استدار بسرعة لووكر قبل أن يتمكن هولاند من الإجابة: «سيد ووكر، انطلاقاً من مضامين سؤال بروفيسور هولاند- ألا وهي قبول جودوين بنظرية لوك عن الطبيعة

الحسية للمعرفة- التابولا راسا tabula rasa- وما إلى ذلك- واتفاقه مع لوك على أن الحكم والمعرفة المزورين اللذين تشوبهما العاطفة والجهل الحتمي قد يمكن تصحيحهما بالتعليم- انطلاقاً من تلك المضامين، هل لك أن تعلق على مبدأ شيلي في المعرفة- وخاصة مبدأ الجمال، كما ورد في البيوت الأخيرة من قصيدة 'أدونيس،؟»

عاد هولاند للوراء في مقعده وعلى وجهه تقطيبة حيرة. أومأ ووكر وقال بسرعة: «بالرغم من أن البيوت الافتتاحية لقصيدة أدونيس، مرثاة شيلي في موت صديقه وقرينه جون كيتس، هي بيوت كلاسيكية تقليدية، بتلميحاتها للأم والساعات والأورانيا[1] وما إلى ذلك من ابتهالات مكررة، إلا أن اللحظة الكلاسيكية الحقيقية لم تظهر سوى في البيوت الأخيرة، التي تعتبر في حقيقتها ترنيمة سامية في مبدأ الجمال الأزلي. إن ركزنا انتباهنا لدقيقة في تلك البيوت الشهيرة:

الحياة، كقبة زجاجية بألوان كثيرة

تتشرب البريق الأبيض للأزلية

إلى أن يذرها الموت كالهشيم

«لا تتضح الرمزية في تلك السطور حتى نضعها في سياقها الصحيح. «المتبقي،» كما كتب شيلي في السطور السابقة لها «التغييرات الكثيرة والرحيل.» ونتذكر هنا سطور كيتس الشهيرة كذلك:

الجمال حقيقة، الجمال حقيقي. هذا هو كل شيء

هذا ما تعرفه على الأرض، وهذا كل ما تحتاج إلى أن تعرفه.

---

(١) ربة علم الفلك

المبدأ إذاً هو الجمال، لكن الجمال أيضاً هو المعرفة. وهو مفهوم له جذوره...»

استمر صوت ووكر، منطلقاً وواثقاً من نفسه، تنطلق الكلمات من فمه الذي يتحرك بسرعة كأنه - بدأ ستونر، والأمل الذي حداه بغتة قد خمد بغتة أيضاً. ولوهلة شعر بإعياء بدني. نظر إلى أسفل إلى سطح المنضدة ورأى بين ذراعيه صورة وجهه منعكسة على السطح الخشبي الململمع جيداً. كانت صورة قاتمة، ولم يستطع تحديد ملامحها، كأنه رأى شبحاً يومض بوهن من صلابة الخشب ليقابله.

انتهى لوماكس من طرح أسئلته وبدأ هولاند. كان عرضاً بارعاً، أقر ستونر بينه وبين نفسه، عرضاً لا غبار عليه، بسحرٍ بالغ وحسٍ دعابة لا بأس به، أداره لوماكس من أوله لآخره، كان لوماكس أحياناً، حين يطرح هولاند سؤالاً، يتظاهر بحيرة طبيعية ويطلب منه التوضيح، وكان أحياناً أخرى يعتذر لحماسته، ويتبع أحد أسئلة هولاند بتخمين خاص منه، ليقود ووكر في النقاش، وليبدو الأمر أنه ليس سوى مشارك فعلي في النقاش. كان يعيد صياغة الأسئلة (بحس اعتذاري دائماً)، ويغيّرها حتى يغيب الغرض الحقيقي منها في التوضيح. كان يشرك ووكر فيما بدا أنه جدالات نظرية متقنة، رغم أنه من كان يقول أغلب ما ينبغي قوله. وفي النهاية، وما انفك يعتذر، كان يقاطع أسئلة هولاند بأسئلة من عنده تقود ووكر إلى حيث يريده أن يذهب.

أثناء كل هذا لم يتفوه ستونر بشيء. كان يستمع للمحادثات الدائرة من حوله، يحدق في وجه فينش، الذي تحول إلى قناع سميك، ينظر في وجه راثرفورد الذي جلس بعينيه المغمضتين يومئ برأسه، ينظر إلى حيرة هولاند، وازدراء ووكر المهذب، وانتعاش لوماكس المحموم. كان ينتظر أن يقوم بما يعرف أن عليه القيام به، فكان ينتظر برهبة وغيظ وأسف تزداد حدتها بداخله بمرور كل دقيقة. كان سعيداً لأنه لم يلتقِ

بعيون هؤلاء وهو ينظر إليهم.

أخيراً انتهى الوقت المتاح لهولاند. رمق فينش ساعة يده وأومأ دون أن يتحدث، كأنه بطريقة ما كان يشارك ستونر شعوره بالرهبة.

أخذ ستونر نفساً عميقاً، ولم يزل ينظر إلى شبح وجهه في سطح المنضدة الشبيه بالمرآة، ثم قال ببرود: «سيد ووكر، سأطرح عليك أسئلة قليلة في الأدب الإنجليزي. ستكون أسئلة بسيطة، لن تتطلب منك إجابات مطوّلة. سأبدأ من البدايات وسأواصل بالترتيب الزمني، بما سيسمح به الوقت المحدد لي. هل تبدأ بأن تذكر لي مبادئ نظم الشعر الأنجلو ساكسوني؟»

قال ووكر: «نعم يا سيدي». وتجمد وجهه. «بدايةً، لم يتمتع شعر الأنجلو ساكسون، لكونهم من العصور المظلمة، بالمميزات الحسية التي تمتع بها الشعراء اللاحقون بهم في التراث الإنجليزي. حقاً، يمكنني أن أقول إن شعرهم كان يتسم بالبدائية. مع ذلك كان يتخلل تلك البدائية طاقة ما، ربما تخفى على عيون البعض، توجد طاقة ورقة شاعرية تميز...»

قاطعه ستونر: «سيد ووكر، لقد طلبت منك مبادئ نظم الشعر. هل يمكنك ذكر المبادئ؟»

قال ووكر: «حسنًا يا سيدي، هذا صعب جدًا وغير عادي، أعني بذلك نظم الشعر».

«أهذا كل ما لديك لتقوله؟»

قال لوماكس بسرعة: «يا سيد ووكر..» وبشراسة قليلاً – كما ظن ستونر – «.. هذه الصعوبة التي تتحدث عنها- هل يمكنك وصفها، أن تعطينا الـــ..»

قال ستونر بحزم ودون أن ينظر إلى أحد: «لا. أنا أريد إجابة عن سؤالي. أهذا كل ما لديك لتقوله عن نظم الشعر الأنجلو ساكسوني؟»

قال ووكر: «حسناً يا سيدي». ثم ابتسم، فخرجت الابتسامة في قهقهة عصبية. «الصراحة هي أنني لم أدرس منهج الأنجلو ساكسون المطلوب مني بعد، وقد ترددت في مناقشة تلك الموضوعات دون دراستها».

قال ستونر: «حسنًا، لنتخطَ الأدب الأنجلو ساكسوني، هل لك أن تذكر لي عنوان مسرحية من القرون الوسطى لها أي تأثير في تطور مسرح النهضة؟»

أومأ ووكر قائلاً: «بالطبع، جميع مسرحيات القرون الوسطى، بطريقتها الخاصة، أدت إلى ازدهار النهضة. من الصعوبة بمكان إدراك هذا بمبعدة عن جدب تربة مسرح القرون الوسطى، فمسرح شكسبير، بعد ذلك بسنوات قليلة، كان ليزدهر و..»

«سيد ووكر، إن أسئلتي بسيطة، وأنا أصر على أن أحظى بإجابات بسيطة. دعني أطرح السؤال عليك بشكل أبسط من ذلك. اذكر ثلاث مسرحيات من القرون الوسطى».

«من البدايات أم من الأواخر يا سيدي؟» سأل ووكر وهو ينزع نظارته ويمسحها بعصبية.

«أي ثلاث يا سيد ووكر».

«يوجد الكثير جدًا منها. من الصعب أن.. يوجد مسرحية جميع الرجال...»

«هل يمكنك ذكر المزيد؟»

«لا سيدي. عليّ أن أعترف بضعفي في مجالاتك التي...»

«هل يمكنك أن تذكر أيه عناوين أخرى- عناوين فقط- لأعمال أدبية من القرون الوسطى؟»

ارتعشت يدا ووكر وهو يقول: «كما قلت يا سيدي، أنا أعترف بضعفي في..»

«لننتقل إذاً إلى عصر النهضة. ما اللون الأدبي الذي تشعر أنك بارع فيه أكثر من أي لون آخر في تلك الفترة يا سيد ووكر؟»

«الـ..» تردد ووكر ونظر رغماً عنه إلى لوماكس بتوسل. «الشعر، سيدي. أو.. المسرح. المسرح ربما».

«المسرح إذاً. ما أول ملحمة من الشعر الإنجليزي الحر يا سيد ووكر؟»

«الأولى؟» لعق ووكر شفتيه وأضاف: «تنقسم الإجابة حسب السؤال سيدي، أنا متردد في...»

«هل لك أن تذكر أية مسرحية لها أهمية قبل شكسبير؟»

«بالتأكيد سيدي، يوجد مارلو.. البيت الخماسي التفاعيل».

«اذكر عنوان مسرحية لمارلو».

استجمع ووكر نفسه بجهد وقال: «يوجد بالطبع، العمل الغني عن التعريف دكتور فاوست، و.. ويهودي مالطا».

«فاوست ويهودي مالطا، هل لك أن تذكر المزيد؟»

«في الحقيقة، سيدي هاتان هما المسرحيتان الوحيدتان اللتان تسنت

لي الفرصة لإعادة قراءتهما في السنة الأخيرة تقريباً. لذلك أفضل ألا..»

«وهو كذلك. حدّثني عن يهودي مالطا».

صاح لوماكس: «سيد ووكر، إذا سمحت لي أن أوسع نطاق السؤال قليلاً. إن أردت أن..»

قاطعه ستونر بتجهم دون أن ينظر إليه: «لا! أنا أريد إجابات لأسئلتي يا سيد ووكر».

قال ووكر بيأس: «البيت خماسي التفاعيل لمارلو».

قال ستونر بضجر: «لندع «خماسي التفاعيل» جانباً، قل لي ماذا يحدث في المسرحية؟»

قال ووكر بشراسة قليلاً: «حسناً، يقوم مارلو بالهجوم على أعداء السامية كما تتجلى في بدايات القرن السادس عشر. التعاطف، إن جاز لي القول، التعاطف العميق».

«لا علينا يا سيد ووكر. لنواصل إلى...»

صاح لوماكس: «دع الطالب يجيب على الأسئلة! على الأقل امنحه الوقت ليجيب».

قال ستونر باقتضاب: «حسناً، هل ترغب في إكمال إجابتك يا سيد ووكر؟»

تردد ووكر لوهلة، ثم قال: «لا يا سيدي».

واصل ستونر أسئلته بلا شفقة، وتحول ما كان غيظ وغضب من ووكر ولوماكس إلى ما يشبه الشفقة عليهما والأسف لهما أيضاً. بعد فترة

بدا لستونر أنه خرج من نفسه، وأنه يسمع صوته يواصل ويستمر، بارداً ومميتاً.

وأخيراً سمع صوته يقول: «وهو كذلك يا سيد ووكر. إن فترة تخصصك في القرن التاسع عشر. يبدو أنك تعرف القليل عن أدب القرون السابقة له، لعلك ستشعر براحة أكثر بين الشعراء الرومانسيين».

كان يحاول ألا ينظر في وجه ووكر، لكنه لم يستطع منع عينيه من الارتفاع من حين لآخر ليرى ذلك القناع الذي يحدق فيه بدهاء بارد وشاحب. أومأ ووكر باقتضاب. «أنت تعرف أهم قصائد لورد بايرون، أليس كذلك؟»

«بالطبع».

«هل لك أن تعلق إذاً على الشعراء الإنجليز والنقاد الأسكتلنديون[1]؟»

نظر إليه ووكر بارتياب. ثم ابتسم بانتصار قائلاً: «آه، سيدي،» ثم أومأ برأسه بقوة مضيفاً: «فهمت. الآن فهمت. أنت تحاول خداعي. بالطبع..الشعراء الإنجليز والنقاد الأسكتلنديون ليست لبايرون على الإطلاق. إنها الرد الشهير لجون كيتس على الصحفيين الذين حاولوا تشويه سمعته كشاعر، بعد نشر قصائده الأولى. جيد يا سيدي. جيد».

قال ستونر بضجر: «وهو كذلك يا سيد ووكر. ليس لدى أسئلة أخرى».

ظلوا كأن على رؤوسهم الطير لعدة دقائق. ثم تنحنح راثرفورد، وعبث في الأوراق الموضوعة على المنضدة أمامه، وقال: «شكرًا لك يا سيد ووكر، رجاءً انتظرنا بالخارج لدقائق، ستناقش اللجنة امتحانك

---

(١) قصيدة هجاء للورد بايرون

وسنُعلمك بقرارنا».

في الدقائق القليلة التي قال فيها راثرفورد ما سبق، تدبر ووكر أن يستجمع نفسه مجدداً. نهض وأراح يده المشلولة على سطح الطاولة. ابتسم للمجموعة بتذلل تقريباً قائلاً: «شكرًا لكم أيها السادة المحترمون، لقد كانت تجربة غنية للغاية». ثم سار يعرج وخرج من الباب وأغلقه خلفه.

تنهد راثرفورد وقال: «حسناً أيها السادة، هل من نقاش؟»

ساد الصمت.

قال لوماكس: «أرى أنه كان جيداً جداً في الجزء الخاص بي من الامتحان. وكان جيدًا إلى حد ما في الجزء الخاص بهولاند. لابد أن أعترف إنني أصبت بخيبة أمل تقريباً مما حدث في الجزء الأخير من الامتحان، لكن ظني أنه كان مجهداً. إنه طالب جيد، لكن ذلك لا يتضح جيداً تحت الضغوط». وتوجه لستونر بابتسامة فارغة ومتألمة مضيفاً: «وأنت قد ضغطت عليه قليلاً يا بيل، يجب أن تعترف بهذا، أنا أصوّت بالنجاح».

قال راثرفورد: «سيد هولاند؟»

نقل هولاند بصره من لوماكس إلى ستونر، مقطبًا حاجبيه في حيرة، وعيناه تطرفان. قال: «ولكن.. حسناً، يبدو لي ضعيفاً على نحو مريع. لا أعرف كيف أحدد الأمر بدقة». بلع ريقه باضطراب وأضاف: «هذه أول امتحانات شفوية أشارك فيها ولا أعرف المعايير حقاً، ولكن.. يبدو ضعيفاً بشكل مريع. دعني أفكر في الأمر قليلاً».

أومأ راثرفورد وقال: «سيد.. ستونر؟»

قال ستونر: «راسب.. الأمر واضح تماماً».

صاح لوماكس: «أوه، على رسلك يا بيل، أنت تقسو قليلاً على الفتى، أليس كذلك؟»

قال ستونر بهدوء وهو ينظر أمامه مباشرة: «لا. أنت تعرف أنني لا أقسو عليه يا هولي».

صاح لوماكس: «ماذا تقصد بهذا؟» بدا كأنه يحاول برفع صوته إضفاء الانفعال عليه. «ماذا تقصد حقاً؟»

قال ستونر بضجر: «توقف عن هذا يا هولي. الرجل ليس كفؤًا. لا شك في هذا. إن الأسئلة التي طرحتها عليه كانت لتوجه إلى طالب عادي لم يتخرج بعد، ولم يستطع تقديم إجابة شافية على سؤال واحد. وهو أيضاً كسول وغشاش. في حلقتي الدراسية الفصل الدراسي الماضي...»

قال لوماكس: «حلقتك الدراسية!» وضحك باقتضاب ثم تابع: «نعم، لقد سمعت عن هذا، هذا ليس موضوعنا. السؤال هو كيف كان اليوم. ومن الواضح أنه..» وضاقت عيناه وهو يقول: «الواضح أنه كان يبلي بلاءً حسناً اليوم حتى بدأت أنت بالهجوم عليه».

قال ستونر: «لقد طرحت عليه أسئلة. أبسط الأسئلة التي يمكنني تخيلها. وقد كنت على استعداد أن أمنحه كل الفرص الممكنة». سكت ثم تابع بحرص: «أنت المشرف على رسالته، ومن الطبيعي أن تكونا قد تحدثتما عن موضوع رسالته. لذلك حين سألته حول رسالته أبلى بلاءً حسناً جداً، ولكن حين تخطينا موضوعه..»

صاح لوماكس: «ماذا تعني؟! هل تلمح إلى أنني.. إلى أن ثمة أي...»

«أنا لا ألمح إلى شيء، سوى أن الطالب، من وجهة نظري، لم يقم بواجبه كما ينبغي، لا يمكنني الموافقة على نجاحه».

«انظر». قال لوماكس بصوت هادئ محاولاً أن يبتسم: «أنا أفهم كيف يمكن أن يكون رأيي في عمله أفضل من رأيك فيه. لقد درّسته في عدة مواد و.. لا يهم. أنا على استعداد للوصول إلى حل وسط. مع أنني أظن أن ذلك سيكون من القسوة عليه. أنا أرحب بأن نعرض عليه نجاحاً مشروطاً. ما يعني أن بإمكانه مراجعة الرسالة لفصلين دراسيين آخرين، ثم يمكنه أن..»

قال هولاند ببعض الارتياح: «حسناً، سيكون ذلك أفضل من إنجاحه بلا شروط. أنا لا أعرفه، لكن من الواضح إنه غير مستعد لـ..»

قال لوماكس وهو يبتسم لهولاند بحماسة: «حسناً. اتفقنا إذاً. سنقوم بـ..»

قاطعه ستونر: «لا. أنا أصوِّت براسب».

صاح لوماكس: «اللعنة على هذا. أتدرك ما تفعله ستونر؟ هل تدرك ما تفعله بالفتى؟»

قال ستونر بهدوء: «نعم. وأشعر بالأسف له، أنا أمنعه من نيل درجته، وأمنعه من التدريس في كلية أو جامعة. وهذا بالضبط ما أريده. لأنه إذا أصبح مدرساً، سيكون ذلك بمثابة..كارثة».

بقي لوماكس ساكناً وهو يسأل ببرود جليدي: «أهذه كلمتك الأخيرة؟»

قال ستونر: «نعم».

أومأ لوماكس قائلاً: «حسناً، دعني أحذرك يا بروفيسور ستونر، أنا لن أترك هذا الأمر يمر هكذا. لقد قمت بـ..، لقد ألمحت إلى اتهامات معينة هنا، اليوم وأظهرت تحامل من شأنه.. من شأنه أن...»

قال راثرفورد: «أيها السادة، رجاءً». وبدا كأنه سيبكي. «دعونا نركز في الموضوع. كما تعرفون، لينجح الطالب، لابد من الموافقة على ذلك بالإجماع. فهل ثمة طريقة لتسوية هذا الخلاف؟»

لم يتفوه أحد بكلمة.

تنهد راثرفورد وقال: «حسناً، إذاً ليس لدي خيار آخر سوى أن أعلن أن..»

«لحظة من فضلكم». كان ذلك جوردون فينش الذي ظل ساكناً طوال فترة الامتحان حتى نسي الآخرون وجوده تقريباً. اعتدل في جلسته قليلاً الآن وخاطب سطح المنضدة بصوت مجهد، لكنه حازم، قائلاً: «كقائم بأعمال رئيس القسم سأقدم توصية. وأنا واثق من أنكم ستوافقون عليها. أنا أوصي بتأجيل القرار إلى ما بعد الغد. فهذا سيمنحنا الوقت لنهدأ ونتشاور في الأمر مرة أخرى».

قال لوماكس بحرارة: «لا يوجد ما نتشاور بشأنه، إن أراد ستونر أن...»

قال فينش بهدوء: «لقد قدمت توصيتي، وستوافقون عليها. أيها العميد راثرفورد، أقترح أن نخطر الطالب بقرارنا حول هذه المسألة».

وجدوا ووكر جالساً باطمئنان تام في الرواق خارج غرفة الاجتماع. في يده اليمنى سيجارة يمسكها بلامبالاة، ويحدق بضجر في السقف.

نادى عليه لوماكس وهو يعرج نحوه: «سيد ووكر».

نهض ووكر، كان أطول من لوماكس بعدة بوصات، فكان عليه أن ينظر إليه من أعلى.

قال لوماكس: «سيد ووكر، لقد كُلِّفت بإخطارك بأن اللجنة لم تستطع الوصول إلى قرار بخصوص نتيجة امتحانك، وسنحيطك علمًا بقرارنا بعد غد. لكنني أؤكد لك..» ـ ورفع صوته «أؤكد لك أنه لا داعي للقلق. لا داعي على الإطلاق».

وقف ووكر لدقيقة ينقل بصره ببرود من واحد لآخر. قال: «شكرًا لكم أيها السادة على اهتمامكم». والتقت عيناه بعيني ستونر، وطاف فوق شفتيه شبح ابتسامة.

أسرع جوردون فينش يسير مبتعداً دون أن يتحدث مع أحد منهم، وسار ستونر وراثرفورد وهولاند في الرواق معاً، بينما ظل لوماكس يتحدث بجدية مع ووكر.

قال راثرفورد وهو يسير بين ستونر وهولاند: «إنه أمر حزين، بغض النظر عن وجهة نظركما لكنه أمر حزين».

قال ستونر: «نعم، إنه كذلك بالفعل». ثم استدار وسار مبتعدًا عنهما. هبط درجات السلم الرخامية، تتسارع خطواته كلما اقترب من الطابق الأرضي، وسار خارجاً من المبنى. تنفس هواء الظهيرة المعبأ بدخان عميق، ثم تنفس ثانيةً، كأنه سبّاح طفا لتوه من تحت سطح الماء. ثم سار ببطء في طريقه لمنزله.

تلقى في وقت مبكر من ظهيرة اليوم التالي، قبل أن يتناول غداءه، مكالمة هاتفية من سكرتارية جوردون فينش تطلب منه القدوم إلى مكتبه على الفور.

حين دلف ستونر غرفة المكتب، كان جوردون ينتظره بصبر نافد.

نهض وأشار له بأن بالجلوس على الكرسي الذي سحبه إلى جانب مكتبه.

سأله ستونر: «هل يتعلق الأمر بموضوع ووكر؟»

أجابه فينش: « إلى حد ما. طلب مني لوماكس عقد اجتماع لنحاول تسوية هذا الأمر. الأرجح أنه أمر حزين. أردت أن أتحدث معك قليلاً على انفراد قبل وصول لوماكس». جلس مرة أخرى، وظل يتأرجح بكرسيه الدوّار للأمام والخلف، لعدة دقائق، وهو ينظر بتأمل لستونر. ثم قال فجأة: «إن لوماكس رجل جيد».

قال ستونر: «أعلم هذا. قد يعد بطريقة ما أفضل من في القسم».

تابع فينش كأن ستونر لم يتكلم: «لديه مشاكله، لكنها لا تظهر كثيراً، وحين تظهر يكون بمقدوره السيطرة عليها. إنه لسوء حظ أن تبرز تلك المشكلة الآن. التوقيت سيء بشكل لعين، انقسام في القسم الآن..» ثم سكت وهز رأسه.

قال ستونر بقلق: «جوردون، أرجو ألا تكون...»

رفع فينش يده قائلاً: «انتظر. ليتني أخبرتك بهذا من قبل. لكن لم يكن من حقي أن أفشيه، كذلك لم يكن قد أُقر رسمياً. وما زال الأمر سريًا، لكن.. أتتذكر حديثنا منذ أسابيع قليلة عن رئاسة القسم؟»

أومأ ستونر.

«حسناً، إنه لوماكس. إنه الرئيس الجديد. الأمر منتهٍ، اتفقنا على هذا. لقد جاء ترشيحه من أعلى، لكن يجب أن أخبرك أنني وافقت عليه». ثم ضحك باقتضاب وأضاف: «مع أن ليس باستطاعتي الاعتراض. ولكن حتى وإن كنت سأوافق عليه- ثم.. الآن.. لست واثقاً تماماً».

قال ستونر بنبرة تأملية: «فهمت». ثم أضاف بعد عدة دقائق: «أنا سعيد لأنك لم تخبرني. لا أظن أنه كان ليحدث أي فارق، لكن على الأقل لم يشوش علي الأمر».

قال فينش: «اللعنة عليك يا بيل.. يجب أن تفهم، أنا لا يعنيني أمر ووكر البتة، ولا لوماكس، ولا.. لكنك صديق قديم. انظر. أظن أنك على حق في هذا. اللعنة. بل أعرف أنك على حق. لكن لنكن عمليين. إن لوماكس يأخذ هذا الأمر بجدية شديدة، ولن ينساها لك. وإن تفاقمت المسألة لتصبح معركة، ستكون مؤلمة كالجحيم. إن لوماكس انتقامي، أنت تعرف هذا كما أعرفه. ليس بإمكانه فصلك من العمل، لكن يمكنه فعل كل شيء آخر قريب من ذلك. وسيكون علي أن أوافقه فيما يفعله إلى حد ما». ضحك مرة أخرى، بمرارة، وتابع: «اللعنة، سيكون علي أن أوافقه إلى حد بعيد. إن بدأ العميد بنقض قرارات رئيس قسم فعليه فصله من الرئاسة. لكن إذا خرج لوماكس عن مساره، يمكنني أن أنقله، أو على الأقل أن أحاول. قد أنجح في ذلك، أو لا. لكن حتى وإن قمت بهذا، سينشأ صراع من شأنه أن يحدث في القسم، وربما في الكلية كذلك، شقاً واسعاً. ثم، اللعنة..» تملّكه اضطراب مفاجئ وتمتم: «اللعنة، إن من واجبي أن أفكر في الكلية». ونظر إلى ستونر مباشرة يسأله: «هل تفهم ما أحاول قوله؟»

غمرت ستونر مشاعر دافئة من الحب والاحترام الأثير لصديقه القديم، فقال: «بالطبع أفهم يا جوردون. ألا تظن أنني أفهم؟»

«وهو كذلك. وثمة أمر آخر. إن لوماكس يتمتع بنفوذ ما على الرئيس، تراه يقوده مثل الثور الأعمى، لذلك قد يستعصي الأمر إلى حد أبعد مما تظن. انظر، كل ما عليك فعله هو أن تقول إنك ستعيد النظر في الأمر. يمكنك حتى أن تلقي علي أنا اللوم في هذا الأمر ـ قل إنني من جعلك تفعل ذلك».

«الأمر لا يتعلق بحفظ ماء وجهي يا جوردون».

«أعلم هذا. لقد قلت ذلك بطريقة خاطئة. انظر إلى الأمر على هذا النحو. فيما يعنيك ووكر؟ مسألة مبدأ بالطبع، أعرف ذلك، ولكن ثمة مبدأ آخر عليك أن تحترمه».

«المسألة ليست في المبدأ، إنها في ووكر، ستكون كارثة إن أطلقته كمدرس في قاعة درس».

قال فينش بإرهاق: «اللعنة. إن لم ينجح هنا، سيذهب إلى مكان آخر وينال درجته، وبالرغم من كل شيء قد يشق طريقه إلى هنا أيضاً. قد تخسر هذه المعركة، أنت تعرف هذا، بغض النظر عن كل ما ستفعله. لن نستطيع إبعاد ووكر وأمثاله».

«لعلنا لن نستطيع، لكن علينا أن نحاول».

سكت فينش لعدة دقائق. ثم تنهد وقال: «وهو كذلك، لا جدوى من إبقاء لوماكس منتظرًا لأكثر من ذلك.. لننهِ هذا الأمر على أي نحو». نهض عن مكتبه وجعل يسير نحو باب غرفة الانتظار الصغيرة. لكنه وهو يمر بستونر، استوقفه الأخير بأن وضع يده على ذراعه قائلاً: «جوردون، هل تتذكر ما قاله ديف ماسترس ذات مرة؟»

رفع فينش حاجبيه وسأله بحيرة: «لماذا تذكر ديف ماسترس الآن؟»

نظر ستونر عبر الغرفة، إلى خارج النافذة، يحاول أن يتذكر، وقال: «كنا نحن الثلاثة معاً وقال ماسترس شيئًا ما عن كون الجامعة تشبه المصحة النفسية، ملجأ بعيد عن العالم، للعجزة والمقعدين، لكنه لم يقصد ووكر. كان ديف ليعتبر ووكر- العالم. ونحن لا نستطيع أن نضمه. لأننا إن فعلنا ذلك سنصبح مثل العالم، غير حقيقيون تماماً مثل... إن أملنا الوحيد أن نستبعده».

نظر إليه فينش لعدة دقائق. ثم ابتسم وقال بمرح: «أيها العجوز! الأفضل أن نرى لوماكس الآن». ثم فتح الباب، وأشار للوماكس بالدخول.

دلف لوماكس إلى الغرفة بتكلّف ورسمية لحد أن بدا عرج ساقه اليمنى الخفيف غير ملحوظ، كان وجهه النحيل الوسيم محدد وبارد، وكان يرفع رأسه بشموخ لحد جعل شعره المموج، الطويل إلى حد ما، يلمس الحدبة التي تشوه ظهره عند كتفه اليسرى. لم ينظر إلى أحدٍ منهما، أخذ كرسيًا مقابل لمكتب فينش وجلس منتصب القامة ما استطاع، يحدق في الفراغ الفاصل بين فينش وستونر. ثم أدار رأسه نحو فينش قليلاً وقال: «لقد طلبت منك عقد لقاء بين ثلاثتنا لغرض بسيط، أريد أن أعرف ما إذا كان بروفيسور ستونر قد أعاد النظر في قراره السلبي من البارحة أم لا».

قال فينش: «كنا نتناقش في هذا أنا والسيد ستونر. أخشى أننا لم نستطع تسوية الأمر».

استدار لوماكس لستونر وحدّق فيه، كانت عيناه الزرقاوان الفاتحتان بليدتين كأنهما تحت غطاء شفاف. قال: «إذاً، أخشى أنني سأضطر إلى الكشف عن اتهامات جدية للغاية».

سأل فينش بصوت مدهوش وغاضب قليلاً: «اتهامات؟ لم تذكر قط أي شيء عن..»

قال لوماكس: «أنا آسف، ولكن هذا ضروري». ثم قال لستونر: «تحدثت أول لمرة لتشارلز ووكر حين طلب منك ضمه لحلقتك الدراسية. هل هذا صحيح؟»

قال ستونر: «هذا صحيح».

«لم تكن مُرحبًا بضمه، أليس كذلك؟»

«بلى، كان لدي بالفعل اثنا عشر طالبًا».

نظر لوماكس في أوراق كان يحملها في يده اليمنى وسأل: «وحين أخبرك الطالب أنه يجب أن ينضم للحلقة، سمحت له مُكرهاً، لكنك قلت في نفس الوقت إن ضمه سيدمر الحلقة عملياً. هل هذا صحيح؟»

قال ستونر: «ليس تماماً. على حد ما أتذكر قلت إن انضمام طالب آخر سينهي..»

لوح لوماكس بيده قائلاً: «لا يهم، إنني فقط أحاول وضع السياق. الآن، أثناء تلك المحادثة الأولى، هل قمت باختبار مستواه للعمل في الحلقة الدراسية؟»

قال جوردون فينش بإرهاق: «هولي، إلى أين يذهب بنا كل هذا؟ ما مصلحتك في..»

قال لوماكس: «رجاءً، لقد قلت إنني سألقى باتهامات. عليك أن تدعني أسوقها. الآن.. هل اختبرت مستواه؟»

قال ستونر بهدوء: «سألته عدة أسئلة نعم. لأرى إن كان بإمكانه القيام بالعمل».

«وهل رأيت منه ما يرضيك؟»

«لم أكن واثقًا، على ما أعتقد، من الصعب أن أتذكر».

استدار لوماكس لفينش قائلاً: «لقد اتفقنا إذاً على أنه أولاً لم يكن بروفيسور ستونر مُرحباً بضم ووكر لحلقته الدراسية، وثانياً إن عدم ترحيبه كان حاداً لدرجة أن هدده بأن انضمامه للحلقة من شأنه أن

يدمرها، وثالثاً أنه كان على أقل تقدير متشككًا في كفاءة ووكر، ورابعاً أنه بالرغم من هذا التشكك وتلك المشاعر المزدرية قد وافق على ضمه بأية حال».

هز فينش رأسه بيأس قائلاً: «هولي، كل هذا بلا جدوى».

قال لوماكس: «انتظر». ونظر بسرعة في ملحوظاته ثم رفع نظره إليه ثانيةً بدهاء وقال: «لدى العديد من النقاط الأخرى لأثبتها. ويمكنني أن أثبتها «بالاستجواب»- لافظاً الكلمة بنبرة ساخرة- «لكنني لست بمحام. مع ذلك أؤكد لكما أنني على استعداد لإثبات تلك الاتهامات إذا اقتضت الضرورة ذلك». ثم سكت كأن ليستجمع قواه وتابع: «أنا على استعداد لأثبت، أولاً، أن بروفيسور ستونر قد سمح لووكر بالانضمام لحلقته الدراسية بينما يحمل بداخله ضغينة ما وتحامل عليه، وأن أثبت أن هذا التحامل قد زادت من حدته بعض الخلافات في الأمزجة والمشاعر نشأت أثناء سير أعمال الحلقة الدراسية، وأن السيد ستونر نفسه قد زاد من حدة هذا الخلاف وعمقه، وقد سمح لأعضاء الحلقة الآخرين، وشجعهم بالفعل في بعض الأحيان، على السخرية من السيد ووكر والهزء به. أنا على استعداد أن أثبت أن هذا التحامل على السيد ووكر قد ظهر في أكثر من مناسبة في أقوال السيد ستونر، سواءً للطلبة أو لآخرين، وأنه اتهم السيد ووكر «بالهجوم» على أحد الطلبة في حلقته الدراسية، في حين كان السيد ووكر يتبنى فقط وجهة نظر مختلفة، وأنه أعرب عن غضبه مما دعاه «الهجوم»، وأنه، فضلاً عن ذلك، شارك في حديث مرسل عن «تصرف السيد ووكر بحماقة»، وأنا على استعداد أيضاً أن أثبت أن بروفيسور ستونر، بلا داعٍ، وفقط من باب التحامل على السيد ووكر، قد اتهمه بالكسل، والجهلٍ وعدم الأمانة، وأخيراً، أن السيد ووكر، دوناً عن الثلاثة عشر طالبًا الآخرين في الحلقة الدراسية، كان الوحيد، الذي طلب منه بروفيسور ستونر، بناءً على تشككه فيه، تسليم نَص بحثه في الحلقة الدراسية. وأنا الآن أطالب بروفيسور ستونر

أن ينفي عن نفسه تلك الاتهامات سواء على فرادى أو جماعات».

هز ستونر رأسه بإعجاب تقريباً قائلاً: «يا إلهي! أنت بالطبع تجعل كل ما تقوله حقيقة، ولكن لا شيء مما تقوله حقيقي. ليس على النحو الذي ذكرته».

أومأ لوماكس كأنه كان يتوقع تلك الإجابة من ستونر وقال: «أنا على استعداد لإثبات حقيقة كل ما قلته، سيكون من السهل، إن اقتضى الأمر، استدعاء أعضاء الحلقة الدراسية، فرداً فرداً، واستجوابهم».

قال ستونر بحدة: «لا! هذا، على نحو ما، أفظع ما قلته منذ فتحت فمك اليوم. أنا لن أسمح باستدراج الطلبة إلى هذه المهزلة».

قال لوماكس بهدوء: «لن يكون لديك الخيار يا ستونر. لن يكون لديك الخيار على الإطلاق».

نظر جوردون فينش إلى لوماكس، وقال بهدوء: «ماذا تريد؟»

تجاهله لوماكس. وقال لستونر: «أخبرني السيد ووكر أنه، بالرغم من عدم اقتناعه بذلك من حيث المبدأ، لكنه مستعد الآن أن يُسلمك بحثه في الحلقة الدراسية التي ألقيت حوله الكثير من الشكوك المجحفة، وإنه على استعداد لقبول أي قرار قد تتخذه أنت وأي عضوين آخرين مؤهلين من القسم. فإن حازت الورقة على تقدير مقبول بأغلبية الثلاثة، ينال تقدير مقبول في الحلقة الدراسية، ويجوز له مواصلة الدراسات العليا».

هز ستونر رأسه، وشعر بالخجل يمنعه من النظر في عيني لوماكس وقال: «أنت تعلم أنه لن يمكنني هذا».

«حسناً، أنا أكره أن أفعل هذا، ولكن.. إن لم تغير صوتك الذي

أدليت به البارحة، سأضطر إلى اتهامك بكل هذا بشكل رسمي».

علا صوت جوردون فينش قائلاً: «ستضطر إلى ماذا؟»

قال لوماكس ببرود: «إن نظام جامعة ميزوري يجيز لأي عضو يحوز منصبًا في الكلية اتهام عضو آخر يحوز منصبًا في الكلية نفسها، إن كان ثمة أسباب قوية تدعو إلى الاعتقاد بأن عضو الكلية المتهم غير كفؤ، أو غير أخلاقي، أو لا يقوم بمهامه طبقاً للمعايير الأخلاقية المنصوص عليها في الفقرة الثالثة من المادة السادسة بالنظام. ستُلقى تلك الاتهامات، وأدلتها التي تثبتها، على مسامع جميع أعضاء الكلية، وفي نهاية المحاكمة، ستقوم الكلية إما بتأكيد الاتهامات بثلثي الأصوات أو بنفيها بتصويت أقل من ذلك».

مال جوردون فينش للوراء في جلسته بفم مشدوه، وهو يهز رأسه غير مصدق، وقال: «اسمعا، هذا الأمر يخرج عن نطاق السيطرة. لا يمكن أن تكون جادًا يا هولي».

«أؤكد لك أنني كذلك. هذه مسألة خطيرة. إنها مسألة مبدأ، و.. ومصداقيتي صارت محل شبهات. من حقي أنا الآخر أن ألقى بالاتهامات إن اقتضى الأمر ذلك».

قال فينش: «لن يمكنك إثباتها أبداً».

«بغض النظر عن ذلك، يظل من حقي أن ألقي بها».

حدق فينش في لوماكس لبرهة. ثم قال بهدوء، وبود تقريباً: «لن يصل الأمر إلى إلقاء الاتهامات، أنا لا أعرف كيف ستتم تسويته، ولا يعنيني هذا على نحو خاص. ولكن لن تكون هناك اتهامات. سنخرج جميعاً من هنا خلال دقائق، وسننسى جميعاً أغلب ما قيل اليوم، أو على الأقل سنتظاهر بهذا. أنا لن أسمح باستدراج القسم أو الكلية إلى هذه المهزلة.

لن تكون هناك اتهامات لأنه..» وأضاف بسرور: «لأنه إن قمت بإلقاء الاتهامات فأنا أؤكد لك أنني سأبذل قصارى جهدي لأراك مُدمّراً. ولن يوقفني شيء، سأستغل كل ما لدى من نفوذ لأقوم بهذا، سأكذب إن اقتضى الأمر، سألفق لك اتهامات أخرى إن اضطررت. سأقوم الآن بإخطار العميد راثرفورد بأن التصويت السابق بشأن السيد ووكر يظل سارياً، وإن كنت ترغب في فعل ما تقوله، يمكنك الذهاب به إليه، أو إلى الرئيس، أو إلى الرب إن شئت. ولكن هذا المكتب قد انتهى من النظر في هذا الأمر، ولا أريد أن أسمع المزيد بشأنه».

تحول تعبير وجه لوماكس أثناء حديث فينش إلى متفكر وبارد. وما إن أنهى فينش أومأ له لوماكس بتلقائية تقريباً ونهض عن كرسيه. ألقى بنظرة أخيرة إلى ستونر، سار عبر الغرفة وهو يعرج، وخرج منها. جلس فينش وستونر صامتين لعدة دقائق. ثم قال فينش أخيراً: «أتساءل عن الذي بينه وبين ووكر».

هز ستونر رأسه قائلاً: «الأمر ليس كما تظن، لا أعرف ما بينهما، ولا أظن أنني أريد أن أعرف».

بعد ذلك بعشرة أيام تم الإعلان عن تولّي هولي لوماكس منصب رئاسة قسم الأدب الإنجليزي، وبعد ذلك بأسبوعين تم توزيع جدول محاضرات العام المقبل على أعضاء القسم. وجد ستونر دون أن يندهش أن عليه، في الفصلين الدراسيين للعام الدراسي بأكمله، أن يُدرّس ثلاث مواد فقط لطلبة السنة الأولى في الإنشاء، ومادة واحدة لطلبة السنة الثانية، وأن مادة القراءة في أدب القرون الوسطى للسنوات الدراسية الأعلى، وحلقته الدراسية في الدراسات العليا، قد ألغيتا من البرنامج. أدرك أنه جدول مدرس مبتدئ. وزاد سوء الأمر بطرق أخرى، إذ أُحكم ترتيب الجدول تماماً، على نحو يجعله يلقي محاضراته في ساعات غريبة، ويفصل بينها فترات طويلة للغاية، لمدة ستة أيام في الأسبوع. لم يعترض

عليه البتة، وتدبر أمره أن يدرس العام الدراسي كأن شيئًا لم يكن. لكنه، ولأول مرة منذ أن بدأ التدريس، راح يفكر في احتمالية أن يترك الجامعة، وأن يدرس في مكان آخر. تحدث مع إديث عن هذا، فنظرت إليه كأنه قال شيئاً صادماً.

قالت: «لن أستطيع. أوه. لن أستطيع». ثم سألته بغضب لإدراكها خيانتها لنفسها بتعبيرها عن مخاوفها: «فيم تفكر؟ منزلنا- منزلنا الجميل. وأصدقاؤنا. ومدرسة جريس. ليس من مصلحة الطفل أن ينتقل من مدرسة لأخرى».

قال: «قد تقتضي الضرورة ذلك». لم يكن قد أخبرها بحادثة تشارلز ووكر ولا باشتراك لوماكس فيها، لكن سرعان ما اتضح له أنها على دراية تامة بالأمر.

قالت: «لا تفكر في هذا. لا تفكر فيه البتة». وسرعان ما زال غضبها على نحو غريب، وروتيني تقريباً، ابتعدت عنه عيناها الزرقاوان واستقرتا عرضاً على أشياء غريبة في غرفة الجلوس، كأنها تطمئن نفسها بأنها ما زالت موجودة، تحركت أصابعها النحيلة المنمشة قليلاً بقلق وقالت: «أوه، أنا أعرف كل شيء عن متاعبك. لم أتدخل قط في عملك، ولكن.. حقاً، أنت عنيد للغاية. أقصد، إنني وجريس متورطتان في هذا. وبالتأكيد لا تتوقع منا أن نحزم أمتعتنا وننتقل فقط لأنك وضعت نفسك في موقف مربِك».

«لكنني أفكر في الأمر جزئياً، على الأقل، لصالحكما أنتِ وجريس. ليس من المحتمل الآن أن.. أترقى لأبعد من هذا في القسم، إن بقيت هنا».

قالت بشرود، وبصوت استطاعت أن تُحمّله بالمرارة: «أوه. هذا لا يهم في شيء. لقد ظللنا فقراء حتى الآن، ولا يوجد سبب يمنعنا من

الاستمرار على تلك الحال. كان عليك أن تفكر في هذا من قبل، في عواقب الأمر..» تغير صوتها بغتة، وضحكت باستهانة وشفقة تقريباً وهي تقول: «حقًا.. إن الأشياء مهمة جداً بالنسبة لك، ما الفارق الذي كان سيحدثه؟»

ورفضت التفكير في الانتقال من كولومبيا، وأخبرته إنه إذا أصر على ذلك، يمكنها دائماً أن تنتقل هي وجريس إلى العيش مع الخالة إيما التي صارت عجوز للغاية وسترحب بأي صحبة.

تخلى عن الفكرة بسرعة كما واتته بسرعة. كان عليه أن يدرس في الصيف، وكان مهتمًا على نحو خاص بفصلين من فصوله، وكّل بهما قبل تولي لوماكس منصبه. تدبر أن يمنحهما كل اهتمامه، لمعرفته بأنه قد لا تتاح له فرصة تدريسهما مرة أخرى قبل وقت طويل.

ix.

بعد أسابيع قليلة من بداية خريف ١٩٣٢، بدا واضحاً لويليام ستونر أنه قد خسر معركته في استبعاد تشارلز ووكر من برنامج الدراسات العليا بقسم الأدب الإنجليزي. عاد ووكر بعد إجازة الصيف إلى الحرم الجامعي كمنتصر يدخل ميدان المعركة، وحين قابل ستونر في أروقة مبنى الجيسي هول، أحنى رأسه بسخرية وابتسم له بخبث. علم ستونر من جيم هولاند أن العميد راثرفورد قد أجّل إقرار تصويت العام الماضي بشكل رسمي، وأنه قد أصدر القرار بالسماح لووكر باجتياز الامتحانات الشفوية التمهيدي مرة أخرى، وسيقوم رئيس القسم بتشكيل لجنة الامتحانات.

انتهت المعركة إذن، ورحب ستونر بالإقرار بهزيمته، لكن الحرب لم تكن قد انتهت. حين كان ستونر يلتقي بلوماكس في الأروقة أو في اجتماعات القسم، أو في أحد اجتماعات الكلية، كان يتحدث معه كما كان يتحدث معه من قبل، كأن شيئا لم يكن، لكن لوماكس لم يكن يرد تحيته، بل كان يرمقه بنظرة باردة ويشيح ببصره عنه كمن يعلن أنه لن يُسترضى.

ذات يوم، دلف ستونر إلى مكتب لوماكس بدون موعد وظل واقفاً إلى جانب مكتبه لعدة دقائق إلى أن رفع إليه لوماكس نظره، على مضض، بشفتين مزمومتين وعينين قاسيتين.

حين أدرك ستونر أن لوماكس لن يتكلم قال بارتباك: «اسمع لوماكس، لقد انتهى الأمر وكلنا انتهينا منه. ألا يمكننا أن ننساه؟»

نظر إليه لوماكس بجمود.

تابع ستونر: «لقد نشأ بيننا خلاف، لكن ذلك ليس خارجاً عن المعتاد. لقد كنا صديقين من قبل، وأنا لا أرى سبباً...»

قال لوماكس بصراحة: «لم نكن صديقين من قبل قط».

«فليكن، لكننا كنا على وفاق على الأقل. يمكننا الاحتفاظ بأية خلافات بيننا، ولكن، بالله عليك، لا داعي لإظهارها. حتى الطلبة بدأوا يلاحظون».

«فليكن، مادام أحدهم كان مستقبله على وشك أن يُدمَّر. طالب متفوق جرمه الوحيد أن لديه خيال خصب، وحماسة وكرامة اضطرته لخوض صراع معك - ونعم، يمكنني أيضاً أن أقولها لك بصراحة، تعاسة حال بدنه من شأنها أن تثير تعاطف أي إنسان طبيعي». كان لوماكس يمسك بيده اليمنى السليمة بقلم رصاص بدأ يرتعش أمامه، فلاحظ ستونر بذعر أن لوماكس كان صادقاً على نحو مروِّع، وغير قابل للجدل. واصل لوماكس بحرارة: «لا. لا يمكنني مسامحتك في هذا».

حاول ستونر ألا يترك صوته يتجمد وهو يقول: «الأمر ليس عن التسامح، بل ببساطة عن سلوكنا إزاء أحدنا الآخر، يجب ألا يسبب القلق للطلبة وللأعضاء الآخرين في القسم».

«سأكون صريحًا معك للغاية يا ستونر». قال لوماكس بصوت هادئ، وقد برد غضبه وصار صوته يقرّ أمراً واقعاً فقط: «أنا لا أظن أنك تصلح لأن تكون مدرساً، لا أحد يصلح لهذا وتحامله يغلب على مواهبه وتدريسه. ربما كنت سأفصلك، إن كنت أتمتع بتلك الصلاحية، لكنني لست كذلك، كما يعرف كلانا أنت لا يحميك سوى نظام الجامعة، وأنا عليّ أن أتقبل هذا، لكنني لست مضطراً لنفاقك. لا أريد أن يكون لي أية

علاقة بك على الإطلاق. ولن أتظاهر بالعكس».

نظر إليه ستونر بثبات لعدة دقائق، ثم هز رأسه وقال بإجهاد: «وهو كذلك يا هولي». واستدار ليخرج من الغرفة.

استوقفه لوماكس صائحاً: «دقيقة من فضلك».

استدار له ستونر. كان لوماكس يحدق باهتمام في بعض الأوراق على المكتب أمامه، وجهه محمر، ويبدو أنه يقاوم نفسه في شيء ما. أدرك ستونر أن ما يراه ليس غضبًا بقدر ما هو خجل.

قال لوماكس: «من الآن فصاعداً، عليك أن تحدد موعد مع السكرتارية، إن أردت أن تراني في شأن من شؤون القسم». وبالرغم من وقوف ستونر يحدق فيه لعدة دقائق، لم يرفع لوماكس رأسه. تجهّمت ملامح وجهه ثم عاد إليها السكون. وخرج ستونر من الغرفة.

ولأكثر من عشرين عامًا بعد ذلك لم يتحدث أحدهما للآخر مباشرة أبداً.

أدرك ستونر فيما بعد أنه لا مناص من تأثُّر الطلبة بالأمر، وحتى لو كان قد استطاع إقناع لوماكس بالتظاهر، لم يكن ليستطيع، على المدى الطويل، منعهم من ملاحظة المعركة.

بدأ طلبته السابقون، حتى أولئك الذين كان على صلة جيدة بهم، يومئون له ويتحدثون معه بحذر، وخلسة حتى. طلبة قليلون من تحدثوا معه بود متفاخر، أو سعوا حرصًا كي يتحدثوا معه أو يسيروا معه في الأروقة على مرأى من الجميع، لكنه لم يعد يتمتع بتلك الألفة التي كانت بينه وبين طلبته من قبل. كان شخصية خاصة، يُرى المرء معه

أو لا يُرى معه لأسباب خاصة.

صار يشعر أن حضوره يسبب إحراجاً سواء لأصدقائه أو لأعدائه، فصار ينطوي على نفسه شيئاً فشيئاً.

لفّته حالة من الخمول، كان يلقي محاضراته بقدر ما يمكنه، برغم الروتين الرتيب للتدريس لطلبة السنتين الأولى والثانية الذي كان يُطفئ حماسه، ويتركه في نهاية اليوم مرهقاً وخدراً. بقدر ما أمكنه كان يقضي الساعات الطويلة الفاصلة بين محاضراته في اجتماعات مع الطلبة، يراجع أعمالهم بدأب، ويستبقيهم حتى يتملكهم الضجر والبرم.

زحف الوقت حوله ببطء. حاول أن يقضي المزيد من الوقت في البيت مع زوجته وابنته، لكن، نظراً لجدول محاضراته الغريب كان الوقت الذي يقضيه في البيت غير معتاد، ولا يناسب نظام إديث اليومي الصارم. اكتشف (دون أن يندهش) أن وجوده في البيت يزعج زوجته، إلى درجة أن ذلك يجعلها عصبية أو صامتة أو مريضة أحياناً. كذلك كان قلّما يرى جريس أثناء وجوده. إذ رتبت إديث جدول ابنتها بحرص، فكان وقت «فراغها» الوحيد في المساء فقط، وكان على ستونر أن يدرس محاضرات متأخرة لأربع أمسيات في الأسبوع. فكان عادةً ما ينهي عمله بعد أن تذهب جريس لفراشها.

فاستمر لا يرى جريس سوى لفترات قصيرة في الصباح، على الإفطار، ولا يُترك بمفرده معها إلا الوقت الذي تستغرقه إديث في رفع أطباق الإفطار عن المائدة ووضعها في الحوض. راقب جسدها يطول، ورأى جمال ساذج يستحوذ على جوارحها، وذكاء ينمو في عينيها الهادئتين ووجهها اليقظ. كان يشعر أحياناً أن بعض الود ما زال باقياً بينهما، ودٌّ ما لم يكن أحدهما ليجرؤ على الاعتراف به.

في نهاية المطاف عاد لعادته في قضاء معظم وقته في مكتبه بمبنى الجيسي هول، قال لنفسه إنه يجب أن يكون ممتناً لامتلاكه وقتاً له وحده للقراءة، بلا ضغوط التحضير لمحاضرات معينة، ولا التوجيهات المحددة مسبقاً التي يفرضها التدريس. حاول أن يقرأ بشكل عشوائي، لمجرد المتعة والاسترسال، قرأ الكثير مما كان قد ظل يؤجل قراءته لسنوات كثيرة. لكنه لم يكن يستطع توجيه ذهنه إلى حيث يريد، فكان يشرد بعيدًا عن الصفحات التي بين يديه، وكثيراً ما انتبه لنفسه يحدق ببلادة في اللاشيء أمامه، كان الأمر كأن ذهنه يفرغ، شيئاً فشيئاً، من كل ما يعرفه، كأن قوة إرادته تهِن. كان أحياناً يشعر أنه أحد أنواع النباتات، يتوق إلى شيء ما- إلى الشعور بالألم حتى- لينخر فيه، ليُبقيه على قيد الحياة.

وصل إلى تلك اللحظة في حياته حيث يخطر له، بإلحاح متزايد، سؤال كان، من فرط بساطته، عاجزاً عن مواجهته. ألفى نفسه يتساءل ما إذا كانت حياته تستحق عيشها، ما إذا كانت حياته كائنة أصلاً. فكر أنه سؤال يخطر للرجال جميعاً في لحظة أو أخرى خلال حياتهم، فتساءل ما إذا كان يخطر لهم بتلك القوة الباردة التي خطر له بها. كان السؤال مصحوباً بحزن، لكنه حزن عام ليس له علاقة (كما ظنّ) بشخصه، أو بقدرِه الخاص. لم يكن واثقًا حتى من أن السؤال بسبب ظروفه الحياتية الراهنة والجلية، بل ظنّه يأتي من مُضي العمر، من كثافة ما مر به من حوادث وظروف، وخبرته منها. كان يسره أن يفكر بتهكم في احتمال أن خبرته التي اكتسبها تلك قد وصلت به إلى المعرفة بأن: كل شيء، على المدى الطويل، حتى ما جعله يعرف هذا، بلا طائل وسدى، وأن كل شيء يتقلص في نهاية المطاف ليدخل في نطاق اللاشيء الذي لا يغير منه شيئًا.

ذات مرة عاد إلى مكتبه في وقت متأخر، بعد محاضرته المسائية، وجلس إلى مكتبه يحاول أن يقرأ. كان الوقت شتاءً، وقد تساقط الثلج أثناء النهار، فاكتسى كل ما بالخارج بطبقة من الأبيض الناعم. كانت الغرفة

حارة للغاية، ففتح النافذة المجاورة لمكتبه ليُدخل بعض الهواء البارد إلى الغرفة المكتومة. تنفس بعمق ومسح بنظره أرض الحرم البيضاء. دفعه شيء ما إلى أن يُطفئ النور ويبقى في الظلمة الدافئة للغرفة، ملأ الهواء البارد رئتيه ومال على النافذة. سمع صمت ليل الشتاء، وبدا له أنه يسمع، بطريقةٍ ما، الأصوات التي امتصتها ندف الثلج الرقيقة ذات التركيب المعقد. لا شيء يتحرك على البياض. كان مشهد ميتاً بدا أنه يجذبه ويمتص وعيه كما يمتص الأصوات من الهواء، ويدفنها في النعومة البيضاء الباردة. شعر بروحه تنطلق إلى الخارج نحو البياض الذي امتد ليكسو كل ما تقع عليه عيناه، والذي كان جزءًا من المشهد المظلم الذي يتوهج داخله، مثل السماء الصافية الخالية من السحب بلا علو أو عمق. شعر للحظة بروحه تخرج من جسده الساكن الواقف أمام النافذة، وفيما يشعر بانزلاقها من الجسد، بدا له كل شيء. البياض الممتد، والأشجار، والأعمدة الشامخة، والليل، والنجوم البعيدة.. ضئيل وناءٍ على نحو لا يصدق، كأنها اضمحلت وذابت في اللاشيء. ثم قعقع جهاز التدفئة من خلفه. فتحرك وعاد إلى مشهده الواقعي. أضاء مصباح مكتبه مرة أخرى بارتياح سقيم على نحو غريب. تناول كتابًا وبعض الأوراق، وغادر المكتب. سار في الأروقة المظلمة وخرج من البوابة الخلفية الواسعة لمبنى الجيسي هول. عاد إلى المنزل يسير على مهل، واعياً بكل خطوة من خطواته وهي تسحق الثلج الجاف بضجة مكتومة.

X.

ألفى نفسه خلال هذا العام، وخاصة في شهور الشتاء، يعود مرارًا وتكرارًا إلى تلك الحالة اللاواقعية. بدا أن بإمكانه، بمحض إرادته، أن يخرج بوعيه من الجسد الذي يحويه، ويراقب نفسه كأنه غريب مألوف يقوم بالأشياء الغريبة المألوفة التي ينبغي عليه القيام بها. كان انفصالاً لم يشعر به من قبل قط، وكان يعرف أن عليه أن يقلق، لكنه كان خدِرًا، ولم يستطع إقناع نفسه أن للأمر أي أهمية. كان في الثانية والأربعين من عمره، ولم يكن في حياته شيء يجلب له أي متعة كما لم يكن في ماضيه شيء يهمه أن يتذكره.

في الثالثة والأربعين، كان جسد ويليام ستونر محنياً كما كان وهو شاب، حين سار لأول مرة برهبة مبهورة إلى الحرم الذي لم يفقد تأثيره عليه أبداً. تزايد الانحناء بمرور السنين، وقد تعلم أن يُبطئ من حركاته لتبدو خراقة يدي وقدمي الفلاح تأنياً أكثر منه اضطراب وراثي في العظام. صار وجهه الطويل ناعماً مع الوقت، وجلده الذي ظل يبدو كجلد لوّحته الشمس، لم يعد مشدودًا على عظمتي وجنتيه، بل تهدل قليلاً في خطوط رفيعة حول عينيه وفمه. ظلت عيناه الرماديتان حادتين صافيتين، لكنهما غارتا أكثر في وجهه، واختفى منهما قدر كبير من النباهة اليقظة، وصار شعره الذي كان بنيًا فاتحًا داكناً، وغزا بعض الشيب فوديه. لم يكن يفكر كثيرًا في تقدمه في السن، ولم يكن ليأسى لذلك، لكنه كان حين يرى وجهه في المرآة أو في أحد الأبواب الزجاجية لمبنى الجيسي هول وهو يقترب منها، كان يلاحظ التغييرات التي طرأت عليه باندهاش معقول.

في وقت متأخر من ظهيرة أحد أيام الربيع كان يجلس في مكتبه، أمامه على المكتب أكداس من موضوعات طلبة السنة الأولى، أمسك بإحدى الأوراق في يده لكنه لم يكن ينظر فيها. كعادته مؤخراً، كان يشخص ببصره خارج النافذة في ذلك الجزء من الحرم الذي يستطيع رؤيته من جلسته. وكان اليوم مشرقاً، وقد تسلل الظل الذي يلقيه مبنى الجيسي هول، والذي يراقبه بأناة، إلى قاعدة الأعمدة الخمسة المنتصبة في شموخ منعزل وقوي في منتصف الساحة المستطيلة. اتخذ الجزء الظليل من الساحة لونًا بنيًا رماديًا، ومن ورائه عشب الشتاء باللون الحنطي الفاتح، يكسوه غشاء لامع من الأخضر الباهت. كانت الأعمدة الرخامية بيضاء براقة مقارنة بالخيوط العنكبوتية السوداء التي ترسمها ظلال أغصان الكرمة الملتفة حولها. فكر ستونر أن الظل سيزحف عليها سريعاً، وستظلم قواعدها، ثم ستزحف الظلمة لأعلى ببطء أولاً، ثم بسرعة، حتى... ثم شعر بأحد ما يقف خلفه.

استدار بكرسيه ورفع نظره. كانت كاثرين دريسكول، المدرسة الشابة التي درّسها العام الماضي في إحدى حلقاته الدراسية. لم يتحدثا معاً منذاك الحين مع أنهما التقيا عدة مرات في أروقة المبنى وأومآ لأحدهما الآخر. شعر ستونر بقليل من الحزن والقلق لتلك المفاجأة. لم يكن يرغب في تذكُّر تلك الحلقة الدراسية وما أعقبها. دفع كرسيه للوراء ونهض عنه بارتباك. قال بجدية: «آنسة دريسكول». وأشار إليها بأن تجلس على الكرسي المجاور لمكتبه. حدقت فيه لبرهة، عيناها واسعتان وداكنتان، ووجهها شاحب إلى حد غير طبيعي. بانحناءة خفيفة من رأسها، ابتعدت عنه وجلست على الكرسي الذي أشار إليه عرضاً.

جلس ستونر على كرسيه وظل يحدق فيها لدقيقة دون أن يراها حقيقةً. ثم حاول، بعد أن أدرك أن طريقته هذه قد تعتبر وقاحة، أن يبتسم لها، وتمتم بأسئلة عفوية فارغة عن دراساتها.

تحدثت بعجالة قائلة: «قلت.. قلت ذات مرة إنك ترحب بالنظر في رسالتي حين أبدأ فيها».

قال ستونر وهو يومئ: «نعم، قلت ذلك، بالطبع». ثم لاحظ في يدها ملف أوراق تضعه في حجرها.

قالت بتردد: «لكن إن كنت مشغولاً..»

قال ستونر محاولاً إضفاء بعض الحماسة على صوته: «إطلاقاً. آسف، لا أقصد أن أبدو مشتتاً».

رفعت ملف الأوراق وأعطته إياه بتردد. أخذه وفتحه وابتسم لها قائلاً: «ظننت إنكِ قد أنجزتِ قدرًا أكبر من هذا قليلاً».

قالت: «لقد فعلت، لكنني بدأت مرة أخرى من جديد، لأنني اتخذت مسارًا جديدًا، و... وسأكون ممتنة إن أخبرتني برأيك فيها».

ابتسم لها مرة أخرى وأومأ دون أن يعرف ماذا يقول.. جلسا في صمت مربك لبرهة، ثم قال أخيراً: «متى ستحتاجين إلى هذا مرة أخرى؟»

هزت رأسها قائلة: «في أي وقت، متى انتهيت منه».

«لا أريد أن أعطلك. ماذا عن الجمعة القادمة؟ سيكون هذا وقتا كافياً، حوالي الثالثة ظهراً؟»

نهضت متعجلة كما جلست وقالت: «شكرًا لك. لا أريد أن أزعجك. شكرًا». واستدارت وسارت، رشيقة ومنتصبة القامة، وخرجت من غرفة المكتب.

ظل ممسكاً بالملف في يده لعدة دقائق، يحدق فيه. ثم وضعه في أحد

أدراج مكتبه وعاود العمل على موضوعات طلبة السنة الأولى في مادته.

كان ذلك يوم الثلاثاء، ولليومين التاليين، ظلت المخطوطة في مكتبه دون أن يلمسها. لم يستطع أن يجبر نفسه على النظر فيها لأسباب لم يكن بمقدوره فهمها، أن يبدأ قراءة ما كان منذ شهور مضت واجبه الذي يستمتع بالقيام به. نظر إلى الأوراق بتحفز كمن ينظر إلى عدو يحاول استدراجه لحرب أدار لها ظهره بالفعل.

ثم جاء يوم الجمعة، وما زال لم يقرأها. رآها ترقد على مكتبه وهو يجمع أوراقه وكتبه في الصباح، قبل ذهابه إلى محاضرة الثامنة صباحاً. حين عاد إلى المكتب بعد التاسعة بقليل، كان قد حسم أمره تقريباً أن يترك رسالة في صندوق بريد الآنسة دريسكول في المكتب الرئيسي، يستأذنها في أسبوع آخر، لكنه قرر أن ينظر في المخطوطة نظرة سريعة قبل محاضرة الحادية عشرة ليقول لها كلمات سطحية قليلة حين يراها في الظهيرة. لكنه لم يستطع، وقبل أن يغادر مكتبه ذاهباً لمحاضرته الأخيرة في اليوم، سحب الملف من على المكتب ودسه بين أوراقه الأخرى وأسرع عبر الحرم إلى قاعة المحاضرات. بعد انتهاء المحاضرة في الظهيرة، تأخر قليلاً بسبب مجموعة من الطلبة أرادوا أن يتحدثوا معه، فلم يستطع الانفصال عنهم إلا بعد الساعة الواحدة. توجه بحسم متجهم نوعاً ما إلى المكتبة، كان ينوي أن يعثر لنفسه على مقصورة فارغة بين الكتب وأن يمنح المخطوطة ساعتين من القراءة السريعة قبل موعده مع الآنسة دريسكول في الثالثة ظهراً.

لكنه حتى في الهدأة المعتمة المألوفة للمكتبة، في مقصورة فارغة عثر عليها مخبأة في الأعماق السفلية بين أكداس الكتب، وجد صعوبة في النظر في الأوراق التي أحضرها معه. فتح كتبًا أخرى وقرأ منها فقرات عشوائية، جلس ساكناً، يستنشق عبق الكتب القديمة العتيق. تنهد أخيراً وقرر ألا يؤجل الأمر لأكثر من ذلك وفتح الملف وألقى نظرات

خاطفة على الصفحات الأولى.

في البدء لمس ما يقرأه بأطراف ذهنه العصبية فقط، لكن الكلمات سيطرت عليه تدريجياً. عقد حاجبيه وقرأ بحرص أكبر. ثم أسره النص، فعاد يقرأ من البداية، يزداد اهتمامًا صفحة بعد أخرى. قال لنفسه، نعم، بالطبع. كانت المخطوطة تحوي أغلب ما ذكرته في بحثها الذي قدمته في الحلقة الدراسية، وإنما بترتيب مختلف، مشيرةً إلى الملاحظات التي ألمح لها هو نفسه عرضاً فقط. قال لنفسه بدهشة قليلاً: يا إلهي، وارتعشت أصابعه من الإثارة وهو يقلب الصفحات.

حين وصل إلى الورقة الأخيرة من المخطوطة المطبوعة على الآلة الكاتبة، مال إلى الوراء في جلسته بإرهاق راضٍ، وحدّق في الجدار الإسمنتي الرمادي المقابل له. وبالرغم مما بدا له مرور دقائق قليلة منذ أن بدأ القراءة، لكنه حين نظر في ساعة يده وجدها الرابعة والنصف. نهض ولملم أوراق المخطوطة بسرعة وخرج من المكتبة مهرولاً، مع علمه بأنه متأخر جدًا، عبر الحرم ركضاً تقريباً وهو يتوجه إلى مبنى الجيسي هول.

سمع وهو يمر بالباب المفتوح للمكتب الرئيسي في طريقه لمكتبه صيحة باسمه. توقف ودفع رأسه عبر عتبة الباب. أخبرته السكرتيرة- فتاة جديدة عيّنها لوماكس مؤخراً- باتهام، ووقاحة تقريباً: «جاءت الآنسة دريسكول لتراك في الثالثة ظهراً، وظلت في انتظارك لساعة تقريباً».

أومأ برأسه وشكرها، وواصل سيره بسرعة أقل إلى مكتبه. قال لنفسه إن الأمر لا يهم، بإمكانه إعادة المخطوطة والاعتذار لها يوم الاثنين. لكن الحماسة التي شعر بها لدى قراءته للمخطوطة لم تبارحه، فظل يذرع الخطى في غرفة مكتبه بقلق، يتوقف بين الحين والآخر ويومئ

لنفسه. توقف أخيراً أمام أرفف كتبه، بحث بعينه لدقيقة، ثم سحب مطوية رفيعة بحروف سوداء وغلاف ملطخ: فهرس الكلية وطاقم العمل-جامعة ميزوري. وجد اسم كاثرين دريسكول، لم يكن لديها رقم هاتف. سجّل عنوانها، والتقط مخطوطتها من على المكتب، وخرج من الحجرة.

على بعد ثلاثة شوارع من الحرم الجامعي في اتجاه المدينة، كان ثمة مجمع مباني ضخمة قديمة قد تحول منذ سنوات إلى تجمع سكني من شقق يشغلها الطلبة وشباب طاقم العمل في الجامعة وبعض أبناء البلدة. كان المنزل الذي تقطنه كاثرين دريسكول في منتصف ذلك التجمع السكني. مبنى ضخم من الحجر الرمادي مكون من ثلاثة طوابق، له عدد مذهل من المداخل والمخارج، والأبراج، والنوافذ الداخلية، وشرفات تطلّ على الخارج والأعلى وجميع الجهات. وجد ستونر أخيراً اسم كاثرين دريسكول على أحد صناديق البريد في أحد جوانب البناية، حيث تؤدي بضعة درجات اسمنتية إلى باب تحتي. تردد للحظة ثم طرق الباب.

حين فتحت كاثرين دريسكول الباب، لم يتعرف عليها تقريباً. كانت ترفع شعرها أعلى رأسها وتعقصه بلا اهتمام للوراء، فبدت أذناها الصغيرتان الورديتان عاريتين، ترتدي نظارة بإطار داكن بدت معها عيناها الداكنتان من خلفهما واسعتين ومشدوهتين، وقميص رجالي مفتوح من عند الرقبة، وسروال فضفاض داكن جعلها تبدو أنحف وأكثر أناقة مما يراها.

قال ستونر بارتباك: «أنا.. أنا آسف لأنني لم آتِ في الموعد». ودفع بالملف نحوها مضيفاً: «ظننت أنك قد تحتاجين إليه أثناء العطلة».

لم تنبس ببنت شفة لعدة دقائق. نظرت إليه بجمود، وعضت على شفتها السفلى. ثم عادت إلى الوراء تفسح له الطريق وهي تقول: «ألن

تتفضل بالدخول؟»

تبعها في ردهة قصيرة وضيقة للغاية، إلى غرفة صغيرة للغاية، بسقف منخفض معتم، تحتوي على فراش ثلاثي الأجزاء يستخدم كأريكة أيضاً، وأمامه طاولة واطئة وطويلة، وكرسي وحيد مُنَجَّد، ومكتب صغير وكرسيه، وعدة أرفف تعج بالكتب على جدار واحد. كان ثمة كتب عديدة مفتوحة ملقاة على الأرض والأريكة، وأوراق مبعثرة على المكتب.

قالت كاثرين دريسكول وهي تنحني لتلتقط أحد الكتب من على الأرض: «الغرفة صغيرة للغاية لكنني لا أحتاج إلى مساحة أكبر».

جلس على الكرسي المنجّد المقابل للأريكة. سألته إن كان يرغب في تناول القهوة، فقال لها نعم. ذهبت إلى المطبخ الصغيرة الملاصق لغرفة الجلوس، وارتاح هو في جلسته وهو يجول بنظره حوله ويستمع إلى الأصوات الخافتة الصادرة عن تحركها في المطبخ.

أحضرت القهوة في فنجانين رقيقين من الصيني الأبيض على صينية مطلية بالمينا السوداء وضعتها على الطاولة المقابلة للأريكة. جلسا يرشفان القهوة ويتحدثان بارتباك لعدة دقائق. ثم بدأ ستونر يتحدث عن الجزء الذي قرأه من المخطوطة، والسعادة التي انتابته وهو يقرأه في المكتبة، مال للأمام وهو يتحدث بحرارة.

ظلا يتحدثان معاً بأريحية لدقائق كثيرة وهما يختبئان خلف مناقشتهما. جلست كاثرين دريسكول على حافة الأريكة، عيناها تبرقان، وأصابعها النحيلة تنقبض وتنبسط على طرف طاولة القهوة. اقترب ويليام ستونر بكرسيه من الطاولة ومال نحوها باهتمام. كانا قريبين للغاية من أحدهما الآخر إلى درجة أنه كان يستطيع أن يمد ذراعه ويلمسها.

تحدثا عن أبرز المشكلات في الفصول الأولى من رسالتها، وعما ستؤدي إليه فرضياتها، وعن أهمية الموضوع.

قال بصوت اتخذ نبرة تشديد لم يستطع فهم سببها: «يجب ألا تستسلمي. لا يغرنَّكِ الصعوبة التي قد تواجهينها أحياناً، لكن لا تستسلمي، الرسالة جيدة جداً فلا تتركيها. إنها جيدة بالفعل، لا شك في ذلك».

سكت، وللحظة بدا أن وجهها قد فارقته الحياة.

مالت إلى الوراء، نظرت بعيدًا عنه، وقالت كأنها تتحدث من مسافة: «الحلقة الدراسية.. بعض ما قلته فيها.. ساعدتني كثيراً».

ابتسم وهز رأسه قائلاً: «لم تكوني في حاجة إلى الحلقة الدراسية. لكنني سعيد أنك شاركتِ فيها. كانت حلقة جيدة، على ما أظن».

انفجرت قائلة: «أوه، ياللعار. إنه لعار. الحلقة الدراسية- لقد كنت- لقد اضطررت أن أبدأ الرسالة كلها من جديد، بعد الحلقة الدراسية. إنه لعار أن جعلوك..» وسكتت بارتباك مرير ومغتاظ، ونهضت عن الأريكة ووقفت عند المكتب.

لم يتحدث ستونر لدقيقة، ظل مأخوذاً من انفجارها. ثم قال: «لا تتضايقي بسبب هذا. هذه الأشياء تحدث. كل شيء سيكون على ما يرام بمرور الوقت. الأمر ليس مهماً حقاً».

شعر فجأة، بعد أن قال هذا، أن الأمر ليس مهماً حقاً. شعر لوهلة بحقيقة ما قاله، ولأول مرة منذ أشهر شعر بالعبء البائس الذي كان يحمله، دون أن يعي، قد انزاح عن كاهله. وقال ثانية وهو يشعر بدوار ما، ويضحك تقريباً: «الأمر ليس مهماً حقاً».

ساد توتر ما بينهما ولم يستطيعا التحدث بحرية كما كان يفعلان منذ دقائق قليلة. فنهض بسرعة وشكرها على القهوة واستأذنها في الانصراف. اصطحبته إلى الباب وبدت فظة تقريباً وهي تلقي عليه تحية المساء.

كان الظلام قد خيم بالخارج، وحمل الهواء برودة ربيعية. تنفس بعمق وشعر بالبرودة تدغدغ جسده. وَمَضَتْ أضواء المدينة من خلف الإطار الخارجي المتعرج للتجمع السكني وأعلى ضباب خفيف عَلِقَ في الهواء. تدفق ضوء أحد أعمدة الإنارة في الشارع بوهن عند المنعطف محطّماً الظلمة المحيطة به، ومن الظلمة التي تعلوه كسر الصمت فجأة صوت ضحك تردد قليلاً ثم اختفى. حمل الضباب رائحة احتراق القمامة في الباحات الخلفية، وفيما يسير على مهل في المساء، يستنشق عبيره ويتذوق على طرف لسانه هواءه الحاد، بدا له أن تلك اللحظة التي يعيشها تكفيه، وأنه لا يحتاج إلى أكثر من هذا.

وهكذا حظي بعلاقته السرية.

تعرف على مشاعره نحو كاثرين دريسكول ببطء. وجد نفسه يبحث عن ذرائع ليزورها في شقتها ظهيرة كل يوم. يخطر له عنوان كتاب أو مقالة، فيسجله في ورقة ويتحاشى لقاءها في أورقة مبنى الجيسي هول ليزورها في شقتها في الظهيرة ويخبرها به ويتناول القهوة ويتحدثان معاً. تارةً يقضي نصف اليوم في المكتبة يبحث عن مرجع يظن أنه سيوضح نقطة ما يراها ملتبسة في الفصل الثاني من رسالتها، وتارة ينكب على مخطوطة لاتينية مغمورة، تمتلك المكتبة نسخة فوتوستاتية منها، لينسخ قدرًا لا بأس به منها، ويسعه بعد ذلك قضاء عدة أمسيات معها لمساعدتها في ترجمتها.

كانت كاثرين دريسكول تعامله بدماثة وود وتحفظ في الأيام التي

قضياها معاً، وكانت ممتنة للغاية للوقت الذي يقضيه معها، واهتمامه بعملها، وتأمل ألا يشغله هذا عن أشياء أكثر أهمية. لم يخطر بباله أنها قد تفكر به على نحو أكثر من مجرد أستاذ تحترمه كثيراً ويهتم بعملها، والذي قد تتخطى مساعدته الودودة حدود واجبه قليلاً. كان يعد نفسه شخصية مضحكة قليلاً لن يهتم به أحد اهتمامًا يفوق العادي. بعد أن اعترف لنفسه بحقيقة مشاعره نحو كاثرين دريسكول حرص كل الحرص على ألا يظهر لها تلك المشاعر بأية طريقة قد تجعلها تستشف ذلك.

ظل لأكثر من شهر يزورها في شقتها مرتين أو ثلاث أسبوعياً، ولم تكن زياراته تتجاوز الساعتين في أي حال من الأحوال، كان يخشى أن تنزعج من زياراته المستمرة، لذلك لم يكن يزورها إلا حين يتأكد تماماً أنه سيقدم لها مساعدة حقيقية في عملها. أدرك باستمتاع، كئيب إلى حد ما، أنه كان يحضر لزيارتها بنفس الاجتهاد الذي يحضر به لمحاضراته، فقال لنفسه إن هذا يكفيه، وأنه يسعده أن يراها ويتحدث معها طالما تحمّلت حضوره.

لكن بالرغم من حرصه وجهده، صارت فترات بعد الظهر التي يقضيها معها تزداد مملاً شيئاً فشيئاً. كانا يجدان نفسيهما صامتين لفترات طويلة من الوقت دون أن يقول أحدهما شيئًا، يرشفان قهوتهما وينظر أحدهما بعيداً عن الآخر، يقولان «حسناً...» بصوت حذر وخجول، ويبحثان عن أسباب ليتحركا بارتباك في الغرفة، بعيداً عن أحدهما الآخر. أخبر ستونر نفسه بحزن شديد، لم يكن يتوقعه، أن زياراته لها قد صارت عبئًا عليها، وأن ذوقها يمنعها من الإفصاح بذلك له. وكما كان يتوقع من نفسه قرر أن يقلع عن زيارتها تدريجياً لئلا تدرك أنه لاحظ قلقها، كأنه قد منحها كل مساعدة يمكنه منحها لها.

زارها في الأسبوع التالي لذلك مرة واحدة فقط، وفي الأسبوع الذي

يليه لم يزرها مطلقاً. كان قد توقع المعاناة التي سيعانيها مع نفسه إثر هذا القرار. كان يقضي فترات بعد الظهر في مكتبه ويضطر أحياناً إلى كبح جسده لئلا ينهض عن مكتبه ويركض بالخارج نحو شقتها. رآها مرة أو مرتين من بعيد في أروقة المبنى فيما كانت تسرع من قاعة محاضرات أو إليها، فكان يستدير ويسير في الاتجاه المعاكس، لئلا يلتقيا.

بعد فترة تملكته حالة من الخدر، فقال لنفسه إنه سيكون على ما يرام، وإنه سيستطيع خلال أيام قليلة أن يراها في الأروقة ويومئ لها برأسه ويبتسم، وقد يستطيع حتى أن يقف معها لدقيقة ويسألها عن سير عملها.

ثم حدث ذات مرة أثناء فترة بعد الظهر أن كان في المكتب الرئيسي يتفقد صندوق بريده وسمع أحد المدرسين الشباب يذكر لمدرس آخر أن كاثرين دريسكول مريضة، وأنها لم تحضر محاضراتها في اليومين الماضيين. فغادرته حالة الخدر التي تملكته وشعر بآلام حادة في صدره، تلاشت قوة إرادته وقراره الذي كان قد اتخذه، سار يخب إلى مكتبه، نظر بما يشبه اليأس في أرفف كتبه، واختار كتابًا وغادر المكتب. وصل إلى شقتها مقطوع الأنفاس. فانتظر قليلاً أمام باب شقتها، ورسم على وجهه ابتسامة تمنى أن تكون عفوية، ثبّتها جيداً، ثم طرق الباب.

كانت أكثر شحوباً عن عادتها، وتحيط بعينيها هالتان داكنتان. ترتدي قميص نوم أزرق داكن، وشعرها مسحوب بشدة عن وجهها.

أدرك ستونر أنه يتحدث بعصبية وحماقة، مع ذلك لم يكن بمقدوره وقف تدفق الكلمات من فمه. قال بمرح: «مرحباً. سمعت إنك مريضة ففكرت أن أمر لأطمئن عليكِ، لدي كتاب قد يفيدك، هل أنتِ بخير؟ لا أريد أن...» سمع صوته يتعثر من خلال ابتسامته المتجمدة ولم يستطع منع عينيه من البحث في وجهها.

حين سكت أخيراً، تراجعت عن الباب وقالت بهدوء: «تفضل».

ما أن دخل غرفة النوم والجلوس الصغيرة، تلاشى توتره الداخلي. جلس على الكرسي المقابل للفراش وشعر ببوادر الراحة المألوفة حين جلست كاثرين دريسكول أمامه. لم ينبس أحد منهما ببنت شفة لعدة دقائق.

سألته أخيراً: «أترغب في قهوة؟»

«لا تتعبي نفسك».

«ليس ثمة تعب». قالت بصوت فظّ يحمل تلك النبرة الغاضبة الخفية التي سمعها منها من قبل. «سأقوم بتسخينها فقط».

ذهبت إلى المطبخ. ظل ستونر وحده في الغرفة يحدق بتجهم في الطاولة ويلوم نفسه على قدومه. تعجب من حماقة الرجال التي تسوقهم لفعل مثل تلك الأشياء.

عادت كاثرين دريسكول بإبريق القهوة وفنجانين، سكبت قهوتهما، وجلسا يراقبان البخار المتصاعد من السائل الأسود. سحبت سيجارة من علبة سجائر متجعدة، أشعلتها، ونفثت دخانها بعصبية لدقيقة. لاحظ ستونر أنه ما زال يمسك بالكتاب الذي جاء به، فوضعه على الطاولة بينهما.

قال: «ربما يمنع مرضك من الاطلاع على الكتاب، لكنني وجدته ورأيت إنه قد يفيدَك فظننت أن..»

قالت وهي تطفئ سيجارتها بشراسة في منفضة السجائر: «لم أرك منذ أسبوعين تقريباً».

اندهش وقال بارتباك: «لقد كنت مشغولاً إلى حد ما.. في أشياء كثيرة».

قالت: «لا يهم. حقاً، لا يهم. لم يكن عليّ أن...» ومسحت جبينها براحة يدها.

نظر إليها بقلق، ظن أنها لابد محمومة، قال: «أنا آسف لمرضك، إن كان ثمة أي شيء يمكنني أن...»

قالت: «لست مريضة». ثم أضافت بصوت هادئ وتأملي ولامبالٍ تقريباً: «أنا تعيسة، تعيسة بشكل لا أمل فيه».

وما زال لم يفهم. وقعت كلماتها العارية الحادة عليه كنصل السكين، أشاح بوجهه بعيدًا عنها قليلاً وقال بارتباك: «أنا آسف، هل يمكنك أن تخبريني عن هذا الأمر؟ إن كان ثمة أي شيء يمكنني فعله...»

رفعت رأسها. كانت ملامحها صلبة، لكن عينيها تلمعان في فيض من الدموع، قالت: «لم أقصد إحراجك. أنا آسفة. لابد أنك تراني حمقاء للغاية».

قال: «لا». ونظر إليها لدقيقة أخرى، إلى وجهها الشاحب الذي خلا من التعبير عن عمدٍ منها. ثم حدّق في يديه ناتئتي العظام المنقبضتين معًا على إحدى ركبتيه. كانت الأصابع خشنة ومكتنزة، وبدت المفاصل كعقد بيضاء على الجلد البني.

قال أخيراً بصعوبة وبطء: «أنا رجل جاهل في أمور كثيرة، لذلك فأنا الأحمق هنا، ولست أنتِ. لم آتِ لأراكِ لأنني ظننت.. لقد شعرت أنني أسبب لك إزعاجًا. ربما لم يكن ذلك صحيحاً».

«لا. لم يكن صحيحاً».

تابع ولم يزل لا ينظر إليها: «ولم أشأ أن أحمِّلك عبء التعامل مع... مع مشاعري تجاهك، التي عرفت أنها، آجلاً أو عاجلاً، ستتضح لكِ إن ظللت أراكِ».

لم تحرك ساكناً، سالت دمعتان من جفنيها إلى خديها ولم تمسحهما.

«ربما كنت أنانياً. ظننت أن ذلك لن يعود علينا بشيء سوى بالاضطراب لك والتعاسة لي. أنتِ تعلمين.. ظروفي. وبدا لي من المستحيل أن.. أن تشعري نحوي بأي شيء سوى..»

«اسكت». قالت بلطف وشراسة: «أوه، يا عزيزي، اسكت وتعال إلى هنا».

وجد نفسه يرتجف. ودار بارتباك صبي حول طاولة القهوة ليجلس إلى جانبها. امتدت أيديهما بحرارة وحماقة ليتعانقا بارتباك وتوتر، وظلا هكذا لا يتحركان لوقت طويل، كأن أدنى حركة قد تتيح الهروب لذاك الشيء الغريب والفظيع الذي يحملاه بينهما في قبضة واحدة.

كانت عيناها اللتان كان يظنهما بنيتين أو سوداوين داكنتين، بنفسجيتين عميقتين، وكانتا في لحظات تلتقطان ضوء مصباح الغرفة وتبرقان بالتماعة، كان يستطيع تحريك رأسه في هذا الاتجاه أو ذاك فكان لون عينيها يتغير تحت نظرته فبدتا، حتى في سكونهما، كأنهما لا تثبتان أبداً. وجسدها، الذي بدا له من بعيد باردًا وشاحباً، كان يخبئ أسفله مسحة باطنية حمراء دافئة، مثل ضوء يتوهج تحت غشاء حليبي شفاف. ومثل جسدها الشفاف، كانت روحها التي ظنها هادئة ومتزنة ومتحفظة ليست سوى قناع لروح فكِهة ولعوب ودافئة، على نحو لا يمكن فهمه إلا من خلال القناع الذي يخبئها.

تعلّم ويليام ستونر في عامه الثالث والأربعين ما تعلّمه الآخرون،

الأصغر منه بكثير، قبله: أن الحب الأول ليس الحب الأخير، وأن الحب ليس النهاية، بل عملية يحاول من خلالها المرء معرفة الآخر.

كانا خجولين جدًا في كلاهما. تعرفا على أحدهما الآخر ببطء وحرارة، اقتربا وابتعدا، تلامسا وتراجعا. لم يكن أحدهما يرغب في إجبار الآخر على أي شيء قد لا يرحب به. يومًا بعد آخر سقطت طبقات التحفظ التي كانت تحميهما، فصارا كآخرين كثيرين ممن يشعرون بخجل غير عادي، ثم ينفتحان على أحدهما الآخر، بلا دروع، وبأريحية وتلقائية تامة.

كان يذهب إلى شقتها يومياً تقريباً في فترة بعد الظهر بعد انتهاء محاضراته، يتطارحان الغرام ويتحدثان، ويتطارحان الغرام ثانية، كأطفال لا يرهقهما اللهو. طالت نهارات الربيع وكانا يتطلعان إلى الصيف.

xi.

في شبابه ظن ستونر أن الحب حالة وجودية صرفة قد يدركها المرء إن كان محظوظًا، وفي سنين نضجه قرر أن الحب هو نعيم دين خادع، يجب أن يحدق فيه المرء بكُفر مرِح، وعصيان مألوف وطيب، وحنين مرتبك. والآن بدأ يدرك، وهو في منتصف العمر، أن الحب لا هو بحالة إجلال ولا هو بوهم، بل تحرك إنساني نحو الصيرورة، ظرف يتم اختلاقه وتعديله يومًا بعد يوم، ودقيقة تلو الأخرى، بالإرادة والعقل والقلب.

الساعات التي كان يقضيها في مكتبه شاخصاً ببصره خارج النافذة، في مشهد يُشرق ويخلو أمام نظرته الغافلة، صار الآن يقضيها مع كاثرين. كان يذهب كل صباح إلى مكتبه مبكراً، فيقضي فيه عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة قلقاً، ثم يعجز عن الاسترخاء، فيخرج من مبنى الجيسي هول ويمر بالحرم إلى المكتبة، حيث يبحث في أرفف الكتب لعشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة أخرى. وأخيراً، وكما لو كانت لعبة يلعبها مع نفسه، كان يحرر نفسه من حالة الإثارة التي يفرضها عليها، فيتسلل من باب المكتبة الجانبي ويسير في طريقه إلى شقة كاثرين.

كانت أحياناً تعمل حتى وقت متأخر من الليل، فكان في تلك الصباحات يوقظها، فيجدها دافئة ومثيرة بكسل النوم، عارية تحت الروب الأزرق الداكن الذي ارتدته لتفتح له الباب. في تلك الصباحات، كانا يذهبان إلى الفراش الضيق الذي ما زال مبعثرًا ودافئاً بعد نومها، ويتطارحان الغرام دون أن يتحدثا حتى.

كان جسدها طويلاً ورقيقاً ووحشيّاً بنعومة، وكانت يده المضطربة، حين تلمسه، تبدو وكأنها قد عادت للحياة. كان أحياناً ينظر إليه بحسبه كنز ثمين وضِع في حوزته، يدع أصابعه، وقد اكتسبت جراءةً، تداعب جلد فخذيها وبطنها الزهري النّدي، ثم تعلو إلى الرهافة البسيطة والمعقدة في ثدييها الصغيرين المشدودين. خطر له أنه لم يتعرف من قبل قط على جسد الآخر، ففكر أنه لهذا السبب كان دائماً، على نحو ما، يفصل بين روح الآخر والجسد الذي يحويها. وخطر له أخيراً، بيقين جازم، أنه لم يتعرف من قبل قط على إنسان آخر بأدنى درجة من الحميمية أو الثقة أو الدفء الإنساني اللازم للإخلاص له.

مثل كل العشاق، كانا كثيرًا ما يتحدثان عن نفسيهما، كأنهما بذلك قد يتمكنان من فهم العالم الذي جعلهما موجودين.

قالت كاثرين ذات مرة: «يا إلهي كم كنت أريدك. كنت أراك تقف في غرفة المحاضرات، ضخم ورائع ومرتبك، وكنت أريدك بشدة. لم تعرف ذلك أبداً، أليس كذلك؟»

قال ويليام: «لا. كنت أظنك شابة مؤدبة».

ضحكت بسرور وقالت: «مؤدبة، حقاً». ثم أفاقت قليلاً وقالت كأنها تتذكر شيء من الماضي: «أنا أيضاً ظننتني كذلك. أوه.. كم نبدو لأنفسنا مؤدبين حين لا يوجد سبب لنكون عكس ذلك! لابد من الحب ليعرف المرء حقيقة نفسه. أحياناً وأنا معك أشعر أنني أكثر نساء العالم شبقاً، أكثر نساء العالم شبقاً، وأكثرهن شوقاً وإخلاصاً. أيبدو ذلك أدباً لك؟»

قال ويليام: «لا». وابتسم ماداً يده إليها قائلاً: «تعالي هنا».

عرف منها أن كان لها حبيب واحد من قبل، كان ذلك قبل تخرجها، وقد انتهى الأمر على نحو سيئ، بدموع واتهامات وخيانات.

قالت: «أغلب العلاقات تنتهي على نحو سيء». وظلا لوهلة كئيبين.

صُدم ويليام حين فوجئ بإعلانها عن حبها السابق، وأدرك أنه كان يظن أنهما لم يكونا موجودين قبل أن يلتقيا.

قالت: «كان شابًا خجولاً، مثلك، على ما أظن، بطريقة ما، لكنه كان حانقًا وخائفاً، ولم أستطع معرفة سبب ذلك قط. اعتاد أن ينتظرني عند نهاية الممشى المؤدي لسكن الطالبات، تحت شجرة كبيرة، لأنه كان يخجل من الظهور بين أشخاص كثيرين. كنا نسير لأميال في الريف، حيث لا فرصة لرؤية آخرين. لكننا لم نكن معاً حقاً، حتى حين كنا نتطارح الغرام».

كان بوسع ستونر رؤية ذلك الكيان المبهم الذي كان بلا وجه ولا اسم، تحولت صدمته إلى حزن، وشعر بعطف غامر على الشاب المجهول، الذي فقد بسبب مرارة مجهولة المصدر ما يملكه ستونر الآن.

كان أحياناً، في الخمول الناعس عقب تطارحهما الغرام، يرقد فيما يبدو له في فيض لطيف من الحسية والفكر البطيء، وكان في ذلك الفيض لا يكاد يميز بين ما يقوله بصوت عالٍ وما يدركه بالحس والفكر.

كان يحلم بالكمال، بعالم يمكنهما فيه أن يكونا معاً على الدوام، وكان يؤمن بنصف قلبه باحتمال تحقق هذا الحلم. قال: «كيف سيكون الأمر لو..» وواصل يبني الفرضية التي لم تكن بأكثر جاذبية مما هما عليه بالفعل. كانت معرفة ضمنية تشاركاها معاً، وكانت تلك الفرضيات التي تخيلاها وصاغاها معاً إشارات غرام، واحتفال بالحياة التي

يقضيانها معاً الآن.

أما حياتهما التي يقضيانها معاً حقاً، لم يتخيلها أحدهما قط. تحولا من العاطفة إلى الشبق إلى الحسية العميقة التي تجدد نفسها دقيقة تلو الأخرى.

قالت كاثرين ذات مرة: «الرغبة والدراسة، هذا كل ما في الأمر، أليس كذلك؟»

وبدا لستونر أن ذلك حقيقي تماماً، وأنه أحد الأشياء التي تعلمها بالفعل.

إذ لم تكن حياتهما معاً في ذاك الصيف تدور كلها حول مطارحة الغرام والحديث. فقد تعلما أن يكونا معاً بدون كلام، وصارت عادتهما السكون. كان ستونر يجلب الكتب إلى شقة كاثرين ويتركها، حتى اضطرا في النهاية إلى تركيب خزانة كتب إضافية لها. في الأيام التي قضياها معاً، وجد ستونر نفسه يعود لدراساته التي هجرها، وواصلت كاثرين العمل على رسالة الدكتوراه. كانت تجلس أحياناً بالساعات إلى مكتبها الصغير الملاصق للحائط، منكبة بتركيز شديد على الكتب والأوراق، تبرز رقبتها الهيفاء الشاحبة من روبها الأزرق الغامق الذي ترتديه دائماً، بينما يتمدد ستونر على الكرسي أو يرقد على الفراش بتركيز مماثل.

كانا أحياناً يرفعان عينيهما عما يقرآنه، يبتسمان لأحدهما الآخر، ثم يعودان لما يقرآنه. أحياناً يرفع ستونر عينيه عن كتابه ويحدق في الانحناء الناعم لظهرها وفي عنقها الرشيق حيث تسقط دائما شعرات لولبية. فتنتابه حينها الرغبة البطيئة المسترخية كالاطمئنان، فينهض ويقف خلفها ويدع ذراعيه ترتاحان بخفة على كتفيها. فكانت تفرد ظهرها

وتميل برأسها إلى الوراء على صدره، فتمتد يديه إلى ما تحت الروب الواسع ويلمس صدرها برقة. فيتطارحان الغرام، ويرقدان بهدوء لفترة قصيرة، ثم يعودان لدراستهما، وكأن الحب والدراسة وجهان لعملة واحدة.

كان ذلك أحد غرائب ما كانا يطلقان عليه «وجهة نظر مسلَّم بها»، والتي تعلماها معاً ذلك الصيف. كانا قد تربّيا على تقاليد جعلتهما يفهمان، بشكل أو بآخر، أن حياة العقل وحياة الجسد منفصلتان، ومتضادتان كذلك، وقد اعتقدا، دون أن يفكرا في الأمر ملياً، أن على المرء اختيار إحداهما على حساب الأخرى. ولم يخطر لهما قط أن إحداهما قد تكثّف من حدة الأخرى. وقد بدا لهما تجسد تلك الحقيقة قبل إدراكها كشفاً يخصهما وحدهما. بدآ يجمعان غرائب «وجهة النظر المسلَّم بها» تلك ويخزناها كالكنوز، ساعدهما ذلك على الانعزال عن العالم الذي يسقيهما وجهات النظر تلك، كما ساعدهما على الاقتراب من أحدهما الآخر بطريقة رقيقة لكنها مؤثرة. كان ثمة أحد الغرائب الأخرى التي أدركها ستونر لكنه لم يتحدث عنها مع كاثرين، والتي كانت بشأن علاقته بزوجته وابنته.

كانت علاقة كُتب عليها، طبقاً «لوجهة النظر المسلَّم بها»، أن تسوء باضطراد طالما استمر ما تدعوه وجهة النظر المسلَّم بها بـ «علاقتهما السرية». بيد أن ذلك لم يحدث، بل على النقيض من ذلك، بدا أنها تتحسن باضطراد. إذ بدا أن غيابه المطول عما يضطر للاستمرار في تسميته «بيته» قد ساهم في تقريبه من إديث وجريس على نحو لم يحدث منذ سنوات. بدأ يشعر نحو إديث بصداقة غامضة تقترب إلى العاطفة، حتى إنهما كانا يتحدثان معاً، من حين لآخر، عن لا شيء على وجه الخصوص. حتى إنها في ذلك الصيف قامت بتنظيف الشرفة الشمسية، وإصلاح ما أتلفه الطقس، ووضعت فيها فراشًا صغيرًا، لئلا يضطر للنوم على الأريكة في

غرفة الجلوس.

وكانت أحياناً في العطلات الاسبوعية تزور الجيران وتترك جريس وحدها مع أبيها. وفي مناسبات عديدة كانت إديث تغيب طويلاً بما يكفي ليتمشى ستونر مع ابنته في الريف. وكان تحفّظ جريس اليقظ يسقط عنها وهي بعيدة عن المنزل، فيراها ستونر تبتسم بهدوء ساحر كان قد نسيه تقريباً. كانت قد كبرت سريعاً خلال العام الماضي وصارت نحيفة للغاية.

كان يتذكر خيانته لإديث فقط حين يركز تفكيره ليفعل ذلك. كان جزآ حياته منفصلين كما يكون جزآ الحياة في العادة. وبالرغم من معرفته بضعف قدرته على خداع الذات، فإنه لم يستطع إقناع نفسه بأنه يؤذي أيًا ممن النساء اللاتي كان مسؤولاً عنهن.

لم تكن لديه موهبة الإخفاء، ولم يخطر له أن يخفي علاقته بكاثرين دريسكول ولا أن يبوح بها لأي أحد. لم يبد له أن من الوارد أن يعرف عنها أي أحد من الخارج، أو أن يهتم بها حتى.

لذلك كانت صدمته شديدة وباردة حين اكتشف، في نهاية ذلك الصيف، أن إديث تعرف بشأنها، وأنها كانت تعرف منذ بداية العلاقة تقريباً.

تحدثت إديث عن الأمر عرضاً ذات صباح، حين كان يرشف قهوته وهو يدردش مع جريس على مائدة الإفطار. تحدثت بحدة قليلاً، وأخبرت جريس أن تتوقف عن تضييع الوقت في تناول الإفطار وأن عليها أن تقضي ساعة في التمرين على البيانو قبل أن تضيع وقتها. راقب ويليام قامة ابنته النحيفة المستقيمة وهي تغادر غرفة الطعام، وظل شاردًا في انتظار سماع النغمات الأولى الصادرة عن البيانو القديم.

قالت وما زالت بعض الحدة في صوتها: «حسناً. لقد تأخرت قليلاً هذا الصباح، أليس كذلك؟»

أدار لها ويليام وجهه بتساؤل وما زال يحمل تعبير الشرود. قالت إديث: «ألن تغضب شريكتك الصغيرة إن تركتها تنتظر؟» شعر بخدر يهبط على شفتيه. سأل: «ماذا؟ ماذا قلتِ؟»

قالت وهي تضحك بتسامح: «أوه ويلي، أظننت أنني لا أعرف شيئًا عن... لعبتك الصغيرة؟ أنا أعرف منذ البداية. ما اسمها؟ لقد سمعته لكنني نسيته».

في صدمته وارتباكه التقط ذهنه كلمة واحدة، وحين تكلم بدا له صوته عدوانيًا وفظًا، قال: «أنت لا تفهمين، لا يوجد ألعاب، كما تسمينها. إنها...»

قالت وهي تضحك ثانيةً: «أوه ويلي، تبدو مرتبكًا للغاية. أنا أعرف كل شيء عن هذه الأمور. رجل في مثل سنك وكل هذا. إنه أمر طبيعي، على ما أظن. على الأقل هذا ما يقولونه».

ظل صامتاً لدقيقة. ثم قال مكرهاً: «إديث، إن أردتِ أن نتحدث عن هذا الأمر».

قالت وفي صوتها لمحة خوف: «لا! لا يوجد شيء لنتحدث عنه، لا يوجد شيء البتة».

وبالفعل لم يتحدثا عن الأمر لا حينها ولا بعد ذلك. ظلت إديث تتعامل على أساس أن عمله هو الذي يبقيه خارج البيت لوقت طويل، لكنها كانت من آنٍ لآخر، وغالباً رغماً عنها، تتحدث عما يعرف أنه بداخلها في مكان ما على الدوام. كانت تارة تتحدث بروح الدعابة،

بشيء ما مثل العطف الاستفزازي، وتارة بلا مشاعر على الإطلاق، كما لو كان الموضوع الأكثر طبيعية في العالم التي تستطيع أن تتحدث عنه مع زوجها، وتارة تتحدث بمشاكسة كأنه شيء تافه يزعجها.

قالت: «أنا أعرف، ما إن يبلغ الرجل عامه الأربعين. ولكن ويلي، حقاً، إنك مسن بما يكفي لتكون أباها، أليس كذلك؟»

لم يخطر بباله كيف يبدو في عيني غريب، في عيني العالم. لوهلة رأى نفسه كما يجب أن يبدو، وما قالته إديث كان جزءًا مما رآه. لمح كيانًا ما يتقافز من حكايات غرفة التدخين ومن صفحات الأدب الرخيص... رجل مثير للشفقة في منتصف العمر، لا تفهمه زوجته، يرغب في تجديد شبابه، يدخل في علاقة مع شابة تصغره بسنوات، يحاول بارتباك، وعلى نحو ما يفعله القرود، الإمساك بتلابيب الشباب الذي مضى، مهرج أبله متصابٍ مبهرج، يسخر منه العالم بضيق وشفقة وازدراء. نظر إلى هذا الكيانٍ عن كثب ما أمكنه، لكنه كان كلما نظر إليه ابتعد عنه. لم يكن يرى نفسه فيه، وقد أدرك فجأة أنه لا أحد.

لكنه عرف أن العالم يتسلل نحوه، نحو كاثرين ونحو المحراب الصغير الذي ظنا أنه لهما وحدهما فقط، فظل يراقب تسلله بحزن لم يسعه التحدث عنه، حتى مع كاثرين.

بدأ الفصل الدراسي الخريفي في أيلول من ذاك العام بصيف هندي زاهٍ وزاخر بالألوان جاء بعد ثلج مبكر. وعاد ستونر إلى تدريسه بهمة لم يشعر بها منذ وقت طويل، وحتى توقعه مواجهة المئات من طلبة السنة الأولى لم يُطفئ توهج طاقته المتجددة.

استمرت حياته مع كاثرين كما كانت إلى حد كبير، ما عدا اضطراره إلى مراعاة الحذر مع عودة الطلبة والكثير من أعضاء الكلية. كان المبنى

القديم الذي تقطن فيه كاثرين مهجورًا تقريباً أثناء الصيف، ولذلك كانا يقضيان وقتهما معاً في عزلة تامة تقريباً، بلا مخاوف من أن يلحظهما أحد. لكن الآن كان على ويليام أن يتخذ قدرًا كبيرًا من الحذر لئلا يراه أحد في زياراته لها أثناء فترة بعد الظهر، فألفى نفسه يتلفت حوله وهو يقترب من منزلها، ويهبط الدرجات المؤدية لشقتها بتلصص.

فكرا في الإشارات وتحدثا عن التمرد، أخبر أحدهما الآخر أن عليهما القيام بشيء ما يتجاوز الحدود، أن يظهرا. لكنهما لم يقوما بهذا، إذ لم يكن لديهما الرغبة الحقيقية للقيام بهذا. كل ما أراداه أن يُتركا وشأنهما، أن يكونا نفسيهما، ومع رغبتهما في هذا، علما أنهما لن يُتركا وشأنهما وأنهما لن يستطيعا أن يكونا نفسيهما. تخيلا أنهما بارعان في إخفاء نفسيهما، ولم يخطر ببالهما أن العالم يرتاب في العلاقة بينهما. اتفقا على أن لا يلتقيا في الجامعة أبداً، وحين كانا يضطران للقاء أمام الملأ، كانا يومئان لأحدهما الآخر برسمية لم يصدقا أن السخرية فيها جلية.

لكن علاقتهما كانت معروفة، وسرعان ما انتشر العلم بها بعد بداية الفصل الدراسي الخريفي. الأرجح أن المعرفة بها قد جاءت من ذلك الاستبصار العجيب الذي يتمتع به الناس حين يتعلق الأمر بتلك الشؤون، إذ لم يأتِ أحد منهما بأدنى إشارة عن حياتهما الخاصة. أو ربما قام شخص ما بلفظ تخمين فارغ اكتسب رنين الحقيقة في أذن شخص ما آخر، ما تسبب في تركيز النظر عليهما بقدر أكبر، والذي بدوره... كانت تخمينات الناس، كما عرفوا جيداً، بلا نهاية، لكنهم واصلوها على كل حال.

كان ثمة إشارات عرف كلاهما منها أن أمرهما قد كُشف. ذات مرة، كان ستونر يمشي خلف طالبي دراسات عليا، فسمع أحدهما يقول للآخر بنصف إعجاب ونصف ازدراء: «ستونر العجوز، يا إلهي، من

ذا الذي يصدق هذا؟»ـ ورآهما يهزان رأسيهما بتهكم وحيرة من حال الدنيا. كذلك كان معارف كاثرين يذكرون ستونر على نحو غير مباشر، ويستودعونها أسرارهم العاطفية على نحو لم تكن ترحب به.

ما أدهشهما فعلاً أن الأمر لم يبد بذي أهمية. لم يرفض أحد التحدث معهما، ولم ينظر إليهما أحد بسوء، لم يضطرا للمعاناة من العالم الذي كانا يخافانه. بدآ يعتقدان أن بمقدورهما العيش في المكان الذي كانا يظنانه معادٍ لحبهما، وأن يعيشا فيه ببعض الكرامة والسهولة.

مع اقتراب عطلة عيد الميلاد، قررت إديث أخذ جريس والسفر لزيارة أمها في سانت لويس، ولأول مرة في حياتهما معاً استطاع ويليام وكاثرين أن يكونا معاً لفترة طويلة من الوقت.

أبلغ كل واحد منهما الجامعة على نحو منفصل وعرضي أنه سيغيب عن الجامعة أثناء عطلة عيد الميلاد، قالت كاثرين إنها ستزور أقاربها في الشرق، وقال ويليام إن عليه العمل في مركز المراجع والمتحف في كنساس سيتي. استقل كل منهما الحافلة في وقت مختلف عن الآخر، والتقيا في بحيرة أوزارك، قرية منتجع على تخوم جبال منطقة أوزارك الكبرى. كانا الضيفين الوحيدين في الفندق الوحيد في القرية الذي يظل مفتوحاً طوال العام، وقضيا معاً عشرة أيام.

ظل الثلج يتساقط بغزارة لمدة ثلاثة أيام قبل وصولهما، وسقط مجدداً خلال إقامتهما، فظلت التلال تتماوج ببياض رقيق طوال فترة وجودهما هناك.

حظيا بكابينة بها غرفة نوم وغرفة جلوس ومطبخ صغير، بعيدة إلى حد ما عن الكبائن الأخرى، وتطل على بحيرة تظل متجمدة طوال فصل الشتاء. كانا يستيقظان في الصباح ليجدا نفسيهما متعانقين، جسداهما

دافئان مدللان تحت الأغطية الثقيلة. يخرجان رأسيهما من الأغطية ويراقبان أنفاسهما تتكثف في سحب كبيرة في الهواء البارد، فيضحكان كالأطفال، ثم يعيدان رأسيهما تحت الأغطية ويقتربان أكثر من بعضهما أسفلها. كانا أحيانا يتطارحان الغرام ويظلان في الفراش طوال النهار يتحدثان، حتى تنفذ أشعة الشمس من نافذة شرقية، وأحياناً كان ستونر يصحو ليقفز من الفراش ويزيح الأغطية عن جسد كاثرين العاري وهو يضحك على صرخاتها، ويذهب ليشعل نارًا في المدفئة الكبيرة التي يتعانقان أمامها وهما يلتفان بالبطانيات فقط، ينتظران الدفء الآتي من النار ومن جسديهما.

على الرغم من الطقس البارد، كانا يتمشيان في الغابة كل يوم تقريباً. انتصبت أشجار الصنوبر الباسقة عالياً، باللون الأسود المخضر على الثلج الأبيض، نحو سماء زرقاء باهتة خالية من السحب. يكثّف صوتُ انزلاق كتل الثلج من على الأغصان، بين الحين والآخر، الصمتَ المحيط بهما، كما يكثف صداح متقطع لطائر وحيد خلوتهما وهما يسيران. شاهدا ذات مرة غزالة هبطت من أعالي الجبال بحثاً عن طعام، كانت أنثى لها بشرة صفراء تلمع وسط صرامة الصنوبر الداكن والثلج الأبيض. وقفت أمامهما على مبعدة خمسين ياردة، رفعت إحدى ساقيها الأماميتين برشاقة فوق الثلج، ارتعشت أذناها للأمام، عيناها البنيتان مستديرتان تماماً وناعمتان بشكل لا يوصف. لم يحرك أحد ساكناً، مال وجه الغزالة الرقيقة كأنها تتساءل عنهما بأدب، ثم استدارت على مهل وسارت تبتعد عنهما، ترفع سيقانها برشاقة من على الثلج الذي تخطو فيه بدقة وبصوت سحق خافت.

كانا يذهبان خلال فترة الظهيرة إلى مركز الاستقبال بالفندق الذي يُعدّ أيضاً السوق والمطعم الرئيسيين في القرية. يشربان القهوة هناك ويتحدثان مع كل من يأتي، وقد يشتريان أشياء لعشائهما الذي يتناولانه

دائمًا في كابينتهما.

في الأمسيات، كانا أحياناً يضيئان المصباح الزيتي ويقرآن، لكنهما غالباً ما كانا يفترشان البطاطين أمام المدفأة ويتمددان عليها ويتحدثان، ثم يسكتان ويراقبان النار وهي تلعب بتعقيد مع الأخشاب، وضوؤها وهو يتلاعب على وجهيهما.

ذات أمسية وقد أوشك وقتهما معاً على الانتهاء قالت كاثرين بهدوء، وبشرود تقريباً، «بيل، إن لم نحظَ بأي شيء آخر سيظل لدينا ذكرى هذا الأسبوع، أيبدو لك هذا كلام فتيات؟»

قال: «لا يهم كيف يبدو كلامك»، وأومئ مضيفاً: «إنه حقيقي».

«سأقولها إذن.. سيكون لدينا دائماً ذكرى هذا الأسبوع».

في صباحهما الأخير، أعادت كاثرين الأثاث المبعثر إلى موضعه ونظفت المكان بعناية بطيئة. خلعت خاتم الزواج الذي كانت ترتديه، ووضعته في الشق بين الجدار والمدفأة. ابتسمت بثقة وقالت: «أردت أن أترك شيء ما يخصنا، شيء أعرف أنه سيظل هنا، طالما بقي هذا المكان. ربما كان ذلك سخفاً».

لم يستطع الرد عليها، أخذ ذراعها وخرجا من الكابينة وسارا يخبّان في الثلج إلى المكتب الرئيسي، من حيث سيستقلان الحافلة التي ستعود بهما إلى كولومبيا.

ذات ظهيرة أحد أيام شباط، بعد أيام قليلة من بدء الفصل الدراسي الثاني، تلقى ستونر مكالمة من سكرتيرة جوردون فينش تخبره أن العميد يرغب في التحدث معه، وتسأله إن كان يستطيع المرور بمكتبه هذه الظهيرة أو الصباح التالي. أخبرها ستونر أنه سيذهب في الحال. وجلس

لعدة دقائق ويديه على الهاتف بعد أن وضع السماعة. ثم تنهد وأومأ لنفسه، وهبط لأسفل متجها لمكتب فينش.

كان جوردون فينش يرتدي قميصًا بأكمام طويلة، وربطة عنقه مرخية، ويميل للوراء في كرسيه الدوار ويداه متشابكتان خلف رأسه. حين دخل ستونر المكتب، أومأ له وأشار إلى المقعد المريح المغطى بالجلد بجوار مكتبه.

«أهلاً يا بيل، كيف الحال؟»

أومأ ستونر: «بخير».

«مشغول في التدريس؟»

قال ستونر بخشونة: «على نحو معقول، جدولي مشحون».

قال فينش وهو يهز رأسه: «أعرف. ليس لي أن أتدخل في هذا، أنت تعرف. لكنه أمر لعين».

قال ستونر بنفاد صبر قليلاً: «لا بأس».

«حسناً». قال فينش ثم استقام في جلسته وشبك قبضتيه على المكتب أمامه وتابع: «هذه الزيارة ليست رسمية يا بيل، أردت فقط أن أدردش معك».

ساد صمت طويل. قال ستونر بلطف: «ما الأمر يا جوردون؟»

تنهد فينش ثم قال فجأة: «حسناً، أنا أتحدث معك الآن كصديق، ثمة قيل وقال، ليس بشيء يتطلب انتباهي كعميد، حتى الآن، لكن.. عليّ أحياناً أن أنتبه للأمر، وقد ظننت أن من واجبي التحدث معك-

كصديق، إن سمحت لي. قبل أن يتطور الأمر إلى أي شيء جاد».

أومأ ستونر وسأله: «قيل وقال عن ماذا؟»

«بالله عليك يا بيل! أنت والفتاة دريسكول، أنت تعرف..»

«نعم. أعرف. أردت فقط أن أعرف إلى أي حد وصل الأمر؟»

«ليس كثيراً حتى الآن، تلميحات، ملاحظات، أشياء من هذا القبيل».

«فهمت، لا أعرف ما الذي يمكنني فعله في هذا الصدد؟»

سحب فينش ورقة من أمامه وهو يسأل ستونر: «هل الأمر جاد يا بيل؟»

أومأ ستونر ونظر خارج النافذة: «أخشى أن الأمر جاد».

«وماذا ستفعل؟»

«لا أعرف».

بحركة فجائية، جعّد فينش الورقة التي كان يطويها بمنتهى الدقة وألقى بها في سلة المهملات، قال: «نظرياً، حياتك ملكك لتعشها كما تريد، نظرياً، لك الحق في النوم مع من تشاء، وفي فعل ما تشاء، والأمر لا يهم ما دام لا يؤثر على تدريسك. لكن.. اللعنة، حياتك ليست ملكك. إنها... أنت تعرف ما أعنيه».

قال ستونر مبتسماً: «أخشى أنني أعرف».

«إنه أمر سيء. ماذا عن إديث؟»

«من الواضح أنها تأخذ الأمر بجدية أقل من أي شخص آخر. وهو أمر غريب يا جوردون، لا أظن أننا كنا على وفاق كما كنا طوال العام الماضي».

ضحك جوردون ضحكة قصيرة وقال: «أمر لا يصدق، أليس كذلك؟ لكنني كنت أقصد عن احتمال الطلاق أو شيء كهذا».

«لا أعرف، إنه أمر وارد، لكن إديث ستحاربه، سيكون الأمر مأساويًا».

«وماذا عن جريس؟»

غص حلق ستونر بألم فجائي، وعرف أن تعبير وجهه فضح ما يشعر به: «تلك حكاية أخرى، لا أعرف يا جوردون».

قال فينش ببرود، كأنهما يناقشان مسألة أخرى: «ستتجاوز الطلاق.. إن لم يكن مريرًا وصعبًا. سيكون الأمر شاقاً، لكنك على الأرجح، ستجتازه. وإن لم يكن هذا الشيء مع الفتاة دريسكول جاداً، إن كنت تلهو فقط، حسناً... ستتجاوز هذا أيضاً، لكنك تفضح نفسك يا بيل، أنت تقصد هذا».

«أظن أنني كذلك».

صمتا قليلاً، ثم قال فينش ببطء: «يا له من جحيم تلك الوظيفة. أحياناً أظن أنني لست لها».

ابتسم ستونر وقال: «قال ديف ماسترس ذات مرة إنك لست حقيرًا بما يكفي لتكون ناجحاً حقاً».

قال فينش: «ربما كان محقاً، لكنني أشعر بالرضا عن نفسي أحياناً

كثيرة بما يكفي».

«لا تقلق بشأن هذا يا جوردون، أنا أفهم موقفك. وإن كان بإمكاني تسهيل الأمر عليك لفعلت..» سكت وهز رأسه بحدة: «لكنني لا أستطيع فعل أي شيء الآن. سيكون على ذلك أن ينتظر. بطريقة ما...»

أومأ فينش ولم ينظر إلى ستونر، ظل يحدق في سطح مكتبه كمن تحدق به كارثة ببطء، ولا فرار منها. انتظر ستونر عدة دقائق وإذ لم يتحدث فينش مرة أخرى، نهض ستونر بهدوء وغادر المكتب.

بسبب تلك المحادثة مع جوردون فينش تأخر ستونر تلك الظهيرة في الوصول إلى شقة كاثرين. سار في طريقه ودخل إلى هناك دون أن يلتفت يميناً أو يساراً. كانت كاثرين في انتظاره، لم تغير ملابسها، وكانت تنتظر برسمية تقريباً في جلسة مستقيمة ومتحفزة على طرف الأريكة.

قالت بلا انفعال: «تأخرت».

«آسف، عطلني أمر ما».

أشعلت كاثرين سيجارة ويدها ترتعش قليلاً. نظرت لعود الثقاب لوهلة ثم أطفأته بدخان السيجارة. قالت: «أشارت إحدى زميلاتي المدرسات عرضاً إلى أن العميد فيتش طلب مقابلتك اليوم».

«نعم، هذا ما عطلني».

«أكان الأمر بشأننا؟»

أومأ قائلاً: «لقد بلغته أخبار».

«توقعت هذا، بدا أنها تعرف أكثر مما تريد أن تقول. أوه، يا إلهي!

بيل!»

«الأمر ليس هكذا البتة، إن جوردون صديق قديم. وأعتقد أنه يريد حمايتنا حقاً. وأنه سيفعل ذلك إن استطاع».

لم تقل شيئاً لعدة دقائق، خلعت حذاءها بقدمها واستلقت على الأريكة تحدق في السقف، ثم قالت بهدوء: «الآن يبدأ الأمر. ظني أننا بالغنا في الأمل في أن يتركونا وشأننا. أظن أننا لم نؤمن ذلك حقاً».

«إن ساءت الأمور يمكننا أن نهرب، يمكننا أن نفعل شيئاً».

قالت وهي تضحك قليلاً، ملئ فمها وبنعومة: «أوه بيل». ثم جلست على الأريكة وقالت: «إنك حبي الأعز، الأعز، الأعز، بشكل لا يتخيله أحد. ولن أدعهم يزعجوننا، لن أفعل!»

قضيا الأسابيع القليلة اللاحقة كما اعتادا من قبل. بإستراتيجية لم يكن بمقدورهما إتقانها منذ عام مضى، وبقوة لم يعرفا أنهما يتمتعان بها، يمارسان التجنب والانسحاب، مسخران قواهما بمهارة جنرالين بارعين صامدين في مواجهة قوى هزيلة. باتا حريصين ويقظين بحق، وشعرا باستمتاع كئيب في مراوغاتهما. يأتي لشقتها بعد أن يخيم الظلام لئلا يراه أحد، وخلال اليوم كانت كاثرين تقضي فترات ما بين المحاضرات في المقاهي مع زملائها المدرسين الذكور، وكان إصرارهما المشترك هذا هو ما يُكثف زخم الساعات التي يقضياها معاً. قالا لنفسيهما ولأحدهما الآخر إنهما باتا قريبين من بعضهما إلى درجة لم يكونا عليها من قبل قط. ولدهشتهما، أدركا أن هذا حقيقي، وأن الكلمات التي يرددانها لأحدهما الآخر ليهوّنا على نفسيهما كانت أكثر من مواساة. صنعا قرباً ممكناً والتزاماً حتمياً.

كانا يعيشان ويستحضران أفضل ما في نفسيهما في عالم نصف مضاء حتى بدا لهم العالم الخارجي، بعد فترة، حيث يمشي الناس ويتحدثون، وتحدث التغييرات والحركة الدائبة، مزيفاً وغير حقيقي. كانت حياتهما مقسمة بوضوح بين العالمين، وبدا لهما من الطبيعي أن يعيشا تلك الحياة المقسّمة.

في أواخر الشتاء وبدايات الربيع، وجدا معاً هدوءًا لم يجداه من قبل قط. فيما كان العالم الخارجي يطوي صفحتهما، صارا أقل وعياً بحضوره، وأغنتهما سعادتهما عن التحدث معاً بشأنه أو التفكير فيه حتى. في شقة كاثرين الصغيرة الكئيبة، المختفية ككهف أسفل المبنى الضخم العتيق، بديا لنفسيهما كأنهما يتحركان خارج الزمن، في كون سرمدي اكتشفاه وحدهما.

ثم في أحد أيام نيسان، استدعى جوردون فينش ستونر إلى مكتبة مرة أخرى، وهبط إليه ستونر بخدر انتابه من معرفته بما لم يطق الاعتراف به.

كان ما حدث بسيطاً أشدّ ما تكون البساطة، شيء ما كان على ستونر توقعه، لكنه لم يفعل.

قال فينش: «إنه لوماكس.. عرف ابن العاهرة بالأمر بطريقة ما، ولن يتركه».

أومأ ستونر قائلاً: «كان يجب أن أفكر في هذا، كان يجب أن أتوقعه. أتظن أنني لو تحدثت معه سيعود هذا بأي شيء جيد؟»

هز فينش رأسه، سار عبر غرفة مكتبه، ووقف أمام النافذة. هبط ضوء شمس الظهيرة المبكرة على وجهه الذي يلمع من العرق. قال

بتعب: «أنت لا تفهم بيل، لوماكس لا يلعب بهذه الطريقة. إن اسمك لم يُذكر قط، إن ما يهمه هو الفتاة دريسكول».

سأل ستونر مشدوهاً: «ماذا؟»

قال فينش: «يجب أن تُعجَب بقدراته، لقد عرف، بشكل ما، كل شيء. لذلك جاء إلى هنا البارحة، بلا موعد سابق، وأخبرني أنه سوف يفصل الفتاة دريسكول وحذرني من أن الأمر سيسبب بعض المشكلات».

قال ستونر: «لا». وتألمت يداه وهما تقبضان على ذراعي الكرسي المريح المكسو بالجلد.

تابع فينش: «وفقًا لما قاله لوماكس، ثمة شكاوى كثيرة، أغلبها من الطلبة، وبعضها من أبناء البلدة. يبدو أنهم شاهدوا رجالاً يروحون ويغدون على شقتها في جميع الأوقات- سلوك مشين- شيء من هذا القبيل. أوه، إنها ضربة معلم منه، فلا مانع شخصي لديه.. بل إنه معجب بالفتاة في الحقيقة، لكنه يهتم بسمعة القسم والجامعة. تحدثنا بأسف عن ضرورة الرضوخ لما تمليه علينا أخلاقيات الطبقة المتوسطة، واتفقنا على أن مجتمع الطلبة والمدرسين يجب أن يكون الملاذ للمتمردين على الأخلاقيات البروتستانتية، ووصلنا إلى أنه ليس بيدنا حيلة. قال إنه كان يتمنى أن يتركها تستكمل مسيرتها حتى نهاية الفصل الدراسي، لكنه لا يستطيع. وكان ابن العاهرة يعرف طوال الوقت أن كلينا يفهم الآخر تماماً».

جعلت الغصة في حلق ستونر من المستحيل عليه أن يتكلم. بلع ريقه مرتين واختبر صوته، كان ثابتاً وسطحياً: «ما يريده واضح تماماً، بالطبع».

قال فينش: «أخشى أنه كذلك».

قال ستونر ببرود: «كنت أعرف أنه يكرهني، لكنني لم أدرك أبداً، لم أتخيل قط أن..»

قال فينش: «ولا أنا». ثم عاد إلى مكتبه وجلس متعباً: «ولا يسعني فعل شيء يا بيل. ليس بيدي شيء. إن أراد لوماكس أن يأتي بأصحاب الشكاوى، سيفعل. إن أراد أن يأتي بشهود، فسيفعل. إن له مؤيدين كثر، وأنت تعرف هذا. وإن تسرب أي شيء للرئيس..» ثم سكت وهز رأسه.

«ماذا سيحدث برأيك إن رفضت التخلي عن الأمر؟ إن رفضنا أن نخاف منه؟»

قال فينش ببرود: «سيفضح الفتاة. وسيحشرك في الأمر كأنه من قبيل المصادفة. الأمر منظم جداً».

قال ستونر: «يبدو إذاً أنه ليس لدينا خيار آخر».

قال فينش: «بيل». ثم سكت وأراح رأسه على راحتيه المنقبضتين. قال ببلادة: «ثمة فرصة. فرصة واحدة فقط. بإمكاني إبعاده لو قمت- لو قامت الفتاة دريسكول بـ..»

قال ستونر: «لا. لا أظن أن بإمكاني هذا. لا أستطيع أبدًا».

«اللعنة!» كان صوت فينش مغموماً. «إنه يتوقع هذا! فكر قليلاً. ماذا ستفعل؟ نحن في نيسان، بداية أيار تقريباً، كيف ستعمل في أي مكان آخر في هذا الوقت من العام.. إن عملت أساساً».

«لا أعرف. شيء ما...»

«وماذا عن إديث؟ أتظنها ستستسلم؟ أتظنها ستمنحك الطلاق بلا قتال؟ وجريس؟ كيف سيؤثر ذلك عليها، في هذه البلدة، إن هربت وتركتها؟ وكاثرين؟ أي حياة ستقضيانها معاً؟ كيف سينتهي الأمر بكما؟»

لم يتكلم ستونر. كان خواءً آخذًا في التشكل بداخله في مكان ما. شعر بدمار، بانهيار. قال أخيراً: «أيمكنك أن تمنحني أسبوعاً آخر، يجب أن أفكر في الأمر. أسبوع؟»

أومأ فينش قائلاً: «يمكنني منعه تلك الفترة على الأقل. لكن ليس لأطول من هذا. أنا آسف يا بيل. أنت تعرف هذا».

«نعم». نهض من كرسيه ووقف قليلاً يختبر خدر قدميه الثقيل. «سأبلغك.. سأبلغك حين أستطيع».

خرج من المكتب إلى ظلمة الرواق الطويل وسار ببطء نحو ضوء الشمس، نحو العالم المفتوح الذي بدا له، أينما ولّي وجهه، كالسجن.

بعد ذلك بسنوات، في لحظات غريبة، كان يسترجع ذكرى تلكم الأيام التي تلت محادثته مع جوردون فينش ويعجز تماماً عن تذكرها بوضوح. كان كأنه رجل ميت لا يحركه سوى عادة قوة الإرادة العنيدة. مع ذلك كان واعياً، على نحو غريب، لنفسه وللأماكن من حوله وللأشخاص والأحداث التي تمر به في تلكم الأيام القليلة. وقد عرف أنه يقدم للناس مظهراً ينافي دخيلته. كان يلقي محاضراته، ويُحيي زملاءه في العمل، ويحضر الاجتماعات التي كان عليه حضورها.. دون أن يدرك أيٌّ ممن كان يقابلهم أن ثمة خطب ما به.

لكنه علم منذ اللحظة التي خرج فيها من مكتب جوردون فينش، في

مكان ما في الخدر الذي نما من مركز صغير في كيانه، أن جزءًا من حياته قد انتهى، أن جزءًا منه قد اقترب بشدة من الموت إلى درجة أن راح يراقبه بهدوء. كان واعياً على نحو مبهم أنه يسير عبر الحرم الجامعي في الدفء النضر الساطع لظهيرة يوم من بدايات الربيع. كانت أشجار القرانيا على جانبي الممشى وفي الباحات الأمامية مزدهرة تماماً، وتتهادى كسحب ناعمة، شفافة ورقيقة أمام ناظريه، والهواء مفعم بالعطر الحلو لزهور الليلك الجافة.

وحين وصل إلى شقة كاثرين كان مرحاً على نحو محموم شديد. تجاهل أسئلتها عن لقائه الأخير بالعميد، أجبرها على الضحك وراقب بحزن يستعصي على الوصف جهودهما الأخيرة لاستبقاء المرح، كانت كرقصة أخيرة للحياة على الجسد المسجى للموت.

لكن كان عليهما في نهاية المطاف أن يتحدثا، عرف ذلك، وكانت الكلمات التي قالاها مثل عرض تدربا عليه مرارًا وتكرارًا في أعماق معرفتهما. لكنهما أعلنا تلك المعرفة بقواعد منطقية: انطلقا من الماضي التام: «لقد ظللنا سعيدين، أليس كذلك؟» إلى الماضي البسيط: «لقد كنا سعيدين.. أسعد من أي شخص آخر، على ما أعتقد»ـ وأخيراً وصلا إلى ضرورة النقاش.

بعد عدة أيام من محادثته مع فينش، في لحظة هدوء قطعت حالة المرح شبه الهستيري التي اختاراها بوصفها الميثاق الأنسب ليودّعا به أيامهما الأخيرة معاً، قالت كاثرين: «ليس لدينا متسع من الوقت، أليس كذلك؟»

أجابها بهدوء: «لا».

سألته: «كم تبقى؟»

«أيام قليلة، يومان أو ثلاثة».

أومأت قائلة: «ظننت أنني لن أستطيع تحمل الأمر. لكنني أشعر بالخدر فقط. لا أشعر بأي شيء».

قال: «أعرف». وصمتنا قليلاً، ثم قال: «أنت تعرفين أنه لو كان هناك أي شيء، أي شيء يمكنني فعله، لكنت..»

«لا تقل هذا. بالطبع أعرف».

رقد على الأريكة ونظر إلى السقف الواطئ الكابي الذي كان سماء عالمهما. قال بهدوء: «إن ألقيت بكل شيء وراء ظهري.. إن تركت كل شيء ومضيت في طريقي فقط، ستكونين معي، أليس كذلك؟»

«نعم».

«لكنك تعرفين أنني لن أفعل هذا، أليس كذلك؟»

«أعرف».

كان يفسر الأمر لنفسه: «لأنه حينها لا شيء سيعني أي شيء.. لا شيء مما فعلناه، ولا شيء مما كنا عليه. بالتأكيد لن أستطيع أن أدرّس مرة أخرى، وأنتِ.. ستصيرين شيئاً آخر. كلانا سيصير شيئاً آخر، شيء آخر غير نفسينا. سنصير.. لا شيء».

«لا شيء».

«وقد خرجنا من هذا، على الأقل، بنفسينا. نحن نعلم أننا.. ما عليه الآن».

«نعم».

«لأنه على المدى الطويل، ليست إديث ولا جريس ولا حتمية فقدان جريس هي التي تبقيني هنا، ليست الفضيحة أو الضرر الذي قد يلحق بكِ أو بي، ولا المصاعب التي سنضطر لمعاناتها، أو حتى فقدان الحب الذي قد نواجهه. إنه ببساطة تدمير نفسينا، تدمير ما نفعله».

«أعرف».

«إذاً نحن من طين العالم رغم كل شيء، كان علينا أن نعرف ذلك. كنا نعرفه بالفعل، على ما أعتقد، لكن كان علينا الانسحاب قليلاً، والتظاهر قليلاً، لذلك استطعنا أن...»

قالت: «أعرف. كنت أعرف ذلك طوال الوقت، على ما أظن. حتى مع التظاهر، عرفت أننا في وقت ما، في وقت ما سوف.... كنت أعرف». سكتت ونظرت إليه بجمود. اغرورقت عيناها بالدموع فجأة وقالت: «لكن اللعنة على كل هذا يا بيل، اللعنة على كل هذا».

لم يقولا شيئاً آخر. تعانقا لئلا يرى أحدهما وجه الآخر، وتطارحا الغرام لئلا يتحدثا. مزجا الحسية الحنون القديمة الناجمة من معرفة أحدهما الآخر جيداً بزخم مشاعر الفقدان الجديدة. رقدا ساكنين بعد ذلك، في هدأة الليل في الغرفة الصغيرة، بلا حديث، يتلامس جسداهما برقة، كأنهما نائمان. نهض ستونر بهدوء، ارتدى ملابسه في الظلام وخرج من الغرفة دون أن يوقظها. سار في شوارع كولومبيا الهادئة الخالية حتى طلع أول شعاع ضوء رمادي من الشرق، ثم توجه نحو الحرم الجامعي. جلس على الدرجات الحجرية أمام مبنى الجيسي هول يراقب تسلل الضوء من الشرق على الأعمدة الحجرية المنبثقة في منتصف ساحة الكلية. فكر في النيران التي التهمت المبنى القديم ودمرته تماماً قبل أن يولد هو. وشعر بحزن بعيد لرؤيته ما تبقى منها. حين ساد الضوء دخل

الردهة وتوجه إلى مكتبه حيث ظل منتظرًا موعد محاضرته الأولى.

لم ير كاثرين دريسكول مرة أخرى. بعد أن تركها أثناء الليل، نهضت وحزمت جميع أمتعتها ورتبت كتبها في صناديق، وتركت للمشرف على المبنى رسالة تخبره أين يشحنها لها. أرسلت إلى مكتب قسم الأدب الإنجليزي درجاتها وتوجيهاتها لانقطاعها عن التدريس لفترة الأسبوع والنصف المتبقية من الفصل الدراسي الحالي، واستقالتها، وبحلول الثانية بعد الظهر كانت على متن قطار في طريقها خارج كولومبيا.

أدرك ستونر أنها لابد كانت قد خططت لرحيلها قبل وقت طويل، وشعر بالامتنان لأنه لم يكن يعرف ولأنها لم تترك له رسالة وداع لتقول ما لا يمكن قوله.

xii.

لم يدرِّس في ذاك الصيف، وأصابه أول مرض في حياته. كانت حمى شديدة الوطأة وغير معروفة السبب، استمرت لأسبوع فقط، لكنها استنفدت جميع قواه، فصار هزيلاً للغاية، وعانى عقبها من فقدان جزئي للسمع. قضى الصيف كله ضعيفاً للغاية وخائر القوى إلى درجة إنه كان يصاب بالتعب إن سار خطوات قليلة فقط، فقضى وقته كله تقريباً في الشرفة الشمسية الصغيرة المنعزلة في خلفية المنزل، راقدًا على السرير الضيق أو جالساً على الكرسي المريح العتيق الذي جلبه من القبو. يشخص ببصره خارج النوافذ أو يحدق في السقف المضلّع. يتحرك بين الحين والآخر ليذهب إلى المطبخ ليتناول ما يقيم أوده.

كان نادرًا ما يتحدث مع إديث أو حتى مع جريس. مع ذلك كانت إديث تأتي أحياناً إلى الغرفة الخلفية لتتحدث معه بلا تركيز لعدة دقائق، ثم تتركه وحيداً فجأة كما اقتحمت خلوته فجأة.

تحدثت ذات مرة، في منتصف الصيف عن كاثرين. «لقد سمعت منذ يوم أو اثنين تقريباً أن شريكتك الصغيرة قد رحلت، هل حدث ذلك حقاً؟»

بذل جهداً لينقل انتباهه بعيداً عن النافذة ويستدير لإديث قائلاً بهدوء: «نعم».

سألته إديث: «ما كان اسمها؟ دائماً ما أنساه».

«كاثرين. كاثرين دريسكول».

«أوه، نعم. كاثرين دريسكول. حسناً، أرأيت؟ لقد أخبرتك. ألم أقل لك؟ قلت لك إن هذه الأشياء ليست مهمة».

أومأ بشرود. نعق طائر كبير لونه أبيض وأسود، عقعق[1]، في شجرة الدردار العجوز التي تظلل سور الباحة الخلفية. أنصت لندائه وراقب بانبهار ناءٍ منقاره المفتوح وهو يطلق صيحات وحدته.

شاخ سريعاً في ذاك الصيف، حتى إنه حين عاد إلى محاضراته في الخريف، قلة عرفوه دون أن يفاجأوا في البداية. كان وجهه الذي صار هزيلاً وناتئ العظام، قد ملأته الخطوط، وتناثرت في شعره بقع رمادية ثقيلة، وزاد انحناء ظهره كثيراً، كأنه يحمل على كاهليه ثقلاً غير مرئيّ. كذلك صار صوته أجش قليلاً وفظًا، واعتاد أن ينظر إلى من أمامه وهو يحني رأسه قليلاً، ما جعل عينيه الرماديتين تبدوان حادتين ومتبرمتين أسفل حاجبيه المنعقدين. كان نادرًا ما يتحدث مع أحد غير طلبته، ودائماً ما يرد على الأسئلة والتحيات بصبر يكاد ينفد وبقسوة أحياناً.

كان يقوم بواجبه بتعنت وصرامة أعجبت زملاءه الأكبر سناً وأغاظت المعيدين الشباب الذين يدرسون طلبة السنة الأولى مثله. كان يقضي الساعات في تقييم أوراق طلبته وتصحيحها، ويجتمع بهم يومياً، ويحضر كافة اجتماعات القسم بإخلاص. لم يكن يتحدث كثيرًا في تلك الاجتماعات، وحين يضطر إلى ذلك، لم يكن يراعي قواعد الذوق ولا الدبلوماسية، فعُرِف بين زملاءه بالجلافة وسوء الطبع، لكنه كان رقيقاً وصبوراً مع طلبته، مع ذلك، كان يفرض عليهم أعمالاً أكثر مما يطيقون، بصرامة باردة لم يستطع الكثير منهم فهمها.

---

(١) نوع من الغربان

كذلك شاع عنه بين زملائه- لاسيما الشباب منهم- أنه أستاذ «مُخلِص»، وهي صفة يطلقونها بنصف حقد ونصف ازدراء، على الأستاذ الذي يعميه إخلاصه عن كل ما يدور خارج قاعة الدرس، أو على أقصى تقدير، خارج قاعات الجامعة. أطلقوا عليه عدة نكات سَمِجة: عقب اجتماع للقسم تحدث فيه ستونر عن بعض التجارب الحديثة في تدريس القواعد، قال معيد شاب إن «الجماع عند ستونر يقتصر فقط على الأفعال». وأدهشه كم الضحك والنظرات ذات المغزى التي تبادلها بعض الأساتذة الكبار. كذلك قال أحدهم ذات مرة: «يظن ستونر العجوز أن WPA اختصار لضمير خاطئ في الماضي»[1]، وشعر بسعادة حين انتشرت دعابته على نطاق واسع.

لكن ويليام ستونر كان يفهم العالم على نحو لم يفهمه سوى القليل من طلبته. كان في أعماقه، أسفل ذاكرته، يعرف جيداً القسوة والجوع والجَلَد والألم. ومع أنه كان نادراً ما يفكر في سنواته الأولى في مزرعة بونفيل، كانت معرفته بالدم الذي ورثه قريبة من وعيه دائماً، الدم الذي ورثه عن أسلافه الذين عاشوا حياة مبهمة وقاسية، ولم يكن لهم من هدف سوى أن يقدموا لعالم قمعيّ وجوهاً خشنة وكئيبة وخالية من التعبير.

ومع أنه كان ينظر إليهم بلامبالاة واضحة، لكنه كان واعياً بالزمن الذي يعيش فيه. في ذلك العقد من الزمن، حين غشيت وجوه الكثير من الرجال خشونة وكآبة أزليتان، كأنهم ينظرون إلى الهاوية، رأى ويليام ستونر، الذي اعتاد هذا التعبير كما اعتاد الهواء الذي يتنفسه، دلالات اليأس العام الذي عرفه منذ كان صبياً. رأى رجالاً صالحين يهوون ببطء ويأس، منكسرين كما انكسر تصورهم عن الحياة الكريمة، يسيرون

---

(١) WPA اختصار لإدارة مشروعات العمل

على غير هدى في الشوارع، عيونهم خاوية كشظايا زجاج مكسور، يقفون على الأبواب الخلفية بالكبرياء المهزوم لرجال يُساقون إلى منصة إعدامهم، ويتوسلون كسرات خبز لتعينهم على مواصلة التسول، ورأى رجالاً، ساروا ذات مرة منتصبي القامة بهوياتهم الخاصة، ينظرون إليه بكره وحقد لما يتمتع به من أمان شحيح كموظف ثابت في مؤسسة لا تذوق الفشل بطريقة أو بأخرى. لم يعبر عن تلك الرؤى بأصوات، لكن رؤية البؤس العام لمسته وغيرته بطرق دفينة تستعصي رؤيتها على الملأ، ولم يكن الحزن الهادئ إزاء المحنة العامة ببعيد أبداً عن أي لحظة من حياته.

كان واعياً أيضاً بالتقلبات التي تشهدها أوروبا ككابوس ناءٍ. وفي حزيران ١٩٣٦، حين تمرد فرانكو على الحكومة الإسبانية، وأشعل هتلر من ذلك التمرد حرباً كبرى، أصيب ستونر، مثله مثل الكثيرين غيره، بالغثيان لرؤية ذاك الكابوس الذي خرج من عالم الحلم إلى العالم الحقيقي. حين بدأ الفصل الدراسي الخريفي في ذاك العام، لم يكن المعيدون الشباب يتحدثون عن شيء غيره إلا فيما ندر، أعرب العديد منهم عن رغبتهم في الانضمام لوحدة التطوع والقتال في جيوش الحلفاء أو قيادة سيارات الإسعاف، وبنهاية الفصل الدراسي الأول كان القليل منهم قد اتخذ تلك الخطوة بالفعل وتقدموا باستقالات متعجلة. فكر ستونر في ديف ماسترس، وشعر بالفقدان القديم يتجدد بكثافة. وفكر أيضاً في أرشر سلوان وتذكر الألم الممضي البطيء الذي كسا وجهه الساخر منذ عشرين سنة تقريباً، واليأس الذي التهم روحه الصلبة ومزقها.. وفكر أنه يعرف الآن، إلى حد ما، ذلك الشعور بالضياع الذي أحكم قبضته على سلوان. تنبأ ستونر بالسنوات الممتدة القادمة، وعلم أن الأسوأ لم يأتِ بعد.

ومثل آرشر سلوان، أدرك ستونر عبثية وبطلان أن يُلزم المرء نفسه

كليةً بالقوى الظلامية الصماء التي تسوق العالم إلى نهاية مجهولة. وعلى النقيض منه، نأى ستونر بنفسه قليلاً عن كل ذلك ليسمح بمساحة من الحب والعطف، لئلا ينجرف مع الجيشان الذي كان يراقبه. وكما يفعل دائماً في الأزمات ولحظات اليأس، راح يجدد إيمانه الحذر المتجسد في مؤسسة الجامعة، قال لنفسه إن هذا ليس بالكثير، لكنه كان يعرف أنه كل ما لديه.

في صيف ١٩٣٧، شعر بشغفه القديم بالدراسة والتدريس يتجدد، وبالحماسة الغريبة والروحانية لطالب العلم التي ليست بحال الشباب ولا الشيوخ. عاد إلى حياة الوحدة التي لم يخب أمله فيها قط. واكتشف أنه لم يبتعد كثيًرا عن تلك الحياة حتى في أوقات قنوطه.

كان جدول محاضراته في ذاك الخريف سيئاً جدًا. يدرس أربع محاضرات لطلبة السنة الأولى في ساعات تفصل بينها فترات طويلة، لمدة ستة أيام في الأسبوع. لم يفشل لوماكس، ولو لمرة واحدة، طوال فترة رئاسته للقسم، في منح ستونر جدول محاضرات مرهق، حتى إن أحدث المعيدين كان ليتقبله كارهاً.

في الصباح الباكر لأول يوم من ذاك العام الدراسي، جلس ستونر في مكتبه ينظر مجددًا في جدوله المطبوع بأناقة. كان قد سهر لوقت متأخر من الليل يقرأ دراسة جديدة عن بقاء تراث القرون الوسطى خلال عصر النهضة، وبقي معه الحماس الذي شعر به حتى الصباح. نظر في جدوله وغضب بليد ينمو بداخله. حدق في الجدار المقابل له لعدة دقائق، ثم نظر نظرة سريعة في جدوله مرة أخرى، وأومأ لنفسه. ألقى بالجدول وبالمنهج الملحق به في سلة المهملات وسار إلى خزانة ملفاته القابعة في ركن من الغرفة. سحب الدرج العلوي، نظر بشرود في الملفات البنية بداخله وسحب أحدها. قلب الأوراق

التي بداخله، وهو يصفر بهدوء، ثم أغلق الدرج وخرج من غرفة مكتبه والملف تحت إبطه، وعبر الحرم متوجهاً إلى أولى محاضراته. كان المبنى قديماً، بأرضيات خشبية، ويستخدم للدراسة فقط في حالات الطوارئ، والغرفة التي خُصصت له صغيرة للغاية على عدد الطلبة، فاضطر عدد من الطلبة الذكور إلى الوقوف أو الجلوس على أفاريز النوافذ. حين دخل ستونر، نظروا إليه بقلق وحيرة، فقد يكون عدو أو صديق، وهم لا يعرفون أيهما أسوأ.

أعتذر للطلبة عن حال الغرفة، وأطلق نكتة صغيرة على مكتب التسجيل، وأكد للواقفين منهم أنهم سيحظون غداً بمقاعد. ثم وضع ملفه على المقرأة الرثة الموضوعة بغير استواء على مكتبه، ونظر في الوجوه أمامه.

تردد للحظة. ثم قال: «على الذين قاموا بالفعل بشراء كتب هذه المادة أن يعيدوها لمتجر الكتب ويستعيدوا ثمنها. لأننا لن ندرس الكتب الواردة في المنهج الذي، على ما أظن، تم تسليمه لكم وقت التسجيل. ولن ندرس المنهج أيضاً. فقد عزمت على اتخاذ مقاربة مختلفة لتدريس المادة، مقاربة تتطلب منكم شراء كتابين آخرين».

أدار ظهره للطلبة وأمسك بقطعة طباشير من مجرى السبورة المخدوشة، أمسك بقطعة الطبشور ووقف في وضع الاستعداد لدقيقة يستمع لهمس الطلبة وهمهمة وهم يستقرون على مقاعدهم، ويتعاملون مع الروتين الذي صار فجأة مألوفاً لديهم.

قال ستونر: «الكتابان هما..» ـ ولفظ الكلمات ببطء وهو يخطها على السبورة ـ «.. الشعر والنثر الإنجليزي في القرون الوسطى، تأليف لوميس وويلارد، والنقد الأدبي الإنجليزي: مرحلة القرون الوسطى،

بقلم جي. دبليو. أتش. أتكينز». ثم استدار للطلبة. «ستجدون أن متجر الكتب لم يتلقَ بعد هذين الكتابين.. قد يستغرق الأمر حوالي أسبوعين قبل أن تتوافر لديه. في هذه الأثناء سأعطيكم بعض المعلومات المرجعية حول موضوع المادة والغرض من دراستها، وسيكون عليّ أن أشغلكم ببعض المهام والفروض الدراسية».

ثم سكت، كان الكثير من الطلبة منكبين على مكاتبهم، يسجلون ما يقوله بتركيز، والقليل منهم ينظرون إليه بثبات، وبابتسامات خفيفة ترغب في الظهور بمظهر الذكاء والفهم، وقليل منهم ينظرون إليه بأفواه مشدوهة.

«ستجدون الموضوع الأساسي لهذه المادة في مختارات لوميز وويلارد، وسندرس نماذج من الشعر والنثر الإنجليزي لأغراض ثلاثة؛ أولاً: كأعمال أدبية هامة في حد ذاتها، ثانياً: كمظاهر لبدايات الأسلوب الأدبي في التراث الإنجليزي، وثالثاً: كحلول بلاغية ونحوية لإشكاليات البحث التي قد يكون لها حتى اليوم بعض القيمة والتطبيقات العملية».

عندئذ كان جميع الطلبة تقريباً قد توقفوا عن تسجيل الملحوظات ورفعوا رؤوسهم، حتى الابتسامات الذكية قد تحولت إلى انطباعات تافهة متكلفة، وكانت أيادٍ قليلة تلوح في الهواء. أشار ستونر إلى أحدهم كان يرفع يده عالياً بثبات، شاب طويل بشعر داكن ونظارتين داكنتين.

«سيدي، هل هذه محاضرة الأدب الإنجليزي السنة الأولى، القسم ٤؟»

ابتسم ستونر له وسأله: «ما اسمك من فضلك؟»

ابتلع الشاب ريقه وقال: «جيسيب سيدي، فرانك جيسيب».

أومأ ستونر قائلاً: «سيد جيسيب. نعم، يا سيد جيسيب، هذه محاضرة الأدب الانجليزي السنة الأولى، القسم ٤، وأنا اسمي ستونر، وتلك الحقائق كان عليّ بالطبع أن أذكرها في بداية المحاضرة. هل لديك سؤال آخر؟»

ابتلع الشاب ريقه ثانيةً وقال: «لا يا سيدي».

أومأ ستونر ونظر بعطف في أرجاء الغرفة وسأل: «هل لدى أحد سؤالاً آخر؟»

حدقت فيه الوجوه، بلا ابتسامات، أفواه قليلة مشدوهة.

قال ستونر: «حسنًا. سأواصل إذاً. كما قلت في بداية المحاضرة، إن أحد أغراض هذه المادة هو دراسة أعمال أدبية معينة في الفترة ما بين القرن الثاني عشر والخامس عشر. ستقابلنا حوادث تاريخية معينة، وسنواجه بعض الصعوبات اللغوية والفلسفية، والاجتماعية والدينية، وكذلك النظرية والعملية. حقاً، بطريقة ما، سيقف تعليمنا القديم في طريقنا، لأن عاداتنا الفكرية وطبيعة خبرتنا قد شكلت توقعاتنا بنفس القدر من الرجعية الذي شكلت به عادات مواطني القرون الوسطى على طرق تفكيرهم. كمقدمة، دعونا نستكشف بعض تلك العادات الفكرية التي امتلكها مواطنو القرون الوسطى وفكروا بها وكتبوها...»

في تلك المحاضرة الأولى لم يستبقِ الطلبة لفترة الساعة كاملة. إذ ختم نقاشه المبدئي بعد أقل من نصف ساعة وأعطاهم فرضهم الأسبوعي.

«أود من كل واحد منكم أن يكتب مقالاً موجزاً، لا يزيد عن ثلاث صفحات عن مفهوم أرسطو للتوبوي، أو بترجمته الحرفية للإنجليزية، الموضوع. ستجدون شرحاً مطولاً «للموضوع» في الكتاب الثاني في

البلاغة لأرسطو، وفي نسخة لين كوبر ثمة مقالة افتتاحية ستجدونها مفيدة للغاية. آخر موعد لتقديم المقالات يوم الاثنين. وهذا، على ما أظن، هو كل شيء اليوم».

للحظة، بعد أن أذن لهم بالانصراف، ظل يحدق فيهم وهم ثابتون، ببعض القلق. ثم أومأ لهم بسرعة وخرج من الغرفة، وملفه البني تحت إبطه.

قدّم أقل من نصف الطلبة مقالاتهم يوم الاثنين، أذن لهؤلاء بالانصراف، وقضى بقية وقت المحاضرة مع من تبقى من الطلبة يعيد شرح الموضوع الذي طلبه منهم مرارًا وتكرارًا حتى تأكد أنهم فهموا وإنهم سيستكملون المقال المطلوب يوم الأربعاء.

يوم الثلاثاء، لاحظ وهو يمر بأروقة مبنى الجيسي هول، وقوف تجمع من الطلبة خارج مكتب لوماكس، عرفهم لأنهم طلاب محاضرته الأولى. مر بهم فأدار بعضهم ظهورهم له أو رفعوا نظرهم إلى السقف أو حدقوا في باب مكتب لوماكس. ابتسم لنفسه وذهب إلى مكتبه ينتظر المكالمة الهاتفية التي كان يعرف أنها ستصله.

جاءته المكالمة في الساعة الثانية بعد الظهر. رفع سماعة الهاتف، أجاب على المتصل، واستمع لصوت سكرتيرة لوماكس الجليدي المؤدب: «بروفيسور ستونر؟ بروفيسور لوماكس يرغب في أن تقابل بروفيسور إرارديت اليوم، بأسرع ما يمكن. بروفيسور إرارديت سيكون في انتظارك».

سأل لوماكس: «هل سيكون لوماكس هناك؟»

كان ثمة صمت مصدوم ثم قال الصوت بحيرة: «لا.. لا أعتقد، هذا

موعد مسبق. لكن بروفيسور إرارديت يتمتع بسلطة الـ..»

«أخبري لوماكس أن عليه أن يكون هناك. أخبريه أنني سأكون في مكتب إرارديت خلال عشر دقائق».

كان جويل إرارديت شاب أصلع في بداية الثلاثينيات، أحضره لوماكس إلى القسم قبل ثلاث سنوات، وحين اتضح أنه شاب بشوش وجاد بلا موهبة واضحة، وخاصة في التدريس، عهد إليه بمسؤولية برنامج الإنجليزي لطلبة السنة الأولى. كان مكتبه في ركن صغير في الطرف القصيّ للمكتب المشترك الكبير حيث مكاتب حوالي نيف وعشرين معيداً، سار ستونر بطول الغرفة ليصل إليه، وفيما يمر بين المكاتب رفع بعض المعيدين أنظارهم إليه، وابتسموا، مراقبين تقدمه عبر الغرفة. فتح ستونر الباب دون أن يطرقه، دخل المكتب، وجلس على الكرسي المقابل لمكتب إرارديت. لم يكن لوماكس هناك.

سأل ستونر إرارديت: «رغبت في رؤيتي؟»

كان لإرارديت بشرة ناعمة للغاية، فاحمرّ وجهه قليلاً، وثبّت ابتسامة على وجهه قائلاً بحماس: «يسعدني مرورك بي يا بيل». وعبث قليلاً بعود ثقاب محاولاً إشعال غليونه الذي لم يشتعل جيداً، فقال بكآبة: «يا للرطوبة اللعينة التي تجعل التبغ مبللا جداً».

«أرى أن لوماكس لن يحضر».

قال إرارديت وهو يضع الغليون على مكتبه: «لا، مع ذلك فهو الذي طلب مني أن أتحدث معك، هكذا على نحو ما». وضحك بعصبية «اعتبرني الآن الفتى المرسول».

سأل ستونر بخشونة: «وما الرسالة التي طلب منك توصيلها؟»

«حسناً، كما فهمت الأمر، توجد شكاوى قليلة من الطلبة ـ كما تعرف...» وهز رأسه بعطف: «يبدو أن بعضهم يظن أن.. حسناً.. يبدو أنهم لا يفهمون حقاً ما يدور في محاضرة الساعة الثامنة صباحاً التي تدرسها. وقد ظن بروفيسور لوماكس أن.. في الحقيقة، أعتقد أنه يتساءل بشأن منطقك في تناول مشكلات الإنشاء لدى طلبة السنة الأولى من خلال دراسة الـ..»

«لغة القرون الوسطى وأدبها».

«نعم. في الحقيقة، أظن أنني أفهم ما تحاول فعله. أن تصدمهم قليلاً، لتهز أذهانهم، تجريب مقاربة جديدة، لتجعلهم يفكروا. صحيح؟»

أومأ ستونر بجهامة: «لقد دار قدر كبير للغاية من الحديث في اجتماعات مواد الإنشاء لطلبة السنة الأولى بشأن تطبيق طرق جديدة. التجريب».

«بالضبط، لا أحد يهتم بالتجريب أكثر مني. ولكن ربما أحياناً، انطلاقاً من أفضل الدوافع، ينجرف المرء مع التيار إلى حدود بعيدة للغاية». ضحك وهز رأسه. «بالتأكيد أتفهم هذا، سأكون أول من يعترف بهذا. ولكنني.. أو بروفيسور لوماكس بالأحرى.. حسناً، ربما نوع من الحل الوسط، بعض العودة الجزئية للمنهج المقرر، مثل استخدام الكتب المنصوص عليها. أنت تفهم».

زم ستونر شفتيه ورفع نظره للسقف، مريحاً مرفقيه على ذراعي الكرسي، شبك أطراف أصابعه معاً وأراح ذقنه على طرفي إبهاميه. ثم قال أخيراً وبحزم: «لا، لا أعتقد أن التجريب قد حظي بفرصة معقولة. أخبر لوماكس أنني أنوي أن أستكمل منهجي حتى نهاية الفصل الدراسي. هل يمكنك توصيل ذلك نيابة عني؟»

صار وجه إرارديت أحمر، وقال بضيق: «سأفعل. لكنني أتخيل.. أنا واثق من أن بروفيسور لوماكس سيكون محبطاً للغاية. محبطاً للغاية فعلاً».

قال ستونر: «أوه. في البداية سيكون كذلك بالفعل، لكنه سيتجاوز هذا. أنا واثق أن بروفيسور لوماكس لن يتدخل في طريقة تدريس أستاذ كبير لمحاضراته. قد يعترض على آراء الأستاذ، لكنه سيكون من غير الأخلاقي أبدًا أن يحاول فرض رأيه الخاص. وهذا بالتبعية سيكون أيضاً حادثاً جللاً. ألا توافقني؟»

التقط إرارديت غليونه، قبض على قصعته بشدة، وحدق فيه بغيظ وقال: «سأخبر بروفيسور لوماكس بقرارك».

قال ستونر: «ممنون للغاية». ثم نهض عن كرسيه، وسار نحو الباب، لكنه توقف كأنه تذكر شيئًا ما واستدار لإراراديت قائلاً بتلقائية: «أوه، شيء ما آخر. كنت أفكر بشأن الفصل الدراسي القادم، إن نجح تجريبي الحالي فقد أجرب شيئًا ما آخر في الفصل الدراسي القادم. كنت أفكر في إمكانية تناول بعض مشكلات الإنشاء بالبحث في أثر التراث اللاتيني الكلاسيكي وتراث القرون الوسطى في بعض مسرحيات شكسبير. قد يبدو الأمر متخصصاً قليلاً، لكنني أظن أن بإمكاني تطويعه على المستوى العملي. يمكنك أن تخبر لوماكس بفكرتي الصغيرة هذه ـ أخبره أن يقلبها في ذهنه، ربما يمكننا خلال أسابيع قليلة أن..»

تضاءل إراراديت في كرسيه. أسقط غليونه من يده على سطح المكتب وقال بضجر: «وهو كذلك يا بيل، سأخبره. سأفعل، شكرًا لمرورك بي».

أومأ ستونر. فتح الباب، خرج، أغلقه بحرص خلفه، وسار عبر الغرفة الطويلة. حين نظر إليه أحد المعيدين باستفسار غمز له ستونر

بشكل ملحوظ وهو يومئ برأسه، وأخيراً، ترك الابتسامة تتغلب على وجهه.

ذهب إلى غرفته، جلس إلى مكتبه وانتظر معلقاً عينيه بالباب المفتوح. بعد دقائق قليلة سمع صوت باب يصطفق في نهاية الممر، ثم صوت الخطوات غير المستوية، ورأى لوماكس يمر بمكتبه بالسرعة التي يسمح بها عرجه.

لم يحرك ستونر ساكناً. بعد حوالي نصف ساعة، سمع صوت ارتقاء لوماكس البطيء لدرجات السلم ورآه يمر مجدداً بمكتبه. انتظر حتى سمع صوت انغلاق باب مكتبه بالأسفل، ثم أومأ لنفسه. نهض، وعاد إلى البيت.

بعد عدة أسابيع، عرف ستونر من جوردون فينش ما حدث ذلك اليوم حين اندفع لوماكس كالعاصفة إلى مكتب فينش. اشتكى لوماكس بمرارة من سلوك ستونر، ووصف له كيف يدرس ستونر طلبة السنة الأولى ما يدرسه هو من أدب القرون الوسطى لطلبة السنة الأخيرة، وطالب فينش باتخاذ إجراء تأديبي. ساد الصمت لدقيقة، قبل أن يبدأ فينش في قول شيء ما لكنه بدلاً من ذلك انفجر ضاحكاً. ضحك لفترة طويلة، وكان كلما حاول أن يقول شيء يغلبه الضحك مرة أخرى، ثم هدأ أخيراً واعتذر للوماكس بشأن ضحكه وقال: «لقد غلبك يا هولي، ألا ترى ذلك؟ لن يترك الأمر، ولن يسعك فعل شيء إزاءه. أتريدني أنا أن أقوم بمهمتك؟ كيف سيبدو هذا في رأيك؟ عميد يتدخل في طريقة تدريس أستاذ كبير لمحاضراته، وأن أتدخل بناءً على شكوى من رئيس القسم نفسه؟ لا يا سيدي، اهتم بهذا الشأن بنفسك، بكل ما أوتيت من سبل. لكنك لا تتمتع بخيارات كثيرة حقاً، أليس كذلك؟»

بعد أسبوعين من تلك المحادثة، تلقى ستونر مذكرة من مكتب لوماكس تخطره بتغيير في جدوله في الفصل الدراسي القادم، سيقوم بتدريس حلقته الدراسية القديمة لطلبة الدراسات العليا حول التراث اللاتيني وأدب النهضة، ومنهج الأدب الإنجليزي واللغة في القرون الوسطى لطلبة السنة الأخيرة والدراسات العليا، ومادة الأدب الإنجليزي لطلبة السنة الدراسية الثانية، ومحاضرة واحدة في الإنشاء لطلبة السنة الدراسية الأولى.

كان ذلك نصرًا إلى حد ما، لكنه نصر ظل ستونر ينظر إليه دائماً بازدراء، كأنه أحرزه من باب الضجر واللامبالاة.

VX

باتت تلك إحدى الأساطير التي بدأت تلتصق باسمه، أساطير راحت تنمو تفاصيلها وصياغاتها عامًا بعد آخر، تتطور كالخرافات من حقائق شخصية إلى واقع طقوسي.

في أواخر أربعينياته بدا أكبر سناً بكثير. صار شعره الكث الحرون، كما كان في شبابه، أبيض بكامله تقريباً. تغضن وجهه عميقاً وغارت عيناه في محجريهما، وكان الصمم الذي أصابه عقب الصيف الذي أنهى فيه علاقته بكاثرين دريسكول يسوء عامًا بعد آخر، فكان حين يحاول سماع شخص ما يميل برأسه جانباً وتفعم عيناه بالانتباه، بدا كمن يتأمل من بعيد في أجناس غير معروفة لم يستطع تصنيفها أبداً.

كان لذلك الصمم طبيعة غريبة. إذ كان، بالرغم من عدم استطاعته سماع أحد ما يتحدث إليه مباشرة، بمقدوره، مع ذلك، سماع همهمة محادثة بعيدة، في غرفة تعج بالضجة، بوضوح تام. وكانت خدعة الصمم تلك ما أعانته على أن يعرف تدريجياً إنه يُعد، بالمصطلح الذي كان سائداً أيام شبابه، «إحدى شخصيات الحرم الجامعي».

وهكذا نما إلى سمعه، مرارًا وتكرارًا، حكاية تدريسه أدب القرون الوسطى لمجموعة من طلبة السنة الدراسية الأولى رغم أنف هوليس لوماكس بمبالغة شديدة. «وحين اجتاز طلبة السنة الأولى السبعة وثلاثون امتحانهم الأول في الأدب الإنجليزي، أتعرف أي مجموعة حظيت بأعلى الدرجات؟» سأل أحد المعيدون الشباب المعارضون

الذي كان يدرس الأدب الإنجليزي لطلبة السنة الأولى، «بالطبع مجموعة ستونر العجوز التي درست أدب القرون الوسطى. وما زلنا نستخدم تمريناته وملازمه تلك!»

اضطر ستونر للإقرار بأنه صار في عيون المعيدين الشباب والطلبة القدامى، الذين كانوا يروحون ويغدون قبل أن تلتصق أسماءهم بوجوههم في ذهنه، شخصية أسطورية تقريباً، مهما اختلفت وتنوعت ملامح تلك الشخصية.

كان تارة الشرير: الذي قام في النسخة التي تروي النزاع الطويل بينه وبين لوماكس، بإغواء طالبة دراسات عليا شابة كان لوماكس يحبها حبًا صادقًا، ثم نبذها ستونر وهجرها. وتارة أخرى الأحمق: في نسخة أخرى من رواية النزاع نفسه، رفض أن يتحدث مع لوماكس لأن الأخير قد أبى ذات مرة أن يكتب خطاب توصية لإحدى طالبات الدراسات العليا لدى ستونر. وتارة أخرى البطل: في النسخة الأخيرة وغير المقبولة أحياناً، اضطهده لوماكس وجمّده في منصبه لأنه رأى ذات مرة لوماكس وهو يعطي أحد طلبته المفضلين لديه نسخة من الامتحان النهائي في إحدى المواد التي يدرسها ستونر.

كانت الأسطورة تتضح مع ذلك بسلوكه في قاعة المحاضرات الذي صار أكثر شرودًا عام بعد آخر، وأكثر تركيزاً مع ذلك. كان يبدأ دروسه ومناقشاته بعبثية وارتباك في البداية، ثم سرعان ما يستغرق تماماً في موضوعه حتى ليبدو غير واعٍ بأي أحد أو أي شيء حوله. تقرر ذات مرة عقد مؤتمر لمجلس الأمناء ورئيس الجامعة في القاعة التي يعقد فيها ستونر حلقته الدراسية عن التراث اللاتيني، وقد تم إخطاره بالاجتماع، لكنه نسي بشأنه وعقد حلقته الدراسية في موعدها ومكانها المعتادين. بعد مرور نصف الوقت صدر طرق خجول على

الباب، لم يلحظه ستونر لانهماكه في ترجمة قطعة لاتينية بشكل ارتجالي. انفتح الباب بعد دقائق قليلة، ودخل على أطراف أصابعه رجل قصير وسمين، في منتصف العمر، بنظارة بلا إطار، وربت على كتف ستونر بخفة. أشاح ستونر بيده دون أن يرفع بصره عما يقرأه. كان ثمة آخرين يقفون بالخارج ويتهامسون. واصل ستونر ترجمته. ثم دخل أربعة رجال، بقيادة رئيس الجامعة، رجل سمين طويل بصدر مهيب ووجه متورد، يخبّون ككتيبة، وتوقفوا إلى جانب مكتب ستونر. قطب الرئيس حاجبيه وسعل بصوت عالٍ. رفع ستونر بصره دون أن يتوقف عن ترجمته الفورية، بل وقرأ السطر التالي من القصيدة، ببرود، على مسامع الرئيس وحاشيته: «هيهات، هيهات، أيها الغيلان المتوحشون أولاد الزنا!» وعاد بنظره دون أن يقطع ترجمته إلى كتابه، فيما شهق الرجال وتعثروا وهم يتراجعون للوراء، ويندفعون خارج الغرفة.

نمت الأسطورة متغذية على مثل تلك الحوادث، حتى باتت العديد من الحكايات التي تضفي معنى على كافة أنشطة ستونر المماثلة تقريباً، وامتدت حتى وصلت لحياته خارج الجامعة. حتى إديث لم تنجُ من مثل هذه الأعمال. كانت نادراً ما تظهر معه في أنشطة الجامعة، حتى صارت كائنًا غامضًا وضعيفًا، يقفز في الخيال الجمعي كشبح: كانت تشرب الخمر سراً بسبب بؤس ما غامض وبعيد، أو تحتضر ببطء بسبب مرض ما مزمن ومميت، أو أنها فنانة ذكية وموهوبة تخلت عن مستقبلها المهني من أجل ستونر. كانت ابتسامتها في المحافل العامة تبرق في وجهها النحيف بسرعة وعصبية، وتتألق عيناها بزهو، وتتحدث بإيجاز واقتضاب، حتى إن الجميع كانوا واثقين من وجود حقيقة ما تختفي وراء ذلك القناع، وأن روحها الحقيقية تختفي خلف هذا المظهر الزائف الذي لا يصدقه أحد.

بعد مرضه، ومن باب اللامبالاة التي صارت أسلوب حياته، صار

ويليام ستونر يقضي المزيد من وقته في المنزل الذي اشتراه هو وإديث منذ سنوات مضت. في البدء، كانت إديث ترتبك بشدة في حضوره حتى لتصمت وكأنها محتارة بشأن ما. ثم حين تأكدت يومًا بعد يوم، وليلة بعد ليلة، وعطلة بعد أخرى أن حضوره هذا دائم ولا رجعة فيه، أشعلت حربًا قديمة بزخم جديد. كانت تبكي بحرارة لأتفه الأشياء، وتروح وتجيء في أرجاء المنزل، فكان ينظر إليها ببرود ويتمتم ببعض كلمات المواساة بذهن شارد. كانت تغلق باب غرفتها عليها لساعات، فكان ستونر يحضر الوجبات التي كان عليها تحضيرها، ويبدو عليه، حين تخرج من غرفتها شاحبة بعينين ووجنتين غائرتين، أنه لم يلحظ غيابها. كانت تسخر منه في كل مناسبة، فيتظاهر بأنه لا يسمعها، تصرخ ملقية عليه اللعنات، فيستمع إليها باهتمام مهذب. تختار الأوقات التي تراه فيها مستغرقًا في كتاب لتدخل غرفة الجلوس وتخبط بأصابع متجمدة على مفاتيح البيانو التي كانت نادرًا ما تستخدمه، وحين كان يتحدث بهدوء مع ابنته كانت تأتي لتنفجر غاضبة في أيهما أو كليهما. وكان ستونر ينظر إلى كل هذا- الغضب والشجن والصراخ والنفور الصامت- كأنه يحدث لاثنين آخرين غيرهما، لا يبالي بها إلا متظاهرًا.

في نهاية المطاف، استسلمت إديث وأقرت بهزيمتها، بضجر وشبه امتنان. انخفضت حدة فورات الغضب حتى تساوت مع سطحية اهتمامه بها، وتحولت فترات الصمت الطويلة إلى انسحابات خاصة لم يعد ستونر يتساءل بشأنها، بدلاً من الإهانات على الموقف اللامبالي.

في عامها الأربعين كانت إديث ستونر نحيفة كما كانت وهي فتاة، وإنما بخشونة وجفاف سببهما حِمل لا يتزعزع جعل كل حركة من حركاتها تبدو وكأنها تأتي بها كرهاً أو حقداً. زاد نتوء عظام وجهها حدةً، واشتد جلدها الشاحب على جسدها كأنه مشدود إلى إطار، فكانت تجاعيده متوترة وحادة. كانت شاحبة للغاية وتستخدم قدرًا كبيرًا من المساحيق

على نحو بدت معه كأنها تقوم يومياً بإخفاء ملامحها تحت قناع مسطح. بدت يداها تحت جلدهما الجاف كأنهما من عظام فقط، وكانت تحركهما بلا انقطاع، تلويهما، وتنقرهما، وتطبقهما حتى في أكثر لحظاتها هدوءًا.

منعزلة دائماً، صارت في سنوات منتصف عمرها تلك بعيدة وشاردة. بعد الفترة الموجزة لهجومها الأخير على ستونر، التي ختمتها بزخم متأجج ويائس، دخلت كالشبح في خصوصية نفسها، حيث لم تعد من هناك أبداً. بدأت تتحدث مع نفسها، بتلك العقلانية الناعمة التي يستخدمها المرء في حديثه مع طفل، كانت تفعل ذلك علانية وبلا وعي، وكأنه أكثر شيء طبيعي تفعله. من بين كل المناورات الفنية المتناثرة التي كانت تشغل نفسها بها على نحو متقطع خلال سنوات زواجها، استقرت أخيراً على النحت بوصفه أكثر ألوان الفنون «إرضاءً». كانت تعمل بالصلصال غالباً، مع ذلك كانت أحياناً ما تأتي بأحجار ناعمة. تناثرت في المنزل تماثيل نصفية وأخرى كاملة وتكوينات شتى. كانت عصرية للغاية: فكانت التماثيل النصفية التي تنحتها مجرد أجسام كروية بأقل قدر من الملامح، وتلك الكاملة مجرد كتل من الطين بزوائد ممتدة، وكانت التكوينات مجرد تجمعات هندسية عشوائية من مكعبات وكرات وقضبان. كان ستونر يتوقف أحياناً وهو يمر بمرسمها- مكتبه فيما مضى- ويستمع لعملها، إذ كانت تلقى على نفسها التوجيهات كما قد تفعل مع طفل: «الآن، ضعي ذلك هنا، ليس الكثير، هنا، إلى جانب التجويف الصغير. أوه، أنظري، إنه يسقط منه. لم يُبلل بما يكفي، أليس كذلك؟ حسناً، يمكننا إصلاح هذا، أليس كذلك؟ القليل من الماء فقط، و.. ها هو، أرأيتِ؟»

اعتادت أن تتحدث مع زوجها وابنتها بضمير الغائب، كأنهما شخصان آخران غير اللذين تتحدث معهما. فتقول لستونر مثلاً: «الأجدر أن ينهي ويلي قهوته، الساعة اقتربت من التاسعة، ولا يريد أن

يتأخر على محاضرته». أو تقول لابنتها: «جريس لا تتدرب على البيانو بما يكفي، ساعة يومياً على الأقل، يجب أن تتدرب ساعتين وإلا ماذا سيحدث لتلك الموهبة؟ يا للعار، يا للأسف!»

لم يعرف ستونر ما يعنيه هذا الانسحاب بالنسبة لجريس، إذ صارت، بطريقتها الخاصة، منعزلة ونائية بنفسها تماماً كأمها. اعتادت الصمت، مع احتفاظها بابتسامة خجولة وناعمة لأبيها، لكنها لم تكن تتحدث معه. كانت أثناء الصيف الذي سقط فيه مريضاً، حين لا تكون تحت رقابة، تتسلل إلى غرفته الصغيرة وترقد بجانبه وتنظر معه خارج النافذة، راضية تماماً بوجودها معه فقط، لكن حتى حينها كانت صامتة، وكانت محاولاته في الحديث معها تقلقها.

في صيف مرضه ذاك كانت في الثانية عشرة من عمرها، فتاة طويلة نحيفة بوجه رقيق وشعر أشقر أكثر منه أحمر. في الخريف، أثناء الهجمة العنيفة الأخيرة لإديث على زوجها وزواجها ونفسها وما تظن أنها آلت إليه، كانت جريس قد صارت ساكنة تماماً، كأنها شعرت أن أدنى حركة قد تودي بها إلى السقوط في هاوية لن تستطيع الخروج منها أبداً. قررت إديث في أعقاب أعمال العنف تلك، بذلك التهور الواثق الذي كان عادتها دوماً، أن جريس هادئة لأنها تعيسة، وأنها تعيسة لأنها لم تكن محبوبة من صديقاتها في المدرسة. فحولت عنف هجومها المنحسر على ستونر إلى هجوم على «اجتماعيات» جريس. صار لديها «اهتمام» مجدداً، فكانت تكسو ابنتها بملابس زاهية من أحدث طراز كانت من كثرة كشكشاتها تجعل الفتاة تبدو أكثر نحافة مما هي عليه، وكانت تقيم الحفلات وتعزف على البيانو وتصر ببهجة على أن يرقص الجميع، وتعسف جريس لتجعلها تبتسم في وجه الجميع، ولتجعلها تتحدث وتلقي النكات وتضحك.

استمرت تلك الهجمة الأخيرة لأقل من شهر، قبل أن تنهي إديث حملتها وتبدأ رحلتها الطويلة البطيئة إلى حيث لا تدري. لكن عواقب الهجوم على جريس لم تكن بالهينة ولا بالمحتملة.

بعد ذلك الهجوم، كانت جريس تقضي معظم أوقات فراغها تقريباً وحدها في غرفتها، تستمع إلى المذياع الصغير الذي أهداها والدها إياه في عيد ميلادها الحادي عشر. ترقد بلا حراك على فراشها غير المرتب، أو تجلس بلا حراك إلى مكتبها تستمتع إلى الأصوات التي تتردد بخفوت من الجهاز القميء القابع على الطاولة المجاورة لفراشها، كأن الأصوات والموسيقا والضحكات التي تسمعها هي كل ما تبقى من هويتها، وكأن حتى كل هذا كان يغيب ببطء في طيات الصمت، بعيداً عن ذاكرتها.

وصارت بدينة. زادت بين ذاك الشتاء وعيد ميلادها الثالث عشر حوالي خمسين رطلاً، صار وجهها منتفخ وجاف مثل العجين المتخمر، وصارت أطرافها ناعمة وبطيئة وخرقاء. كانت تأكل أقل قليلاً مما سبق، لكنها أغرمت بالحلوى، فكانت تحتفظ بعلبة حلوى في غرفتها دائماً، بدا الأمر كأن شيئًا ما بداخلها قد انفك وانحل وامتلأ باليأس. وكأن شيئًا عديم الشكل بداخلها قد تحرر أخيراً بعد معاناة، وقد أقنع لحمها الآن بأن يحدد ذلك الكيان الظلامي السري.

راقب ستونر هذا التحول بحزن أخفاه خلف الوجه اللامبالي الذي يصدّره للعالم. لم يسمح لنفسه برفاهية الشعور بالذنب، فمع طبيعته وظروف حياته مع إديث، لم يكن بيده شيء ليفعله، ما زاد من حدة حزنه على نحو لم يكن أي ذنب ليفعله، وجعل حبه لابنته يزداد عمقاً وحيرة.

كانت جريس ـ كما عرف، وكما كان يعرف منذ وقت مبكر جداً، كما

يظن ـ واحدة من هؤلاء البشر النادرين والرائعين دائماً، الذين يتمتعون بطبيعة أخلاقية هشة للغاية، ينبغي رعايتها والعناية بها لتنمو على نحو سليم. طبيعة غريبة على العالم، كان يجب أن تعيش بعيدًا عن المنزل، وكانت رغم توقها إلى العطف والهدوء، يجب أن تتغذى على اللامبالاة والصلابة والضجيج. كانت، حتى في المكان الغريب والعدواني الذي تعيش فيه، لا تتمتع بالوحشية اللازمة لتقاتل قوى القسوة تلك التي تعاديها، وليس في وسعها أمامها سوى أن تنسحب إلى مكان هادئ حيث يمكنها أن تكون بائسة، وصغيرة، وساكنة برقة.

في السابعة عشرة من عمرها حدث لها تحول آخر، خلال الفصل الأول من العام النهائي بالمدرسة الثانوية. بدا الأمر كأن طبيعتها قد وجدت مخبأها، فصار بوسعها أخيراً تقديم مظهر ما للعالم. بحدوث هذا التغيير سرعان ما فقدت الوزن الذي اكتسبته في الثلاث سنوات الأخيرة، وبدت لمن يعرفونها كأن تعويذة سحرية قد ألقيت عليها، وكأنها انبثقت من شرنقتها إلى جو صُمم لها وحدها. كانت جميلة تقريباً، صار جسدها الذي كان نحيفًا للغاية ثم فجأة بدينًا للغاية، منحوتاً ببراعة، وناعماً، وفي سيره جلال رقيق. كان جمال لا يد لها فيه، جمال مسالم تقريباً. كان وجهها خاليًا من التعبير تقريبا، كقناع، تنظر عيناها الزرقاوان الفاتحتان مباشرة إلى المرء بلا فضول ولا إدراك قد يراه المرء من خلفهما، وصوتها ناعم للغاية، سطحي قليلاً، ونادراً ما تتكلم.

صارت فجأة، على حد تعبير إديث «ذات شعبية». كان الهاتف يرن في الأغلب لها. وكانت تجلس في غرفة الجلوس تومئ بين الحين والآخر، وتجيب بهدوء واقتضاب على المتصلين، تأتي السيارات في غسق بعد الظهيرة لتقلها، مجهولون ينادون ويضحكون. كان ستونر يقف أحياناً في النافذة الأمامية يراقب السيارات تبتعد بصرير عجلاتها في سحب من الغبار، ويشعر بقلق وذعر قليلين، لم يمتلك سيارة أبداً، ولا يعرف

كيف يقود.

وكانت إديث سعيدة بذلك. قالت بذهول منتصر: «أرأيت؟»، كأنه لم تمر ثلاث سنوات منذ هجومها المسعور على مشكلة «شعبية» جريس. «أرأيت؟ لقد كنت محقة، كان كل ما تحتاج إليه دفعة بسيطة. وويلي لم يكن موافق. أوه، كنت أعرف، ويلي لا يوافق أبداً».

لسنوات عديدة، ظل ستونر يدخر عدة دولارات كل شهر، ليكون بوسع جريس، حين يحين الوقت، استكمال تعليمها في كلية خارج كولومبيا، في الشرق ربما، على مسافة ما بعيدة. كانت إديث تعرف تلك الخطط، وبدا أنها توافق عليها، لكن عندما حان الوقت، لم تكن تريد أن تسمع عنها شيء.

قالت: «أوه، لا. لن أتحمل هذا! طفلتي! وقد كانت جيدة للغاية في السنة الأخيرة تلك. محبوبة للغاية وسعيدة للغاية. سيكون عليها أن تتكيف، وصغيرتي، جريسي طفلتي». واستدارت لابنتها قائلة: «جريس لا تريد فعلاً أن تبتعد عن ماما. أليس كذلك؟ أن تتركها وحدها تماماً؟»

نظرت جريس لأمها بصمت لدقيقة. استدارت بسرعة لأبيها وهزت رأسها. قالت لأمها: «إن أردتني أن أبقى هنا، بالطبع سأبقى هنا».

قال ستونر: «جريس. اسمعيني، إن كنتِ تريدين الذهاب ـ أرجوكِ، إن كنتِ تريدين الذهاب حقاً».

لم تنظر إليه مرة أخرى وهي تقول: «الأمر لا يهم».

قبل أن يستطيع ستونر قول شيء آخر بدأت إديث في الحديث عن كيف يمكنها إنفاق المال الذي ادخره ستونر في شراء ملابس جديدة، ملابس لطيفة حقاً، ربما سيارة صغيرة حتى، ويمكنها هي وأصدقائها

أن... ابتسمت جريس ابتسامتها البطيئة الصغيرة، وأومأت، ورددت كلمة بين الحين والآخر، كأنها توقعت كل هذا.

تقرر الأمر، ولم يعرف ستونر أبداً رأي جريس، ما إذا كانت قد بقت لأنها تريد ذلك، أم لأن أمها تريد ذلك، أم من باب لا مبالاة عظيمة بمستقبلها. ستلتحق بجامعة ميزوري هذا الخريف، لمدة عامين على الأقل، بعد ذلك، إن أرادت، قد تسافر خارج الولاية، لاستكمال تعليمها الجامعي. قال ستونر لنفسه إن ذلك أفضل، الأفضل لجريس أن تتحمل السجن، الذي لا تكاد تشعر أنها فيه، لعامين آخرين، من أن تتمزق مرة أخرى على شماعة إرادة إديث الضعيفة.

وهكذا لم يتغير شيء. حظيت جريس بملابسها الجديدة، ورفضت فكرة أمها لشراء سيارة صغيرة، والتحقت بجامعة ميزوري. واصل الهاتف رنينه، استمرت الوجوه نفسها (أو وجوه تشبهها كثيراً) في الظهور بالضحك والصياح أمام البوابة الأمامية للمنزل، واستمرت السيارات نفسها تبتعد بضجيجها في الغسق. صارت جريس تخرج أكثر مما كانت تخرج في الثانوية، وسعدت إديث بما ظنته شعبية ابنتها المتزايدة. قالت: «إنها مثل أمها. قبل أن تتزوج كانت محبوبة للغاية. كان جميع الفتية... كان بابا يجنّ جنونه عليهم، لكنه في دخيلته كان فخورًا جداً، كنت أعرف ذلك».

قال ستونر بلطف: «نعم يا إديث». وشعر بقلبه ينفطر.

كان فصلاً دراسيًا عسيرًا للغاية على ستونر، إذ كان دوره في إدارة امتحانات الإنجليزية للمبتدئين على مستوى الجامعة، وكان في الوقت نفسه مشغولاً بالإشراف على رسالتي دكتوراه صعبتين، تتطلب كل منهما قدرًا كبيرًا من القراءة من جانبه. فكان يغيب عن البيت لأوقات

أكثر مما اعتاده في السنوات القليلة الماضية.

ذات أمسية في نهاية تشرين الثاني، عاد إلى البيت متأخراً عن العادة. كانت غرفة الجلوس مظلمة، والبيت هادئ، ظن أن جريس وإديث نائمتان. أخذ بعض الأوراق التي أحضرها معه إلى غرفته الخلفية الصغيرة، ليقرأها في الفراش قبل أن ينام. ذهب إلى المطبخ ليتناول شطيرة وكوب حليب، كان يفتح باب الثلاجة حين سمع فجأة صرخة مطولة حادة وقوية كنصل السكين، انطلقت من مكان ما بالطابق الأرضي. هرع إلى غرفة الجلوس، انفجرت الصرخة مرة أخرى، قصيرة وغاضبة على نحو ما في حدتها، من مرسم إديث. عبَر غرفة الجلوس ركضاً وفتح باب المرسم.

جلست إديث جاثمة على الأرض، كأنها سقطت هناك، عيناها جاحظتان وفمها مشدوه، على وشك إطلاق صرخة أخرى. وجلست جريس في الطرف الآخر من الغرفة على كرسي منجد، تضع ساقًا فوق الأخرى وتنظر بهدوء إلى أمها. كان يضيء الغرفة مصباح مكتب صغير على طاولة عمل إديث فيملأها بسطوع قاسي وظلال عميقة.

قال ستونر: «ما الخطب، ماذا حدث؟»

أدارت إديث رأسها له كأنها مثبتة إلى الأرض بمسمار منحل، كانت عيناها خاويتين. قالت بغضب مريب: «أوه ويلي. أوه ويلي». وظلت تنظر إليه ورأسها يهتز بضعف.

استدار لجريس التي لم تغير نظرتها الهادئة وهي تقول بنبرة حديث طبيعية: «أنا حامل يا أبتي».

صرخت إديث مرة أخرى، صرخة مدوية وغاضبة على نحو لا

يوصف، نظر كلاهما إليها، فكانت تحرك بصرها بينهما روحة وجيئة بعينين ذاهلتين وجامدتين فوق الفم الصارخ. سار ستونر عبر الغرفة وانحنى وراءها ليرفعها، كانت متهدلة بين ذراعيه وكان عليه أن يحملها بوزنها كله.

قال بحدة: «إديث! اهدأي».

تشنجت وابتعدت عنه، وسارت بخطى متعثرة عبر الغرفة لتقف فوق رأس جريس التي لم تحرك ساكناً. قالت كأنها تبصق الكلمات: «أنتِ... أوه، يا إلهي.. أوه، جريسي. كيف لكِ.. أوه، يا إلهي، أنت كأبيكِ. دم أبيكِ. أوه، نعم. قذرة، قذرة».

قال ستونر بحدة أشد: «إديث!» وذرع خطاه عبر الغرفة إليها. وضع يديه بحسم أعلى ذراعيها وأبعدها عن جريس قائلاً: «اذهبي إلى الحمام واغسلي وجهك بالماء البارد. ثم أذهبي إلى حجرتك وارقدي هناك».

قالت بتوسل: «أوه، ويلي. طفلتي الصغيرة. طفلتي. كيف تفعل هذا؟ كيف تفعل؟»

قال: «اذهبي الآن. سأناديك بعد قليل».

خرجت من المرسم بخطى متعثرة. ظل ينظر إليها ولم يتحرك حتى سمع صوت الماء في الحمام. ثم استدار لجريس، التي ظلت تتطلع إليه من جلستها على الكرسي المنجد. ابتسم لها ابتسامة طفيفة، وسار إلى طاولة عمل إديث، أمسك بكرسي خشبي وحمله وسار به إلى جريس ووضعه قبالتها، ليستطيع التحدث إليها دون النظر إلى وجهها.

قال: «الآن.. لماذا لا تخبريني عن الأمر كله؟»

منحته ابتسامتها الصغيرة الناعمة وقالت: «لا يوجد ما أخبرك به، أنا حامل».

«هل أنت متأكدة؟»

أومأت قائلة: «لقد ذهبت إلى الطبيب. وقد تسلمت النتيجة اليوم».

قال وهو يمسد على يدها بارتباك: «حسناً، لا داعي للقلق، كل شيء سيكون على ما يرام».

«نعم».

سألها برقة: «هل ترغبين في إخباري عن الأب؟»

«طالب في الجامعة».

«أتفضلين ألا تخبريني؟»

«أوه، لا. الأمر سيان. اسمه فراي. إد فراي. إنه في السنة الثانية. أظن أنه كان يدرس في مادة الإنشاء في السنة الأولى لديك العام الماضي».

«لا أذكره. لا أذكره على الإطلاق».

قالت: «أنا آسفة يا أبي. كان ذلك غباءً مني. لقد كان ثملاً قليلاً، ولم نتخذ.. احتياطاتنا».

نظر ستونر بعيداً عنها، إلى الأرض.

«أنا آسفة يا أبي، لقد صدمتك أليس كذلك؟»

«لا. فاجأتني ربما. لم نعرف بعض جيداً حقاً في السنوات القليلة

الماضية، أليس كذلك؟»

نظرت بعيدًا عنه وقالت: «لا أظن هذا».

«هل.. تحبين هذا الفتى يا جريس؟»

«أوه، لا.. أنا لا أعرفه جيداً حقاً».

أومأ وسألها: «ماذا تريدين أن تفعلي؟»

«لا أعرف. الأمر لا يهم حقاً. لا أريد أن أكون عبئاً».

جلسا صامتين لفترة طويلة قبل أن يقول أخيراً: «حسناً، لا تقلقي. كل شيء سيكون على ما يرام. أيا كان قرارك.. أيا كان ما تريدين فعله، سيكون الأمر على ما يرام».

قالت: «نعم». ثم نهضت من جلستها ونظرت لأبيها من أعلى وقالت: «يمكننا التحدث الآن، أنا وأنت».

قال ستونر: «نعم. يمكننا ذلك».

خرجت من المرسم، وانتظر ستونر حتى سمع صوت إغلاق باب غرفتها بالطابق الأعلى. قبل أن يذهب إلى غرفته، صعد لأعلى بخطوات خفيفة وفتح باب غرفة إديث. كانت قد استسلمت للنوم، متكورة بملابسها كاملة على الفراش، سقط ضوء المصباح المجاور للفراش على وجهها بقسوة، أطفأ ستونر الضوء وهبط إلى الطابق الأرضي.

في الصباح التالي على الإفطار، كانت إديث مبتهجة تقريباً، لم يبدُ عليها أيًا من إمارات هياجها في الليلة الماضية، وكانت تتحدث كما لو أن المستقبل مجرد مشكلة افتراضية ينبغي حلها. قالت بمرح بعد أن عرفت

اسم الفتى: «الآن، هل تظن أن علينا أن نتصل بالوالدين أم نتحدث مع الفتى أولاً؟ لنرَ.. نحن في الأسبوع الأخير من تشرين الثاني. لنقل أسبوعين. يمكننا عمل كافة الترتيبات في وقت قصير، ربما نجد كنيسة صغيرة كذلك. جريسي، ماذا يفعل صديقك، ما اسمه؟»

قال ستونر: «إديث. انتظري، أنت تأخذين الأمور ببساطة أكثر مما ينبغي. ربما جريس وذلك الفتى لا يريدان أن يتزوجا. علينا أن نتحدث في الأمر مع جريس».

«فيم نتحدث؟ بالطبع يريدان أن يتزوجا، فهما رغم كل شيء - إنهما.. جريسي، أخبري والدك. اشرحي له».

قالت له جريس: «الأمر لا يهم أبي، لا يهم على الإطلاق».

ولم يكن الأمر بالمهم حقاً، هكذا أدرك ستونر، كانت عينا جريس مثبتتين خلفه، على مسافة لم تستطع رؤيتها بل كانت تحدق فيها بلا فضول. جلس صامتاً وترك زوجته وابنته يخططان للأمر.

تقرر دعوة «فتى جريس»، كما دعته إديث، وكأن اسمه ممنوع ذكره بطريقة ما، إلى المنزل لتتحدث معه إديث. قامت بترتيب اليوم كأنه مشهد مسرحي، له مخارج ومداخل، حتى إنها حضّرت عبارةً أو اثنتين للحوار. كان على ستونر أن يعتذر عن الحضور، وعلى جريس أن تمكث لدقيقة أو اثنتين ثم تستأذن هي الأخرى تاركة الفتى وإديث وحدهما ليتحدثا. ثم يعود ستونر خلال نصف ساعة وبعده جريس، وخلال هذه الفترة يجب عمل جميع الترتيبات.

وسارت الأمور كلها كما خططت لها بدقة. تساءل ستونر لاحقاً، بحس دعابة، فيما كان يفكر فيه الشاب إدوارد فراي وهو يطرق الباب

بخجل ويُسمح له بالدخول إلى غرفة تبدو مليئة بالأعداء المملين. كان شابًا طويلاً، ممتلئًا قليلاً، بملامح مشوّشة وكالحة نوعاً ما، كان محرجاً وخائفاً على نحو مُخدّر، ولم يكن ينظر إلى أحد منهم. لدى خروج ستونر من الغرفة رأى جلسة الشاب الهابطة في كرسيه، مرفقاه على ركبتيه، ويحدق في الأرض، وحين عاد بعد نصف الساعة، وجده ما زال جالساً على النحو نفسه، وكأنه لم يتحرك أمام وابل ابتهاج إديث الشبيه بصياح الطيور.

لكنهم اتفقوا على كل شيء. أخبرته إديث بصوت عالٍ ومتكلف، لكن بفرح حقيقي، أن «فتى جريس» من أسرة جيدة جداً من سانت لويس، وأن والده كان يعمل وسيطًا تجاريًا، وإنه على الأرجح تعامل مع أبيها الراحل ذات مرة، أو على الأقل مع مصرفه، وأن «الشابين» قد قررا أن يتم الزفاف «في أسرع وقت ممكن، وبشكل غير رسمي»، وأن كليهما سيترك الدراسة، لعام أو اثنين على الأقل، وأنهما سيعيشان في سانت لويس، «كتغيير أو كبداية جديدة» وأنهما سيظلان في الجامعة حتى نهاية الفصل الدراسي، لكنهما لن يدخلا الامتحانات، وسيتزوجان في اليوم الأخير من الدراسة، الذي سيكون يوم جمعة. و... أليس الأمر كله رائعا، حقاً.. لا يهم أي شيء.

تم الزفاف في المكتب المزدحم لقاضي الصلح. لم يحضر سوى ويليام وإديث وزوجة القاضي، امرأة شيباء متغضنة الوجه بتقطيبة دائمة، عملت في المطبخ ريثما تتم المراسم ولم تدخل الغرفة إلا عندما انتهت فقط لتوقع على الأوراق كشاهدة. كان نهارًا بارداً وكئيباً تاريخه ١٢ كانون الأول ١٩٤١

قبل الزفاف بخمسة أيام، كان اليابانيون قد قاموا بتفجير بيرل هاربور، فكان ويليام ستونر يراقب المراسم بمزيج من مشاعر لم تخالجه

من قبل. ككثيرين غيره ممن عاصروا تلك الفترة، كان تحت قبضة ما يمكن تسميته بفقدان الشعور، مع ذلك كان يعرف أنه شعور مؤلف من عواطف عميقة وحادة للغاية إلى درجة أنه لا يستطيع إدراكها لأنه لا يمكنه العيش بها. كان يشعر بقوة المأساة العامة، الذعر والبلاء السائدان، لحد انتقلت معه المآسي الخاصة والمصائب الشخصية إلى مجال آخر من الوجود، مع ذلك زادت من حدتها رحابة الرقعة التي تحدث فيها، كما قد تزداد مرارة الوحدة في قبر وسط صحراء شاسعة تحيط به. راقب المراسم الحزينة للزواج الصغير بشفقة باردة تقريباً، وتأثر على نحو غريب بجمال وجه ابنته المسالم واللامبالي، وباليأس المكفهر على وجه الشاب.

بعد المراسم، استقل الشابان بلا مرح سيارة الشاب المكشوفة الصغيرة ورحلا إلى سانت لويس، حيث يجب عليهما مواجهة عائلته وحيث سيقضيان حياتهما. راقبهما ستونر وهما يقودان مبتعدين عن المنزل، ولم يسعه التفكير في ابنته إلا كفتاة صغيرة جداً كانت ذات مرة تجلس بجواره في حجرة نائية وتنظر إليه بسرور متجهم، كطفلة جميلة ماتت منذ وقت طويل.

التحق إدوارد فراي بالجيش بعد شهرين من الزواج، وقررت جريس أن تمكث في سانت لويس حتى تلد طفلها. خلال ستة أشهر مات فراي على شاطئ جزيرة صغير في المحيط الهادئ، أحد الجنود السذّج الذين تم إرسالهم في محاولة بائسة لوقف تقدم اليابانيين. في حزيران ١٩٤٢، ولدت جريس صبيًا، وأسمته على اسم الأب الذي لم يره أبداً ولم يكن ليحبه.

على الرغم من مجهود إديث، التي سافرت إلى سانت لويس «لتساعد» ابنتها، في إقناع ابنتها بالعودة معها، أبت جريس العودة، كان لديها شقة

صغيرة، ودخل صغير من معاش فراي، وحماها وحماتها، وقد بدت سعيدة.

قالت إديث لستونر بتشوّش: «لقد تغيرت على نحو ما. لم تعد ابنتنا الصغيرة على الإطلاق. لقد مرت بالكثير، وأظن أنها لا تريد أن يذكرها أحد بـ... إنها ترسل لك سلامها».

xiii

مرت سنوات الحرب، وقضاها ستونر كما قد يقضي المرء رحلة طويلة أو عاصفة غير محتملة، رأسه منحنٍ، فكاه مطبقان، ذهنه مثبت على الخطوة التالية، والتي تليها، والتي تليها. مع ذلك، وبسبب صبره وتحمله وجلده في قضاء الأيام والأسابيع، صار رجل منقسمًا بشدة على نفسه. تراجع قسم منه بذعر ملحوظ إزاء الخسائر اليومية، اجتياح الدمار والموات الذي يصيب الفكر والقلب بقسوة، شاهد مجدداً معين الكلية وهو ينضب، قاعات المحاضرات تفرغ من الشباب، رأى النظرات المرعوبة على وجوه من تخلفوا عن الحرب، ورأى في تلك النظرات الموت البطيء للقلب، والإنهاك المرير للمشاعر والرعاية.

مع ذلك، كان قسم آخر منه ينجذب بشدة إلى تلك المحرقة التي ارتد عنها. عثر بداخله على مقدرة على العنف لم يكن يعرف إنه يمتلكها: كان يتوق إلى الاشتباك، تمنى أن يذوق الموت، الفرح الكئيب للخراب، مذاق الدم. شعر بالعار والفخر في آن، وفوق كل هذا وذاك بخيبة أمل مريرة، من نفسه ومن الزمن ومن الظروف التي جعلته على ما هو عليه.

كانت أسماء الموتى تمر أمامه أسبوعًا بعد آخر، وشهرًا بعد آخر، أحياناً تكون مجرد أسماء يتذكرها كأنها من ماضٍ بعيد، وأحيانًا كان يستحضر وجهًا للاسم، وأحيانًا يستطيع تذكر صوتٍ أو كلمة.

ظل في غمرة كلِ هذا يُدرِّس ويَدرس، مع ذلك كان يشعر أحياناً إنه يحني ظهره عبثاً أمام العاصفة ويداري بيديه بلا جدوى شعلة آخر

أعواد ثقابه الضعيفة.

من حين لآخر كانت جريس تزور والديها. جاءت في أول زيارة بابنها الذي لم يكمل عامه الأول، لكن إديث بدت منزعجة منه على نحو غريب، فجاءت بعد ذلك بدونه، تركته في سانت لويس مع جدّيه الآخرين. كان ستونر يرغب في قضاء وقت أكثر مع حفيده، لكنه لم يصرح بهذا، أدرك أن انتقال جريس من كولومبيا، بل ربما حملها حتى، كان في الحقيقة هروبًا من السجن الذي تعود إليه الآن من باب عطف يتعذر استئصاله، وروحها الطيبة.

بالرغم من عدم ارتياب إديث في الأمر أو عدم اعترافها به، إلا أن جريس، كما عرف ستونر، كانت قد بدأت تعاقر الخمر بإفراط. عرف ستونر الأمر في صيف العام الذي وضعت فيه الحرب أوزارها. جاءت جريس في زيارة لعدة أيام، بدت شديدة الإنهاك، تحيط بعينيها الظلال، ووجهها متوتر وشاحب. أوت إديث ذات ليلة إلى فراشها مبكراً بعد العشاء، وجلس ستونر وجريس معاً في المطبخ يحتسيان القهوة. حاول ستونر أن يتحدث معها لكنها كانت قلقة ومضطربة للغاية. جلسا صامتين لفترة طويلة، وأخيراً نظرت إليه جريس باهتمام ورفعت كتفيها وتنهدت فجأة.

سألته قائلة: «هل لديكما أية خمور في المنزل؟»

«لا. ليس لدينا، ربما توجد زجاجة شيري في الخزانة، لكن..»

«أشعر بحاجة ماسة لشراب. هل تمانع إن اتصلت بمتجر الخمور وطلبت منهم إرسال زجاجة إلى المنزل؟»

«بالطبع لا، لكن أنا ووالدتك في العادة لا..»

لكنها كانت قد نهضت وذهبت إلى غرفة الجلوس. قلّبت في صفحات دليل التليفونات واتصلت بالرقم بعصبية.

حين عادت إلى المطبخ مرت بالطاولة، ذهبت إلى الخزانة، وأخرجت منها زجاجة الشيري نصف الفارغة. جلبت كأس من مصفاة الصحون وملأته لحافته تقريبًا بالسائل البني الفاتح. أفرغت الكأس في فمها وهي ما تزال واقفة ومسحت شفتيها. ارتعشت قليلاً وقالت: «لقد حمض.. وأنا أكره الشيري».

وضعت الزجاجة والكأس على الطاولة، جلست، ووضعتهما أمامها مباشرة. ملئت نصف الكأس ونظرت لأبيها بابتسامة صغيرة غريبة وقالت: «أنا أشرب أكثر قليلاً مما ينبغي. يا أبي المسكين، أنت لا تعرف هذا، أليس كذلك؟»

«لا».

«كل أسبوع أقول لنفسي، لن أشرب كثيرًا الأسبوع القادم، لكنني أشرب أكثر دائماً. لا أعرف لماذا».

«هل أنتِ تعيسة؟»

«لا. أظن أنني سعيدة. أو سعيدة تقريباً على أية حال. الأمر ليس كذلك. إنه..» وسكتت دون أن تكمل.

ما إن أنهت زجاجة الشيري، كان فتى التوصيل قد جاءها بزجاجة الويسكي. أحضرت الزجاجة إلى المطبخ وفتحتها ببراعة الخبيرة، وصبّت قدرًا لا بأس به في كأس الشيري.

بقيا لوقت متأخر من الليل، حتى تسلل أول ضوء رمادي من

النافذة. كانت جريس تشرب بانتظام، رشفات صغيرة، وبانقشاع الليل كانت خطوط وجهها تلين، وتهدأ نفسها وتصير أصغر، وتحدثا معاً كما لم يتحدثا منذ سنوات.

قالت: «أظن أنني.. أظن أنني حملت عمداً، رغم أنني لم أكن أدرك ذلك وقتها، أظن أنني لم أعرف كم كنت أريد أن.. كان يجب أن أبتعد عن هنا. كنت أعرف ما يكفي لئلا أصير حاملاً ما لم أشأ. الله أعلم. كل هؤلاء الفتية في الثانوية، و...» ـ ابتسمت بمكر لوالدها وقالت: «أنت وماما لم تشكّا بشيء، أليس كذلك؟»

«لا أظن».

«ماما أرادتني محبوبة، و... صرت محبوبة، فليكن. لم يكن الأمر يعني أي شيء، لا شيء على الإطلاق».

قال بصعوبة: «كنت أعرف أنك تعيسة. لكنني لم أدرك قط ـ لم أعرف قط».

«أظن أنني لم أدرك ذلك أيضًا. لم يكن بوسعي. المسكين إد، هو من حمل العبء كله، لقد استغللته، أتعرف، أوه، لقد كان الأب بالطبع، لكنني استغللته. كان فتى طيباً، يشعر بالأسف دائماً ـ لم يستطع تحمل الأمر. لقد التحق بالجيش قبل موعده بستة أشهر ليبتعد عن كل هذا. أنا من قتله على ما أظن، كان فتى طيباً، ولكننا لم نستطع أن نتحمل أحدنا الآخر حتى».

تحدثا حتى وقت متأخر من الليل، كصديقين قديمين، وأدرك ستونر أنها، كما قالت، راضية تقريباً ببؤسها، ستقضي أيامها بهدوء، تشرب أكثر قليلاً، عام بعد آخر، تخدر نفسها في مواجهة الخواء الذي آلت إليه

حياتها. كان سعيدًا لأن لديها الخمر على الأقل، وممتناً لأن بوسعها أن تشرب.

كانت السنوات التي تلت الحرب العالمية الثانية مباشرةً أفضل سنينه كأستاذ، وبطريقة ما، أفضل سنين حياته أيضاً. غمر المحاربون العائدون من تلك الحرب الحرم الجامعي بزخم وشغب بلغا حد التحوّل، إذ جلبوا إليه نوعية حياة لم يشهدها من قبل قط. عمل بكد إلى حد لم يصل إليه من قبل، وكان الطلبة ناضجين إلى حد غريب، وجادين للغاية ولا يهتمون بالتفاهات. كانوا يأتون إلى قاعة المحاضرات لا تشغلهم الملابس ولا الموضة، كانوا يأتون لدراستهم تماماً كما كان ستونر يحلم بأن يفعلوا - كما لو كانت الدراسة هي الحياة نفسها وليست وسيلة محددة لبلوغ غاية معينة. كان يعرف أن بعد تلك السنوات لن يكون التدريس كما هو، فاندمج في حالة سعيدة من الإرهاق تمنى ألا تنتهي أبداً. نادراً ما يفكر في الماضي أو المستقبل، أو في خيبات وأفراح أي منهما، بل ركز كل طاقاته وقدراته في لحظة عمله وتمنى أن يُعرَّف في النهاية بما فعله.

كان نادراً ما يفكر في شيء آخر غير إخلاصه لأوقات عمله. كان أحياناً حين تعود ابنته في زيارة لكولومبيا، كما لو كانت تتجول بلا هدف من غرفة لأخرى، ينتابه ذلك الشعور بالضياع الذي لا يكاد يطيقه. كانت في الخامسة والعشرين من عمرها، وتبدو أكبر بعشر سنوات، تشرب الخمر بانعدام ثقة في النفس لشخص فاقد الأمل تماماً، وبدا واضحاً أنها تتخلى شيئاً فشيئاً عن حضانة طفلها لجديه من أبوه بسانت لويس.

تلقى مرة واحدة فقط أخباراً عن كاثرين دريسكول. في بداية ربيع ١٩٤٩، تلقى دورية صحفية من جامعة كبرى في الشرق تذكر خبر إصدار كتابها، وسطورًا قليلة عن المؤلفة. كانت تُدرِّس في كلية

جيدة للآداب بمساشيستوس، ولم تكن متزوجة. حصل على نسخة من الكتاب بأسرع ما أمكنه. حين أمسكه بدا كأن أصابعه قد عادت للحياة، كانت ترتعش لحد استعصى عليه معه أن يفتحه. قلّب صفحاته الأولى ونظر في الإهداء: «إلى و.س.»

اغرورقت عيناه بالدموع، وجلس بلا حراك لوقت طويل. ثم هز رأسه، وعاد ينظر في الكتاب، ولم يتركه إلا بعد أن أنهى قراءته كله.

كان الكتاب جيداً كما توقع. الكتابة رائعة، وقد تغلّف الشغف بداخله بذكاء بارد وواضح. أدرك أنه كان يرى روحها فيما يقرأه، وتعجب كيف يراها على حقيقتها الآن. شعر فجأة وكأنها في الغرفة المجاورة، وإنه لم يتركها سوى منذ عدة دقائق. شعر بوخز خفيف في يديه كأنهما لمستاها، وتدفق بداخله الإحساس بالفقدان الذي ظل يمنعه لوقت طويل، وغمره، فترك نفسه تنجرف لخارجه، بعيداً عن سيطرة إرادته، ولم يكن راغبًا في إنقاذ نفسه. ثم ابتسم بحب، كأنه يبتسم للذكرى، خطر له أنه في الستين من عمره تقريباً وأنه كبر على تلك العواطف وهذا الحب.

لكنه لم يكن قد تجاوزها، عرف هذا، ولن يتجاوزها أبداً. كانت تلك العواطف هناك، أسفل الخدر واللامبالاة والنسيان، عارمة وراسخة، وظلت هناك طوال الوقت. في شبابه كان يمنحها بحرية، بلا تفكير. منحها للمعرفة التي تكشّفت له- منذ كم سنة؟- من آرشر سلوان، ومنحها لإديث في تلك الأيام الأولى العمياء الحمقاء لتودده لها وزواجه بها، ومنحها لكاثرين، كما لم يمنحها لأحد من قبل. كان قد منحها، على نحو غريب، لكل لحظة من لحظات حياته، ولعله كان يمنحها بطريقة تامة حين لم يكن واعياً بالمنح. لم تكن عواطف نابعة من الفكر أو الجسد، بل كانت، بالأحرى، قوة تشمل الاثنين معاً، وكأنهما لا شيء سوى مادة الحب، جوهره المحدد. سواء لامرأة أو لقصيدة. كانت عواطف تقول

ببساطة: انظروا! أنا حيّ.

لم يستطع التفكير في نفسه كرجل عجوز. كان أحياناً وهو يحلق ذقنه في الصباح ينظر في وجهه الذي يحدق فيه من المرآة بذهول ولا يشعر بأنه له، عيناه واضحتان في قناع غريب، وكأنه يرتدي زيّ تنكري شنيع، لغرض ما مبهم، وكأن بمقدوره، إن شاء، أن ينزع عن وجهه الحاجبين الأبيضين الكثين، والشعر الأشيب المشعث، والجلد المتهدل فوق العظام الحادة، وتلك الخطوط العميقة التي تتظاهر بأنها دلالات العمر.

مع ذلك كان يعرف أن عمره ليس تظاهراً. شاهد إعياء العالم وإعياء بلاده خلال السنوات التي أعقبت الحرب الكبرى، رأى البغضاء والشك وقد صارا نوعين من الجنون ينتشر في الأرض سريعاً كالطاعون، رأى الشباب يذهبون للحرب مجدداً، يسيرون بحماسة صوب الدمار العقيم، كأنه صدى لكابوس. وكان ما يشعر به من رثاء وحزن قديمين للغاية، منفصلين تماماً عن عمره، حتى بدا لنفسه وكأنه لم يكبر يومًا واحداً.

سرعان ما مرت السنون، ولم يكد ينتبه لها. في ربيع ١٩٥٤ كان في الثالثة والستين من عمره، حينها أدرك فجأة أنه لم يتبق له سوى أربع سنوات ليدرس فيها. حاول أن يرى ما الذي سيحدث بعدها، لكنه لم يستطع، ولم تكن لديه الرغبة في ذلك.

في ذاك العام، تلقى مذكرة من سكرتارية مكتب جوردون فينش تطلب منه المرور لرؤية العميد في أي وقت يناسبه. كان مشغولاً، ولم يستطع زيارته إلا بعد عدة أيام من تلقيه الرسالة.

كان ستونر يفاجأ قليلاً في كل مرة يرى فيها جوردون فينش، لأن الأخير لم تكن تبدو عليه أمارات التقدم في السن إلا بقدر ضئيل للغاية. بدا في الخمسين من عمره وهو الذي يصغر ستونر بعام واحد فقط. كان

أصلع تماماً ووجهه مكتنز بلا أية تجاعيد، ويبرق بعافية ساذجة تقريباً. كانت خطواته تنبض بالحركة، وفي السنوات الأخيرة كان قد بدأ يرتدي ملابس غير رسمية، قمصان ملونة وسترات غريبة.

بدا في ذاك اليوم حين مر عليه ستونر مرتبكاً. تحدثا بألفة لعدة دقائق، سأله فينش عن صحة إديث وذكر أن زوجته كارولاين كانت تتحدث معه منذ أيام مضت عن رغبتها في زيارتهما. ثم قال: «الزمن، يا إلهي، كم يمر سريعاً!»

أومأ ستونر.

تنهد فينش بقوة وقال: «حسناً. أظن أن علينا أن نتحدث في الأمر. ستبلغ الخامسة والستين العام المقبل. أظن أن علينا أن نضع بعض الخطط».

هز ستونر رأسه: «ليس في الحال، أنا أنوي أن أستغل خيار العامين الإضافيين المتاح لي بالطبع».

قال فينش ومال للوراء في كرسيه: «توقعت هذا لكن أنا لا. أمامي ثلاثة أعوام أخرى وسأخرج. أفكر أحياناً فيما خسرته. الأماكن التي لم أزرها، و... بيل، الحياة قصيرة للغاية. لماذا لا تخرج أنت أيضاً؟ فكر في الوقت الذي...»

«لا أعرف ماذا سأفعل به. لم أعرف قط».

«حسناً، يومنا هذا والعمر الذي قضيناه، خمسة وستون سن صغيرة للغاية، أمامك متسع من الوقت لتتعلم أشياء من شأنها أن...»

«الأمر بشأن لوماكس أليس كذلك؟ أنت تحت قبضته».

ابتسم فينش وقال: «بالطبع، ماذا تتوقع؟»

سكت ستونر قليلاً ثم قال: «قل له إنني رفضت التحدث معك في الأمر. إنني صرت عجوزًا شكسًا وحرونًا ولم يعد بمقدورك فعل شيء معي. وإن عليه أن يقوم بالأمر بنفسه».

ضحك فينش وهز رأسه قائلاً: «يا الله! سأفعل. بعد كل هذه السنين، ظننتكما أيها الوغدان ستلينان قليلاً».

لكن المواجهة لم تحدث في الحال، وحين حدثت- في منتصف الفصل الدراسي الثاني، في آذار- لم تكن كما توقع ستونر. تم استدعاؤه مرة أخرى لمكتب العميد، في وقت محدد، وعلى وجه السرعة.

جاء ستونر متأخرًا بضع دقائق. كان لوماكس هناك بالفعل، يجلس بجمود قبالة مكتب فينش، وبجواره كرسي شاغر. سار ستونر ببطء عبر الغرفة وجلس عليه. أدار رأسه ونظر إلى لوماكس، حدق لوماكس أمامه بثبات، وأحد حاجبيه مرتفع بعجرفة.

حدق فينش في الرجلين لعدة دقائق، وعلى وجهه ابتسامة لعوب طفيفة. ثم قال: «حسناً، نحن نعلم الأمر الذي نحن بصدده. ألا وهو تقاعد بروفيسور ستونر». ثم بدأ يتلو القواعد: «التقاعد الاختياري ممكن في سن الخامسة والستين، في هذا الخيار بإمكان ستونر أن يتقاعد، إن رغب في ذلك، بنهاية العام الدراسي الحالي، أو بنهاية أي من الفصلين الدراسيين للعام المقبل. أو بإمكانه، بالاتفاق مع رئيس القسم وعميد الكلية، والبروفيسور المعني، أن يمد سن تقاعده إلى سبعة وستين، وحينها يكون التقاعد إجبارياً. إلا إذا، بالطبع مُنح الشخص المعني امتيازًا خاصاً، ونال كرسي الأستاذية، حينها..»

قال لوماكس بفظاظة: «احتمال بعيد جداً، أظن أنه لا خلاف على هذا».

أومأ ستونر وقال لفينش: «احتمال بعيد للغاية».

قال لوماكس لفينش: «أعتقد بصراحة أنه سيكون لصالح القسم أن ينتهز بروفيسور ستونر هذه الفرصة ويتقاعد، لأن ثمة تغييرات في طاقم العمل وفي المناهج أفكر منذ وقت طويل في عملها، وهذا التقاعد سيجعل ذلك ممكناً».

قال ستونر لفينش: «ليست لدى الرغبة في التقاعد قبل أن اضطر لذلك، ولن أفعل ذلك لمجرد النزول على رغبة بروفيسور لوماكس».

استدار فينش للوماكس الذي قال له: «أنا واثق أن ثمة الكثير مما لم يفكر فيه بروفيسور ستونر جيداً، إذ سيكون أمامه متسع من الوقت ليقوم بالكتابة التي...» وسكت قليلاً ثم تابع: «التي حال بينه وبينها تفانيه في التدريس. بالطبع سيفيد المجتمع الأكاديمي كثيرًا إن أثمرت خبرته الطويلة عن...»

قاطعه ستونر: «ليس لدى الرغبة في بدء مستقبلي الأدبي في هذه المرحلة من حياتي».

بدا لوماكس، دون أن يتحرك في كرسيه، إنه ينحني لفينش قائلاً: «أنا واثق أن زميلنا في غاية التواضع. فخلال عامين سأضطر أنا نفسي، طبقاً للقواعد، لإخلاء كرسي رئاسة القسم، وبالطبع أنوي أن أستغل سنوات تقاعدي في شيء مفيد، أنا أتطلع بالفعل إلى أوقات فراغي في تقاعدي».

قال ستونر: «أما أنا فآمل أن أبقى عضوًا في القسم، حتى دنو الموعد

الوشيك على الأقل».

سكت لوماكس هنيهة ثم قال بتمعّن لفينش: «لقد خطر لي، لأكثر مرة خلال السنوات القليلة الماضية، أن مجهودات بروفيسور ستونر في خدمة الجامعة ربما لم يتم تقديرها على النحو الكافي. وأن ترقيته إلى الأستاذية الكاملة قد تكون هي التتويج المناسب لعام تقاعده، عشاء على شرفه وبمناسبة تقاعده.. مراسم مناسبة. سيكون أمر مبهجاً للغاية. بالرغم من تأخر الوقت لهذا العام، وقد تم إعلان أغلب الترقيات بالفعل، لكنني واثق، أنني إذا أصررت، فقد يمكننا ترتيب ترقيته العام المقبل، احتفالاً بتقاعده الميمون».

فجأة بدت اللعبة التي ظل يلعبها مع لوماكس- ويستمتع بها على نحو غريب- مملة ووضيعة. غلبه الإعياء. نظر إلى لوماكس مباشرة وقال بضجر: «هولي، بعد كل تلك السنين، ظننت أنك تعرفني على نحو أفضل من هذا. فأنا لم أهتم البتة بما تظن أن بإمكانك «منحه» لي، أو ما تظن أن بإمكانك «فعله» لي، أو أيا كان». وسكت، كان بالفعل أكثر إرهاقاً مما يظن. تابع بمشقة: «ليس هذا هو الأمر، لم يكن هذا هو الأمر أبداً.. أنت رجل صالح، على ما أعتقد، مدرس جيد بالتأكيد. لكنك بطريقة ما مجرد جاهل ابن زانية». سكت مجدداً ثم أضاف: «لا أعرف ما الذي كنت تأمله. لكنني لن أتقاعد.. ليس بنهاية هذا العام، ولا بنهاية العام المقبل». نهض ببطء ووقف لدقيقة يستجمع قواه وتابع: «بعد إذنكما أيها السيدان المحترمان، سأترككما لتناقشا أيّا ما كان عليكما مناقشته».

كان يعرف أن الأمر لم ينتهِ عند هذا الحد، لكنه لم يأبه. حين أعلن لوماكس في تقريره السنوي للاجتماع العام للكلية عن تقاعد بروفيسور ويليام ستونر بنهاية العام المقبل، نهض ستونر واقفاً وأعلن للحضور أن

بروفيسور لوماكس مخطئ، وأنه لن يتقاعد إلا بعد عامين من الوقت الذي يقصده لوماكس. في بداية الفصل الدراسي الخريفي، دعا رئيس الجامعة الجديد ستونر إلى منزله على شاي الساعة الخامسة وتحدث باستفاضة عن سنوات خدمته، وعن الراحة بعد التعب، وعن الامتنان الذي يشعرون به جميعًا نحوه، تلبّس ستونر عباءة سلوكه الغريب الشاذ، فخاطب الرئيس بلقب «الشاب»، وتظاهر بعدم سماعه، حتى انتهى الأمر بالشاب بأن يصيح بالنبرة الأكثر استرضاءً ما استطاع.

لكن جهوده، الهزيلة كما كانت، أنهكته أكثر مما توقع، فصار بحلول عطلة عيد الميلاد منهكاً تقريباً. قال لنفسه إنه، بالفعل، قد صار عجوزاً، وأن عليه أن يستسلم إن أراد أن يقوم بعمل جيد لبقية العام. استراح في العطلة التي استغرقت عشرة أيام، وكأن باستطاعته تخزين قواه، وحين عاد للأسابيع الأخيرة من الفصل الدراسي عمل بحماسة وهمة أدهشته هو نفسه. بدا أن مسألة تقاعده قد استقرت، ولم يتكبد عناء التفكير فيها مجدداً.

انتابه الإعياء مجددًا في أواخر شباط، ولم يستطع نفضه عنه، كان يقضي جزءًا كبيرًا من وقته في البيت، وينجز الكثير من أعماله الورقية وهو جالس في فراشه في الغرفة الصغيرة الخلفية. في أذار، لاحظ ألمًا خدرًا يشيع في ساقيه وذراعيه، قال لنفسه إنه مجرد إرهاق، وإن سيتحسن حين تأتي أيام الربيع الدافئة، وإنه فقط في حاجة للراحة. في نيسان، صار الألم دائماً في الجزء السفلي من جسده، كان من حين لآخر يتغيب عن محاضرة، ولاحظ أنه يستنفذ قواه كلها تقريباً في مجرد السير من محاضرة لأخرى. في بداية أيار، غدا الألم شديدًا، ولم يعد بمقدوره التفكير فيه بوصفه مضايقة بسيطة، فقام بتحديد موعد لدى الطبيب في مستشفى الجامعة.

كان ثمة تحاليل وفحوصات وأسئلة، لم يكن يفهم أهميتها، أوصاه

الطبيب بنظام غذائي خاص، ووصف له مسكنات للألم وأخبره أن يعود في بداية الأسبوع المقبل للاستشارة، ولمعرفة نتيجة التحاليل. شعر بتحسن بالرغم من استمرار الشعور الإرهاق.

كان طبيبه شابًا يدعى جيمسون، أخبره أنه كان يعمل في الجامعة لعدة سنوات قبل أن يفتح عيادته الخاصة. كان له وجه وردي ومستدير، يرتدي نظارة بلا إطار، وله سلوك عصبي ومضطرب على نحو يثق فيه ستونر.

ذهب ستونر قبل موعده بدقائق قليلة، لكن موظف الاستقبال سمح له بالدخول فوراً. سار في الممر الضيق الطويل إلى الحجرة الصغيرة حيث مكتب جيمسون.

كان جيمسون في انتظاره، وبدا لستونر إنه ظل ينتظره لبعض الوقت. كانت الملفات والأشعة ترقد بترتيب على مكتبه. نهض جيمسون وابتسم بتوتر وعصبية ومد يده ناحية الكرسي المقابل لمكتبه.

«بروفيسور ستونر، تفضل بالجلوس، تفضل بالجلوس».

جلس ستونر.

قطب جيمسون حاجبيه وهو ينظر إلى سطح مكتبه، بسط ورقة، ثم جلس على كرسيه وقال: «حسناً، ثمة عائق ما في الجزء السفلي من الأمعاء، هذا واضح. الأشعة السينية لا توضح الكثير، لكن الأمر ليس غير طبيعي. أوه، شيء ما ضبابي قليلاً، لكنه لا يعني أي شيء بالضرورة». أدار كرسيه، ووضع ورقة الأشعة السينية في الإطار المخصص لها وأضاء النور، وأشار على نحو مبهم. نظر ستونر إلى حيث يشير لكنه لم يميز شيئًا محددًا. أطفأ جيمسون النور واستدار لمكتبه. بدا

وجهه جادًا للغاية. «تعداد كريات الدم لديك منخفض للغاية، لكنه خالٍ من أية عدوى، والترسيب دون المستوى، وضغط الدم منخفض. ثمة ورم ما داخلي لا يبدو مطمئناً تماماً، وقد فقدت قدرًا لا بأس به من وزنك، و... حسناً، من الأعراض التي شكوت منها، ومما يمكنني قوله عن هذا..» وأشار إلى مكتبه «يمكنني أن أقول إن ثمة شيء واحد فقط نفعله». ابتسم بثبات وقال بمزاح متردد: «علينا أن نفتح جسدك ونرى ما يمكننا فعله».

أومأ ستونر قائلاً: «إنه سرطان إذاً؟»

قال جيمسون: «حسناً، هذه كلمة كبيرة نوعاً ما، قد تعني أشياء كثيرة. أنا واثق أن ثمة ورم بالداخل، لكن.. لن نتأكد من أي شيء مائة في المائة حتى نرى ما بالداخل».

«كم من الوقت أمامي؟»

«أوه، يستحيل أن أعرف. لكن قد يكون.. الورم ضخم إلى حد ما، وقد ظل هناك لبعض الوقت».

صمت ستونر دقيقة ثم قال: «كم أمامي من الوقت في تقديرك؟»

قال جيمسون بتوتر: «أوه، اسمع يا سيد ستونر». وحاول أن يضحك. «علينا ألا نقفز إلى استنتاجات. توجد دائماً فرصة بأن يكون مجرد ورم حميد مثلاً، كما تعرف. أو... قد يكون أشياء عديدة. نحن لن نكون متأكدين من أي شيء حتى..»

«نعم. متى يمكنك إجراء العملية؟»

قال جيمسون بارتياح: «في أسرع وقت ممكن. خلال يومين أو ثلاثة».

قال ستونر بشرود تقريباً: «بهذه السرعة؟» ثم نظر إلى جيمسون بثبات قائلاً: «اسمح لي أن أسألك عدة أسئلة دكتور، ويجب أن أخبرك إنني أريد إجابات صريحة».

أومأ جيمسون.

«في حال كان الورم حميدًا، كما تقول، فهل سيؤثر تأجيل العملية لأسبوعين آخرين تأثيرًا كبيرًا؟»

قال جيمسون على مضض: «سوف تستمر آلامك و... لا، لن يكون الأثر كبيرًا، على ما أظن».

قال ستونر: «جيد، وفي حال كان الأمر سيئًا كما تعتقد، فهل سيؤثر التأجيل لأسبوعين؟»

قال جيمسون بعد وقت طويل، بمرارة تقريباً: «لا، على ما أعتقد لا».

قال ستونر بهدوء: «حسناً، سأنتظر لأسبوعين آخرين إذاً، فثمة بعض الأمور التي عليّ إنهاؤها- بعض العمل الذي عليّ إنجازه».

«لا أنصح بهذا، أنت تفهم. لا أنصح بهذا على الإطلاق».

«بالطبع. و.. دكتور، يجب ألا تخبر أحدًا بهذا، أرجوك؟»

قال جيمسون: «بالطبع». ثم أضاف ببعض العطف: «بالطبع لن أذكره لأحد». ثم أوصاه ببعض التعديلات في النظام الغذائي الذي كان قد أوصاه به من قبل، ووصف له أدوية أخرى، وحدد موعدًا لدخوله المستشفى.

لم يشعر ستونر بأي شيء على الإطلاق. وكأن ما أخبره به الطبيب لم يكن سوى مجرد إزعاج ثانوي، مجرد عائق عليه أن يلتف حوله بطريقة ما لينجز ما عليه إنجازه. خطر له أن الوقت قد تأخر على هذا، وأن لوماكس قد يواجه صعوبة في العثور على بديل له.

جعلته الحبوب التي تناولها في مكتب الطبيب يشعر بدوار قليلاً، وسره هذا الشعور على نحو ما. اختل إحساسه بالوقت، ووجد نفسه واقفًا في الرواق ذي الأرضية الخشبية بالطابق الأرضي من مبنى الجيسي هول. كان في أذنه همهمة خافتة كتلك التي تصدر عن رفرفة أجنحة طيور بعيدة، وبدا في الرواق الظليل ضوء غير واضح المصدر يومض وينطفئ مع نبضات قلبه، وكان لحم جسده يرتج واعياً بأقل حركة من حركاته فيما يتقدم للأمام بحذر مفرط في مزيج من الظلام والضوء.

وقف أمام السلم المؤدي إلى الطابق الثاني، الدرجات رخامية وفي منتصف كل واحدة بالضبط غور ناعم أبلته قرون من وطئ الخطوات صعوداً وهبوطاً. كانت تلك الدرجات جديدة تقريباً حين وقف عندها لأول مرة- منذ كم من السنين؟- ونظر إلى أعلى، كما ينظر الآن، وتساءل إلى أين ستقوده. فكر في الوقت وفي مروره السلس. وضع قدمًا واحدة بحرص على الدرجة الناعمة الأولى ورفع نفسه.

ثم كان في مكتب جوردون فينش الخارجي. قالت الفتاة: «العميد فينش على وشك الانصراف...» أومأ بذهن شارد، وابتسم لها، ودخل مكتب فينش.

قال بود وما زالت الابتسامة على وجهه: «جوردون. لن أعطلك كثيراً».

ابتسم له جوردون تلقائيًا، كانت عيناه مجهدتين، وقال: «بالطبع يا

بيل، تفضل بالجلوس».

قال ستونر مجدداً: «لن أعطلك كثيراً». وشعر بقوة غريبة في صوته: «الحقيقة إنني، غيرت رأيي.. بشأن التقاعد، أقصد.. أعرف أن الأمر غريب، آسف لأنني تأخرت في إخطارك، لكن.. حسناً، أعتقد أن هذا لصالح الجميع. سأستقيل بنهاية هذا الفصل الدراسي».

طفا وجه فينش أمام نظر ستونر، مستديرًا في ذهوله. قال فينش: «ماذا بحق الجحيم، هل هددك أحدهم؟»

«لا شيء من هذا البتة. إنه قراري الخاص. الأمر فقط إنني.. لقد اكتشفت أن هناك بعض الأشياء التي أحب أن أفعلها». ثم أضاف بهدوء: «وأنا بالفعل في حاجة إلى بعض الراحة».

انزعج فينش، وعرف ستونر أن لديه أسبابه لينزعج. ظن أنه سمع نفسه يغمغم باعتذارات أخرى، وشعر بالابتسامة التي ما زالت مرتسمة بحماقة على وجهه.

قال فينش: «حسناً. أعتقد أن الوقت لم يتأخر للغاية. يمكنني أن أبدأ في إنهاء الأوراق غداً. أظن أنك على علم بكل ما يجب أن تعرفه بخصوص دخلك السنوي، والتأمين، وما شابه؟»

«أوه، نعم. لقد فكرت في كل هذا. كل شيء على ما يرام».

نظر فينش في ساعة يده وقال: «لقد تأخرت قليلاً يا بيل. مُر بي خلال يومين وسوف ننهي كافة التفاصيل. وخلال هذين اليومين، حسناً، أظن أن علينا أن نخبر لوماكس. سأتصل به الليلة». ثم ابتسم وأضاف: «أخشى أنك نجحت في إسعاده».

قال ستونر: «نعم. أخشى ذلك».

كان ثمة الكثير ليفعله في الأسبوعين السابقين لدخوله المستشفى، لكنه قرر أن بمقدوره إنجاز كل شيء. ألغى كافة محاضراته خلال اليومين التاليين واستدعى جميع طلبته الذين يتحمل مسؤولية توجيه أبحاثهم ورسائلهم على نحو مستقل. كتب لهم توجيهات مفصّلة لكيفية استكمالها، وترك نسخًا من تلك التوجيهات في صندوق بريد لوماكس. طمأن هؤلاء الذين أصابهم الجزع ظانين أنه هجرهم، وأولئك الذين خافوا من اللجوء إلى مشرف جديد. وجد أن الحبوب التي يتناولها لتسكين الآلام تؤثر على صفاء ذهنه، فامتنع عن تناولها في النهار ليستطيع التحدث مع طلبته، وفي المساء وهو يقرأ فيض الأوراق والأبحاث والرسائل نصف المكتملة، فكان يتناولها فقط حين يشتد الألم ويصعب عليه التركيز في عمله.

بعد يومين من إعلانه تقاعده، في منتصف يوم مشحون بالعمل، تلقى مكالمة من مكتب جوردون فينش. «بيل؟ هذا أنا جوردون، اسمع.. ثمة مشكلة صغيرة أظن أن عليّ التحدث معك بشأنها..»

قال بنفاد صبر: «نعم؟»

«إنه لوماكس، إنه مُصرّ على أنك تفعل هذا لتغيظه شخصياً».

«لا يهم. دعه يفكر كيفما يريد».

«انتظر، هذا ليس كل شيء. إنه يخطط للعشاء وكل ما شابه، ويقول إن عليه أن يفي بوعده».

«اسمع يا جوردون، أنا مشغول جدًا الآن. ألا يمكنك أن توقف كل هذا بطريقة ما؟»

«لقد حاولت، لكنه ينشر الأمر في القسم. إن أردتني أن استدعيه سأفعل، لكن عليك أن تحضر أنت أيضاً. لأنني لا أستطيع التحدث معه وهو على هذه الحال».

«وهو كذلك، متى ستكون هذه الحماقة؟»

ساد الصمت ثم قال فينش: «أسبوع من بعد يوم الجمعة. آخر أيام الدراسة، قبل أسبوع الامتحانات».

«وهو كذلك». قال ستونر بضجر. «سأكون قد انتهيت من أعمالي حينها، وسيكون أسهل من الجدل حول الأمر الآن. فقط دع الأمور تسير كما يحلو لها».

«يجب أن تعرف هذا أيضاً. إنه يريدني أن أعلن تقاعدك كبروفيسور على نحو شرفي، ولن يكون التقاعد رسمياً حقاً حتى العام المقبل».
شعر ستونر بضحكة تنحبس في حلقه وقال: «وما المانع؟ لا بأس بهذا أيضاً».

عمل طوال ذلك الأسبوع بلا شعور بالوقت، كان يعمل يومياً حتى الجمعة من الثامنة صباحاً وحتى العاشرة مساءً. قرأ آخر ورقة، وكتب آخر ملحوظة، ثم مال للوراء في كرسيه، يملأ ضوء مصباح مكتبه عينيه، ولوهلة لم يعرف أين هو. نظر حوله وأدرك أنه في مكتبه. كانت أرفف الكتب تعج بالكتب المرصوصة عليها عشوائياً، وأكداس الأوراق في أركان المكتب وخزانة الملفات مفتوحة ومبعثرة. فكر أن عليه ترتيب كل هذا، ثم قال لنفسه: «الأسبوع المقبل. الأسبوع المقبل».

تساءل إن كان بإمكانه الوصول إلى البيت، بدا له تنفسه صعبًا. قطب جبينه وضغط على ذهنه ليأمر ذراعيه وقدميه بالتحرك، نهض على قدميه

ولم يترك لنفسه الفرصة للتأرجح. أطفأ مصباح المكتب وظل واقفاً حتى استطاعت عيناه الرؤية في ضوء القمر الآتي من النافذة. ثم حرك قدمًا أمام الأخرى وسار في الأروقة المظلمة حتى البوابة الخارجية ثم في الشوارع الهادئة حتى بيته.

كانت أنوار المنزل مضاءة، ما زالت إديث مستيقظة. استجمع ما تبقى من قوته وصعد الدرجات المؤدية لباب البيت ودخل غرفة المعيشة. ثم عرف أنه لن يستطيع المضي لأكثر من هذا. استطاع أن يصل إلى لأريكة وأن يجلس عليها. بعد دقيقة استطاع أن يمد يده في جيب سترته ويخرج قنينة الحبوب. وضع واحدة في فمه وابتلعها بلا ماء، ثم تناول واحدة أخرى. كانتا مُرتين، لكنه رحب بالمرارة.
أدرك أن إديث كانت تسير في أرجاء الغرفة، تتحرك من مكان إلى آخر، تمنى ألا تتحدث معه. فيما ينحسر الألم ويعود له بعض من قواه أدرك أنها لم تتحدث بالفعل، كان وجهها متأهب، فتحتا أنفها وفمها مزمومان، وتسير بتخشب وغضب. بدأ يتحدث معها، لكنه قرر إنه لا يثق في صوته، ترك نفسه يتساءل عن سبب غضبها، إذ مر وقت طويل منذ أن كانت غاضبة آخر مرة.

توقفت أخيراً عن التحرك في الغرفة وواجهته، كانت يداها منقبضتين إلى جانبيها قالت: «حسناً، ألن تقول أي شيء؟»

سعل وحاول التركيز بعينيه وقال: «آسف يا إديث». سمع صوته هادئًا لكنه ثابت: «أنا مجهد قليلاً على ما أظن».

«لم تكن ستقول أي شيء على الإطلاق. أليس كذلك؟ أنت لا تفكر في أحد غيرك. ألم تظن أن من حقي أن أعرف؟»

احتار للحظة. ثم أومأ. لو كان لديه المزيد من القوة لشعر بالغضب.

سألها: «كيف عرفتِ؟»

«لا يهم كيف عرفت. أعتقد أن الجميع يعرف ما عدا أنا. أوه، ويلي، حقًا!»

«أنا آسف يا إديث، أنا حقاً آسف. لم أشأ أن أقلقك. كنت سأخبرك الأسبوع المقبل، قبل أن أجري العملية. الأمر بسيط، لا داعي للقلق».

ضحكت بمرارة قائلة: «بسيط! إنهم يقولون إنه قد يكون سرطان. ألا تعرف ما معنى هذا؟»

شعر فجأة أنه فقد ثقله تماماً، ومنع نفسه بصعوبة أن يتشبث بشيء. قال بصوت ناءٍ: «إديث. دعينا نتحدث عن الأمر غداً، أنا متعب حقاً الآن».

نظرت إليه لدقيقة وسألته على نحو متقطع: «أتريدني أن أساعدك في الوصول إلى غرفتك؟ يبدو أنك لن تستطيع ذلك وحدك».

«أنا بخير».

لكنه تمنى قبل أن يصل إلى غرفته لو كان قد تركها تساعده، ولم يكن لأنه وجد نفسه أضعف مما كان يظن فحسب.

قضى يومي السبت والأحد في راحة، واستطاع يوم الاثنين أن يذهب إلى محاضراته. عاد للبيت مبكراً، وكان راقدًا على الأريكة في غرفة المعيشة يحدق في السقف باهتمام حين سمع جرس الباب. جلس وبدأ ينهض على قدميه، لكن الباب انفتح. كان الزائر جوردون فينش. وجهه شاحب ويداه ترتعشان.

قال ستونر: «ادخل يا جوردون».

«يا إلهي بيل. لماذا لم تخبرني؟»

ضحك ستونر باقتضاب وقال: «كان يجب أن أعلن الأمر في الصحف كذلك. ظننت أن بإمكاني إنجاز الأمر بهدوء دون أن أزعج أحد».

«أعلم ولكن.. يا للمسيح! لو كنت أعرف..»

«لا شيء يستحق القلق، فلا شيء مؤكد بعد.. إنها مجرد عملية بسيطة. استكشاف على حد ما يدعونها. كيف عرفت مع ذلك؟»

قال فينش: «جيمسون، إنه طبيبي أنا أيضاً، قال إنه يعلم أن ذلك منافٍ لأخلاق المهنة، ولكن كان عليه أن يخبرني. إنه محق يا بيل».

«أعرف. لا يهم. هل انتشر الخبر؟»

هز فينش رأسه وأجابه: «ليس بعد».

«ابقِ فمك مغلقاً إذاً. رجاءً».

«بالطبع يا بيل. والآن بشأن ذاك العشاء يوم الجمعة ـ لست مضطرًا للذهاب، أنت تعرف هذا».

قال ستونر مبتسماً: «لكنني سأذهب. أعتقد أنني مدين للوماكس بشيء».

طاف بوجه فينش شبح ابتسامة وقال: «لقد صرت عجوزًا عنيدًا، أليس كذلك؟»

«أعتقد ذلك».

أُقيم حفل العشاء في قاعة طعام صغيرة بمبنى اتحاد الطلبة. قررت

إديث في آخر لحظة أنها لن تستطيع الذهاب، فذهب ستونر وحده. ذهب مبكراً وسار على مهل عبر الحرم، وكأنه يتنزه بأريحية في ظهيرة يوم ربيعي. وكما توقع، لم يكن أحد قد وصل بعد، استدعى النادل ليرفع البطاقة المكتوب عليها اسم زوجته ويعيد ترتيب المائدة الرئيسية لئلا يكون عليها كرسي خالٍ. ثم جلس ينتظر وصول الضيوف.

كان كرسيه بين جوردون فينش ورئيس الجامعة، وكرسي لوماكس، مُنظِّم الحفل، على مبعدة ثلاثة كراسي منه. ظل لوماكس يبتسم ويتجاذب أطراف الحديث مع من حوله دون أن ينظر إلى ستونر.

امتلأت الغرفة بسرعة، لوّح له أعضاء القسم، الذين لم يتحدثوا معه حقاً منذ سنوات، عبر الغرفة، وأومأ لهم هو برأسه. تحدث فينش قليلاً وكان يراقب ستونر بحرص. تحدث معه رئيس الجامعة الشاب، الذي لم يستطع ستونر تذكر اسمه أبداً، باحترام ودود.

قام طلبة صغار في مآزر بيضاء بتقديم الطعام، تعرف ستونر على بعضهم وأومأ لهم وتحدث معهم. نظر الضيوف بحزن إلى طعامهم وبدأوا يتناولونه. دارت في الغرفة الهمهمة الخافتة لمحادثات العشاء يقطعها صليل أدوات المائدة الفضية مع الأطباق الخزفية، عرف ستونر أن حضوره منسي تقريباً، فشعر براحة وهو ينخس طعامه ويتناول منه لقيمات قليلة من باب الأدب وينظر فيمن حوله. إذا ضيَّق عينيه لن يستطيع رؤية الوجوه، بل يرى أمامه ألوان وتكوينات مبهمة، كأنه إطار تتدفق بداخله أنماط تتجدد من دقيقة لأخرى. كانت تلك رؤية سارة، وكان ينسى الألم حين يركز فيها بطريقة معينة.

فجأة ساد الصمت. هز رأسه كأنه يفيق من حلم. كان لوماكس يقف قريباً من الطرف الأخر من المائدة الطويلة، يخبط على كأس

زجاجية بسكين. فكر ستونر بذهن شارد أن له وجه وسيم، ما زال وسيماً. جعلت السنون وجهه الطويل النحيف أنحف، وبدت خطوطه دلالات شاعرية متزايدة أكثر منها أمارات التقدم في السن. ما زالت لابتسامته تلك الحميمية الهازئة، وصوته رنان وثابت كما كان دائماً.

كان لوماكس يتحدث، فتصل الكلمات إلى مسامع ستونر متقطعة، وكأن الصوت الذي يكوّنها قد انفجر من أعماق الصمت ودار عائدًا إلى هناك مرة أخرى «.... سنوات طويلة من التفاني في الخدمة.... يستحق عن جدارة أن يرتاح من الضغوط.... تقدير زملائه...» ميّز سمعه السخرية وعرف أن لوماكس، بعد كل تلك السنوات، بطريقته الخاصة، كان يتحدث معه.

جفل من شروده على انفجار لتصفيق قصير وقوي. وبجواره كان جوردون فينش ينهض واقفاً ليلقي كلمته، ومع إنه كان يتطلع بنظره إليه ويشحذ أذنيه ليسمعه، لكنه لم يستطع سماع ما يقوله فينش، كانت شفتا فينش تتحركان، وينظر أمامه بثبات، سمع ستونر صوت تصفيق، ثم جلس فينش. على الجانب الآخر منه، نهض رئيس الجامعة وتحدث بصوت تحول سريعاً من اللين إلى الشدة، ومن الفكاهة إلى الحزن، ومن الأسف إلى المرح. قال إنه يأمل أن يكون تقاعد ستونر بداية وليس نهاية، وأن الجامعة قد فقدته، وتحدث عن الأعراف وسنة التغيير، والامتنان الذي سيشعر به السنوات المقبلة جميع طلبته. لم يستوعب ستونر ما قاله، لكن حين أنهى الرئيس كلمته، انفجر في الغرفة تصفيق حاد وابتسمت الوجوه. وفيما ينحسر التصفيق، صاح أحد الحضور بصوت رفيع «كلمة!» وأيد صوت آخر الصيحة، وترددت الكلمة من هنا وهناك.

همس فينش في أذنه يسأله: «أتريدني أن أخرجك من هنا؟»

أجابه: «لا. لا بأس». ثم نهض وأدرك أنه ليس لديه ما يقوله.

ظل صامتًا لوقت طويل ينظر من وجه لآخر. ثم سمع صوته يخرج بخفوت وقال: «لقد درّست...». ثم بدأ مجدداً: «لقد درست في هذه الجامعة لأربعين عاما تقريباً. ولو لم أكن أستاذًا، لا أعرف ماذا كنت سأفعل. إن لم أكن قد درست، لربما كنت..» وتوقف كأنه تشتّت. ثم قال كمن ينهي الأمر: «أريد أن أشكركم جميعاً على السماح لي بأن أدرّس».

جلس. وبدأ تصفيق وضحك ودود. انفضت الجلسة وبدأ الناس يتجولون. شعر بأيادٍ تصافح يده، وأدرك أنه ابتسم وأومأ لكل ما قيل له. شدّ الرئيس على يده وابتسم من قلبه، قال له إن عليه أن يمر في أي يوم، ثم نظر في ساعة يده وغادر بسرعة. بدأت الغرفة تخلو، ووقف وحده حيث نهض واستجمع قواه ليسير عبر الغرفة. انتظر حتى شعر بشيء ما في داخله يتجمد، ثم دار حول المائدة وخرج من الغرفة، مرّ بمجموعات أشخاص نظروا له بفضول، كأنه قد صار غريباً بالفعل. كان لوماكس في إحداها ولم يستدر عند مروره بهم، واكتشف ستونر إنه ممتن لأنهما لم يضطرا إلى الحديث مع أحدهما الآخر بعد كل هذا الوقت.

في اليوم التالي دخل المستشفى واستراح حتى صباح الاثنين، موعد إجراء العملية، نام معظم الوقت ولم يكن مهتماً على نحو خاص بما سيحدث له. صباح الاثنين غرز أحدهم إبرة في يده، كان نصف واعياً تقريباً أثناء انتقاله في الممرات إلى غرفة غريبة بدت كأنها من سقف وضوء فحسب. رأى شيئًا ما يهبط على وجهه وأغمض عينيه.

أفاق على شعور بالغثيان، وآلام في الرأس، كان ثمة ألم جديد حاد

بليد، في الجزء السفلي من جسده. تمدد وشعر بتحسن. ترك يديه تتحسسان الضمادات الثقيلة التي تغطي منتصف جسده. نام، واستيقظ في الليل وشرب كوب ماء، ونام مجدداً حتى الصباح.

حين استيقظ كان جيمسون واقفًا بجوار الفراش وأصابعه على معصم ستونر الأيسر.

قال جيمسون: «كيف تشعر هذا الصباح؟»

«بخير على ما أظن». حلقه جاف، مد يده، وناوله جيمسون كوب ماء، شرب ونظر إلى جيمسون، منتظرًا.

«حسناً». قال جيمسون أخيراً بقلق: «نِلنا من الورم. ورم كبير. ستشعر بتحسن كبير خلال يومين أو ثلاثة».

سأل ستونر: «سأستطيع الخروج من هنا؟»

«ستنهض وتروح وتجيء خلال يومين أو ثلاثة. لكن سيكون من الأنسب لو بقيت معنا لفترة. لم نستطع استئصاله كله كاملاً. سنحتاج إلى أشعة سينية وأشياء من هذا القبيل. بالطبع يمكنك الذهاب والعودة، لكن..»

«لا». قال ستونر وهو يترك رأسه تسقط على الوسادة. كان متعباً مرة أخرى. قال:» بأسرع وقت ممكن، أعتقد إنني أريد أن أعود إلى البيت».

xiii.

قالت زوجته: «أوه ويلي، إنك تؤكل تماماً من الداخل».

كان يرقد على الفراش الضيق في الغرفة الخلفية الصغيرة، يحدق صوب النافذة المفتوحة، كان الوقت آخر النهار والشمس تغرب خلف الأفق وترسل وهجًا أحمر على الحواف السفلية لسحابة متموجة عالقة غرباً أعلى قمم الأشجار والمنازل. طنت ذبابة على زجاج النافذة، وعلقت رائحة احتراق القمامة النتنة في باحة الجيران في الهواء الساكن.

«ماذا؟» قال بذهنٍ شارد واستدار لها. قالت: «من الداخل.. قال الأطباء إنه انتشر تماماً. أوه، ويلي، مسكين ويلي».

قال: «نعم». دون أن يحمّل نفسه مشقة الاهتمام حقاً. «حسناً، لا داعي للقلق. الأفضل ألا تفكري في الأمر».

لم تجبه، فاستدار مجددًا نحو النافذة المفتوحة يراقب السماء وهي تظلم، حتى لم يعد سوى خيط بنفسجي واهن أعلى السحابة البعيدة.

كان قد عاد إلى البيت منذ أكثر من أسبوع بقليل، وكان في تلك الظهيرة قد عاد لتوه من المستشفى حيث خضع لما أسماه جيمسون بابتسامة متوترة «عِلاج». أعرب جيمسون عن إعجابه بسرعة الشفاء التي حققتها الجراحة، وقال شيئًا ما عن تمتعه ببنية رجل أربعيني، ثم صمت فجأة. ترك ستونر نفسه للوخز والنخس، تركهم يعرّونه على طاولة وظل لا يحرك ساكنًا فيما تحلق فوقه آلة ضخمة بهدوء. كان

يعرف أنها حماقة، لكنه لم يعترض، سيكون من القسوة أن يعترض. كان شيئًا هيناً وسيتحمله، إن كان يلهيهم جميعاً عن المعرفة التي لم يكن بمقدورهم تجنبها.

عرف تدريجياً أن تلك الغرفة الصغيرة التي يرقد فيها الآن وينظر خارج نافذتها ستغدو عالمه، بدأ يشعر بالفعل بالبدايات المبهمة للألم الذي عاد كنداء بعيد لصديق قديم. خمن أنهم سيطلبون منه العودة مجددًا إلى المستشفى، ميّز في صوت جيمسون اليوم يقيناً ما، وقد أعطاه حبوبًا ليتناولها في حال شعر «بمكروه».

سمع نفسه يقول لإديث: «ربما من الأفضل أن تكتبي لجريس. لم تزرنا منذ وقت طويل». واستدار لها فرآها تومئ بشرود، كانت عيناها، مع عينيه، تحدقان بهدوء في الظلمة المخيمة خارج النافذة.

خلال الأسبوعين التاليين، شعر بالوهن يتملكه، تدريجيًا في البدء ثم بسرعة. عاد الألم بحدة لم يكن يتوقعها. كان يتناول الحبوب ويشعر بالألم يتراجع في الظلام، مثل حيوان حذر.

جاءت جريس، ووجد أنه، رغم كل شيء، لم يكن لديه إلا القليل ليقوله لها. كانت خارج سانت لويس، وعادت لتجد خطاب إديث أول أمس فقط. كانت منهكة ومتوترة وأسفل عينيها ظلال داكنة. تمنى لو كان بوسعه عمل شيء ليخفف من ألمها وكان يعرف أنه لن يستطيع.

قالت: «تبدو بخير بابا. بخير تماماً. ستصبح على ما يرام».

قال وهو يبتسم لها: «بالطبع. كيف حال الصغير إد؟ وكيف حالك؟»

قالت إنها بخير وإن الصغير إد بخير، وإنه سيدخل المدرسة الابتدائية الخريف المقبل. نظر إليها بدهشة قليلاً وسألها: «الابتدائية؟» ثم أدرك

أن الأمر هكذا حقاً. «بالطبع، لقد نسيت أنه لابد قد كبر الآن».

«إنه يبقى مع... مع السيد فراي وزوجته أغلب الوقت. هكذا أفضل له». وأضافت شيئًا آخر لكن انتباهه كان قد تشتت عنها إلى حيث لم يتوقع، وكان يجد نفسه أحيانًا يردد كلمات لا يفهم مصدرها.

سمع جريس تقول: «مسكين بابا». فأعاد انتباهه لها، سألته: «بابا حبيبي، لم يكن الأمر سهلاً عليك، أليس كذلك؟»

فكر دقيقة ثم قال: «لا، لكني أعتقد أنني لم أرد غير ذلك».

«أنا وماما... لقد خيبنا أملك فينا، أليس كذلك؟»

مد يده لأعلى كأنما ليلمسها وقال بعاطفة خافتة: «أوه، لا يجب ألا...» أراد أن يقول المزيد، أن يشرح، لكنه لم يستطع الاستمرار. أغمض عينيه وشعر بذهنه يسترخي. ازدحمت فيه الصور وتبدلت، كأنها على شاشة. رأى إديث كما كانت في أول أمسية رآها فيها في منزل العجوز كلاريمونت، الثوب الأزرق والأصابع النحيلة والوجه الحسن الرقيق الذي يبتسم بنعومة، والعينان الشاحبتان تنظران لكل تفصيل كأنها مفاجأة جميلة. قال: «أمك... لم تكن دائماً..» لم تكن دائماً على ما هي عليه، وفكر الآن أن بإمكانه رؤية الفتاة التي كانتها أسفل المرأة التي صارتها، وفكر أنه كان يراها على الدوام.

سمع نفسه يقول: «كنتِ طفلة جميلة». ولوهلة لم يعرف إلى من يتحدث. سبح الضوء أمام عينيه، تشكّل في شيء ثم وضح وجه ابنته، مليء بالخطوط وواجم ويُنهكه القلق. أغمض عينيه مرة أخرى وقال: «في المكتب، أتذكرين، كنت تجلسين معي وأنا أعمل. كنت هادئة للغاية، والضوء.. الضوء...» ضوء مصباح المكتب (يمكنه أن يراه

الآن) يمتصه وجهها الجاد الصغير المنكب بنباهة طفولية على كتاب أو صورة، فكانت بشرة الوجه الناعمة تومض مقابل ظلال الحجرة. سمع صدى الضحكة الصغيرة من بعيد. قال: «بالطبع» ونظر إلى الوجه الحالي لتلك الطفلة وقال: «كنتِ دائماً هناك».

قالت بهمس: «يجب أن ترتاح الآن».

وكان ذلك وداعهما. جاءته في اليوم التالي وأخبرته أن عليها العودة إلى سانت لويس لأيام قليلة، وقالت شيئاً آخر بصوت عادي ثابت، لكنه لم يسمعه، كان وجهها ممتقعًا، وعيناها حمراوين ومغرورقتين، ونظرتهما مستغلقة، نظرت إليه لوقت طويل، كأنما تكذّب عينيها، ثم استدارت. عرف أنه لن يراها مرة أخرى.

لم يكن يرغب في الموت، لكنه كان في بعض اللحظات، كما حدث بعدما غادرت جريس، يتطلع إليه بفارغ الصبر، مثل مسافر يتطلع لرحلة لا يرغب فيها، لكنه كمسافر يشعر أن عليه إنجاز أشياء كثيرة قبل رحيله، مع ذلك لم يستطع التفكير في ما هي تلك الأشياء.

بات واهنًا جدًا حتى لم يستطع أن يسير. قضى أيامه ولياليه في الغرفة الخلفية الصغيرة. جلبت له إديث الكتب التي أرادها، ورتبتها على طاولة صغيرة بجوار فراشه الضيق، لئلا يجهد نفسه في الوصول إليها.

لكنه يقرأ قليلاً، مع ذلك كان وجود الكتب بجواره يبعث على الراحة. جعل إديث تزيح ستائر جميع النوافذ وكان يرفض أن تسدلها، حتى وشمس الظهيرة المتوهجة بشدة تضرب في الغرفة.

أحياناً تأتي إديث إلى الغرفة تجلس بجواره على الفراش ويتحدثان. يتحدثان عن أمور تافهة.. عن أشخاص عرفاهما بالصدفة، عن مبانٍ

جديدة تُشيد في الحرم الجامعي، مبنى قديم يهدونه، لكن ما قالاه لم يبد مهماً. ساد بينهما هدوء جديد. هدوء يشبه بدايات الحب، وبلا تفكير تقريباً، عرف ستونر لماذا ساد هذا الهدوء. كان كل منهما قد سامح نفسه على ما تسبب فيه من أذى للآخر، وكانا جذلان في التفكير فيما كانت حياتهما معاً لتصير إليه.

ينظر إليها الآن بلا ندم تقريباً، في الضوء الناعم للغروب، يبدو وجهها صغيرًا وخاليًا من الخطوط. فكر في نفسه، لو كنت أقوى، لو كنت أعرف أكثر، لو كنت فهمتها. وأخيراً، قال بينه وبين نفسه أيضاً، بلا رحمة، لو كنت قد أحببتها أكثر. مدّ يده من تحت أغطيته، كأنه سيحركها مسافة طويلة للغاية، ليلمس يدها، لم تحرك ساكناً، وبعد فترة غرق في لجّة النوم.

بدا له ذهنه صافياً، برغم المسكنات التي يتناولها، وكان شاكرًا لهذا، لكنه مع ذلك بدا تحت سيطرة شخص آخر غيره، يوجهه على نحو لم يفهمه. مر الوقت لكنه لم يشعر به.

كان جوردون فينش يزوره يومياً تقريباً، لكنه لم يستطع تذكر الترتيب الزمني لتلك الزيارات بوضوح، كان أحياناً يتحدث معه وهو غير موجود، وأحياناً يفاجأ بصوته في الغرفة الخالية، وأحياناً، في وسط محادثة بينهما، يسكت ويجفل، كأنه فوجئ بوجوده. ذات مرة وفينش يدلف الغرفة على أطراف أصابعه استدار له بدهشة وسأله: «أين ديف؟» وحين رأى الصدمة على وجه جوردون هز رأسه بوهن وقال: «أنا آسف يا جوردون، كنت نائماً، وكنت أفكر في ديف ماسترس.. وأحياناً أقول ما أفكر فيه دون أن أعرفه. إنها تلك الحبوب التي أتناولها».

ابتسم فينش وأومأ برأسه وألقى بمزحة، لكن ستونر شعر به في تلك

اللحظة يتراجع عنه بلا عودة. شعر بندم شديد على تحدثه هكذا عن ديف ماسترس، الفتى الجسور الذي أحباه هما الاثنان، والذي استبقاهما شبحه طوال تلك السنوات في صداقة لم يدركا مدى عمقها قط.

نقل له جوردون تحيات زملائه في العمل، وتحدث بتقطّع عن شؤون الجامعة التي قد تهمه، لكن عينيه كانتا قلقتين وطافت ابتسامة عصبية بوجهه.

جاءت إديث إلى الغرفة، ونهض جوردون فينش على قدميه مُرحباً وودوداً ومرتاحاً للمقاطعة. قال لها: «إديث اجلسي هنا».

هزت إديث رأسها ونظرت بطرف عينها لستونر. فقال فينش: «بيل العجوز يبدو بخير، أقسم بالله أنه يبدو أفضل كثيرًا مما كان عليه الأسبوع الماضي».

نظرت إليه إديث كأنها لاحظت وجوده لتوها، قالت: «أوه جوردون. إنه يبدو مريعاً. مسكين ويلي. لن يبقى معنا لوقت طويل».

شحب وجه جوردون وتراجع خطوة للخلف كأنه صُدِم. «بالله عليك يا إديث!»

«ليس لوقت طويل». قالت مجدداً وهي تنظر بكآبة إلى زوجها الذي ابتسم لها قليلاً. ثم قالت: «ماذا سأفعل جوردون؟ ماذا سأفعل بدونه؟»

أغمض ستونر عينيه واختفت إديث وفينش، سمع جوردون يهمس بشيء وسمع وقع خطواتهما وهما يخرجان ويبتعدان عنه.

ما كان واضحًا غاية الوضوح له هو أن الأمر سهل جداً. كان بوده أن يخبر جوردون بمدى سهولته، أراد أن يخبره أنه لا يزعجه الحديث

عنه أو التفكير فيه، لكنه لم يستطع. الآن لا يبدو الأمر مهمًا حقاً، سمع صوتيهما في المطبخ، صوت جوردون منخفض وقلق، وصوت إديث ناقم ومتقطع. عما يتحدثان؟

يأتيه الألم بغتة وبسرعة على نحو غادِر حتى يكاد يصرخ. كان يلقي بيدٍ متهدلة على أغطية الفراش ويأمرها أن تمتد للطاولة المجاورة بثبات ليتناول عدة حبوب في فمه ويبلع وراءها الماء. يتفصد جبينه عن عرق بارد ويرقد ساكناً حتى ينحسر الألم.

سمع الأصوات مرة أخرى، لم يفتح عينيه. أكان جوردون؟ بدا أن أذنيه قد خرجتا من جسده وحلقتا فوقه كالسحابة، تنقل له أرقّ الأصوات. لكن ذهنه لم يميز الكلمات تماماً.

كان الصوت - أكان جوردون؟ - يقول شيئًا ما عن حياته. وبالرغم من عجز ذهنه عن تمييز الكلمات، أو عن الجزم بأنه سمعها حتى، فإن ذهنه انقض بشراسة على هذا السؤال كحيوان مفترس جريح. رأى حياته بلا رأفة كما قد تبدو للآخرين.

تأمل في الفشل الذي تجسده حياته ببرود وموضوعية. أراد الصداقة وقربها الذي يُبقيه في سباق الرجال، حظي بصديقين، مات أحدهما عبثاً قبل أن يعرفه، وتراجع الآخر الآن بعيداً إلى مرتبة الأحياء التي... أراد سكن الزواج وقربه الوطيد، حظي بذلك أيضاً، ولم يعرف ماذا يفعل به، وقد راح. أراد الحب، وحظي بالحب، وتخلّى عنه، تركه يذهب لغياهب الاحتمالات. كاثرين. قال بينه وبين نفسه: «كاثرين».

وأراد أن يكون أستاذاً، وقد صار كذلك، مع ذلك يعرف، وكان يعرف دائماً، أنه قضى أغلب حياته لا يبالي. كان يحلم بكمال ما، بنقاء غير منقوص، فوجد الحل الوسط والميل المهين للتفاهات. تطلع إلى

الحكمة، ووجد في نهاية السنين الطوال الجهل. وماذا أيضاً؟ فكر في نفسه. ماذا أيضاً؟

سأل نفسه: ماذا كنت تتوقع؟

فتح عينيه، لقد حل الظلام. ثم رأى السماء بالخارج، الفراغ الأسود المزرق، وبريق ضوء القمر الخفيف من خلال سحابة. فكر في نفسه أن الوقت لابد متأخر جداً، بدا له أنه لم يمر ثواني قليلة على وقوف إديث وجوردون بجواره، في الظهيرة المشرقة. أم كان ذلك منذ وقت طويل؟ أنّى له أن يعرف.

عرف أن قواه الذهنية تخور هي الأخرى مع جسده، لكنه لم يكن مستعداً للمفاجأة. فكر أن الجسد قوى، أقوى مما نتخيل. يريد أن يواصل دائماً.

سمع أصوات، ورأى أضواء، وأحس بالألم يروح ويأتي، حلّق وجه إديث فوقه، شعر بوجهه يبتسم. سمع أحياناً صوته يتحدث، وظن أنه يتحدث بكلام منطقي، مع ذلك لم يكن واثقًا. شعر بيدي إديث عليه، تحركانه، تحمانه. فكر إنها استعادت طفلها مرة أخرى، أخيراً صار لها طفلها الذي تعتني به. تمنى لو كان بمقدوره أن يتحدث معها، شعر أن لديه شيء ما يقوله.

فكر في نفسه: ماذا كنت تتوقع؟

كان شيء ما يضغط على جفنيه. شعر بهما يرتعشان ثم استطاع أن يفتحهما. أحس بالضوء، ضوء شمس الظهيرة الساطعة، جفل ونظر بلامبالاة للسماء الزرقاء والحافة اللامعة للشمس التي يمكنه رؤيتها من نافذته. قرر أنها أشياء حقيقية. حرك يديه، وشعر مع الحركة بفيض

غريب من القوة بداخله، كأنه يستمدها من الهواء. تنفس بعمق، لم يكن ثمة ألم.

بدا له أن قوته تتزايد مع كل نفس يتنفسه، سارت في جسده قشعريرة وشعر بالوزن الرقيق للضوء والظل على وجهه. نهض من رقدته على الفراش وجلس، ظهره مستندًا على الجدار، يمكنه الآن رؤية الخارج بالأسفل.

شعر كمن استيقظ من نوم طويل مستعيدًا نشاطه. كان ذلك في أواخر الربيع أو بدايات الصيف.. الأرجح أنه بدايات الصيف، مما تبدو عليه الأشياء. كان ثمة ثراء ولمعة على أوراق شجرة الدردار الكبيرة في باحته الخلفية، وكانت تلقي بظلال لها برودة عميقة كان يعرفها من قبل. كان في الهواء كثافة، زخم من العبير الحلو للعشب وأوراق الشجر والزهور، ممزوجة معاً ومعلقة في الفراغ. تنفس بعمق مجددًا، سمع صوت تنفسه وشعر بحلاوة الصيف تتجمع في رئتيه.

شعر أيضاً وهو يتنفس بعمق بحدوث تحول ما في مكان ما بداخله، تحول أوقف شيئاً ما، وثبّت رأسه بحيث صار لا يمكنه تحريكها. ثم انتهى الأمر، ففكر في نفسه، أهذا هو الأمر إذاً؟

دار بخلده أن ينادي إديث، ثم عرف أنه لن يناديها. قال لنفسه إن الموتى أنانيون، يريدون وقتهم لهم وحدهم، كالأطفال.

كان يتنفس مجدداً، لكن باختلاف ما لم يستطع تحديده. شعر أنه كان في انتظار شيء ما، معرفة ما، وبدا له أن لديه ما لا نهاية له من الوقت.

سمع صوت ضحك بعيد، فأدار رأسه صوب مصدره. كانت مجموعة من الطلبة تمر بحديقة باحته الخلفية، كانوا يهرولون إلى مكان

ما، رآهم بوضوح، كانوا ثلاثة أزواج. الفتيات رقيقات لهن سيقان نحيفة ويبدون رشيقات في أثوابهن الصيفية الزاهية، والصبية ينظرون إليهن بدهشة وفرح وجذل. ساروا بخفة على العشب، لا يكادون يلمسونه، لا يتركون خلفهم أثرًا. راقبهم حتى اختفوا من مجال رؤيته، حيث لا يمكنه أن يراهم، ولوقت طويل بعد اختفائهم ظل يسمع صوت ضحكاتهم، بعيدة ومجهولة في هدوء الظهيرة الصيفية.

فكر في نفسه ثانيةً: ماذا كنت تتوقع؟

اجتاحه فرح ما، كأنما أتاه تحمله نسمة صيف. تذكر أنه ظل يفكر بكآبة في الفشل.. كأنه شيء مهم. بدت له الآن تلك الأفكار وضيعة، لا تستحق أن تُعرِّف حياته. تجمعت كيانات قاتمة على حافة وعيه، لم يكن يراها، لكنه يعرف أنها هناك، تحشد قواها نحو وجود حسي ما لم يستطع رؤيته أو سماعه. إنه يقترب منها، يعرف هذا، لكن لا داعي للعجلة. يمكنه تجاهلها إذا أراد، لديه كل الوقت.

كان ثمة نعومة تحيط به. وسرى في أطرافه خدر. انتابه فجأة شعور قوي بهويته، لمس طاقته. كان نفسه، وكان يعرف ما هو عليه.

أدار رأسه. على الطاولة المجاورة لفراشه أكداس من كتب لم يلمسها منذ وقت طويل. ترك يده تلعب عليها لوقت، تعجب من نحول الأصابع، من الأداء المعقد للمفاصل وهو يثنيها. شعر بالقوة بداخلها وتركها تسحب كتاباً من الكتب المرصوصة على طاولة الفراش. كان كتابه، وحين حملته اليد ابتسم للغلاف الأحمر المألوف الذي أبلاه الزمن.

لم يعبأ بأن الكتاب قد نُسي وأنه ذهب سدى، وأن مسألة قيمته في أي عصر من العصور تبدو الآن تافهة. لم يكن لديه الوهم بأنه قد يجد نفسه فيه، في تلك الطباعة البالية، ومع ذلك، كان يعرف أن جزءًا صغيرًا منه

لا يمكنه إنكاره كان هناك بالفعل. وسيبقى هناك.

فتح الكتاب، وما إن فتحه لم يعد كتابه. ترك أصابعه تعبث في الصفحات وتشعر بقشعريرة، كما لو كانت الصفحات حيّة. سرت القشعريرة من أصابعه وتوغلت في لحمه وعظمه، كان واعياً بها بكل ذرة من كيانه، انتظر حتى غمرته كله، وحتى ثبتته الإثارة القديمة، التي تشبه الذعر، حيث يرقد. انعكس شعاع الشمس المار بالنافذة على الصفحة ولم يستطع قراءة المكتوب فيها.

ارتخت الاصابع، وتحرك الكتاب الذي كانت تمسك به ببطء، ثم بسرعة، على الجسد المسجى وسقط في صمت الغرفة.

تمت

كان ثمة نعومة تحيط به. وسرى في أطرافه خدر. انتابه فجأة شعور قوي بهويته لمس طاقته. كان نفسه، وكان يعرف ما هو عليه .

أدار رأسه. على الطاولة المجاورة لفراشه أكداس من كتب لم يلمسها منذ وقت طويل. ترك يده تلعب عليها لوقت، تعجب من نحول الأصابع، من الأداء المعقد للمفاصل وهو يثنيها. شعر بالقوة بداخلها وتركها تسحب كتاباً من الكتب المرصوصة على طاولة الفراش. كان كتابه، وحين حملته اليد ابتسم للغلاف الأحمر المألوف الذي أبلاه الزمن .


ISBN 978-9938-880-39-7

Design by Mahdi Abdu